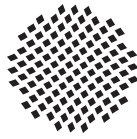


حَوَارَانٌ فِي النَّيْخِ

الجزء الأول

المؤلف

نبيل محمد الدين زين العابدين الطريفي



دار الأمل

للطباعة والنشر والتوزيع



حَوَارِئُ فِي الدِّيَارِ

مُتَّفِقٌ لِلطَّبْعِ مُحْفُوظٌ

الطبعة الأولى
١٤٤٥ هـ - ٢٠٢٤ م

رقم الإيداع

(2023/15230)

I.S.B.N. 978 - 977 - 86764 - 3 - 3

دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع

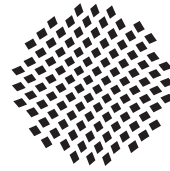
01000 28 21 66 [+2]

دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع

Daralamal Dar Alamal

Daralamal2014@gmail.com

www.alamalpub.com

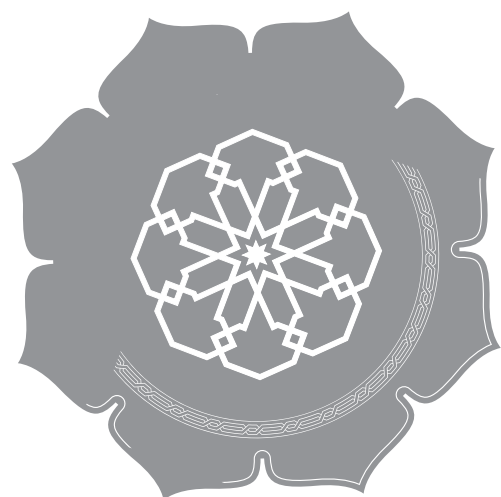


دار الأمل
للطباعة والنشر والتوزيع



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا



الإهداء

إلى روح والدي الذي علمني أبجدية الأخلاق وزرع في الإيمان بالله وحب الوطن.

إلى روح والدتي زينب عبدالرحمن الحريري، أم نبيل، التقية النقية الطاهرة التي أرضعتني لبن الصدق والوفاء.

إلى روح أخي وصديقي وصهري الشهيد العميد الركن حسين سليمان زين العابدين «أبو نضال» الذي نذر نفسه طيلة حياته لخدمة المحتاجين من سورية عامة ومن حوران خاصة.

إلى شقيقتي الفاضلتين نبيله «أم نضال زين العابدين» وسميحه «أم باسل الحريري».

إلى أشقائي الشيخ سميح «أبو خالد» والشيخ رياض «أبوفراس» والأستاذ شكري «أبوالنور» والشيخ أمجد «أبو الخير» والأستاذ المهندس هاشم «أبوكرم» الذين أحاطوني بحبهم وتشجيعهم.

إلى زوجتي العزيزة رسلية محمد سليم عبدالرازق «أم علاء»، التي أعانتي على برّ والديّ وأكسبني رضاهما، وتحملتني ووقفت إلى جانبي في السراء والضراء.

إلى جميع أحبائي وأصدقائي وأهلي أهل حوران الكرم والإباء.

أقدم عملي المتواضع هذا، راجياً من الله العليّ القدير أن يجزيهم عني كل خير.

أبت أمية أن تفنى محامدُها
فمن غطارفةٍ في جلقِ نجبٍ
لا يصبرون على ضيمٍ يحاوله
على المدى وأبى أبناء غسانٍ
ومن غطارفةٍ في أرضِ حورانٍ
باغٍ من الإنس أوطاغٍ من الجانِ

حافظ إبراهيم

كلمة فضيلة الأستاذ الدكتور الشيخ محمد فندي راشد الحريري

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن اتبع هداه

وبعد:

إنَّ كتاب «حوران في التاريخ» للباحث الشريف الأخ الأستاذ نبيل عز الدين زين العابدين الحريري، حفظه الله، هو كتاب فريد ونبيل وممتع، يغطي جانباً معرفياً أهمله كثيرون وهو كتاب بعيد المرامي نبيل القصد والهدف، فكان نبيلاً من نبيل حقاً، يتحدث عن ملامح من تاريخ لواء حوران «مملكة باشان // هيورانتوس» وهي من مناطق الاستقرار الأولى بشرياً، وكانت تُدعى «أهراء روما»، ولا تُضاء كنائس روما إلا من زيت الزيتون الحوراني المقدس.

مرَّ منها سيدنا عيسى المسيح ﷺ، ويحيى المعمدان «الذي استشهد بتدبير العاهرة اليهودية هيروديا في أرض تسمى اليوم «نبع الصَّخْر» إلى الغرب الشمالي من تل الحارث، أو حارث الجولان «المسمى اليوم تل الحارة»، وفيها عاش سيدنا أيوب ﷺ قرب مدينة نوى «منطقة البثينة» وتدعى اليوم بـ«الشيخ سعد» وفي أرضها لا يزال البئر الذي فجره الله له مغتسلاً بارداً وشراباً، وعلى أرض حوران عاش ودُفن نبيُّ الله «اليسع ﷺ»، وهو مدفون في بلدة بسر الحريري بجوار مسجد جميل يحمل اسمه، ولعلَّ هذا المسجد من أروع مساجد العالم الإسلامي على بساطته. ومن حوران عبر النبي الاعظم سيدنا محمد ﷺ والصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، في شبابه تاجراً بأموال

السيدة خديجة بنت خويلد، قادما من مكة المكرمة الى دمشق. حوران عبق التاريخ، وأريج أحداثه الرائعة ممتزجا بالجغرافية الجميلة، والحضارة والمدنية بأبهى صورها وأوسع آفاقها، هذه المنطقة من العالم التي أنجبت عظماء التاريخ بدءاً من الامبراطور «فيليب العربي» وأبي تمام وهبة الله الجاسمي، والقادة والشعراء والعلماء الذين منحوا الحياة طعماً ونكهة خاصة، بعد بزوغ فجر الإسلام وملؤوا الدنيا بأنواره وعلومه في كافة فروع المعرفة، من العلوم العسكرية والطبية والصيدلانية والبيطرية والزراعية والصناعية، ووضعوا مؤلفات نافعة في كل علم من العلوم الإنسانية، هذه المنطقة تستمر في عطائها المشرق وتضرب الأمثال للعالم بقدراتها الخلاقة وطاقاتها الابداعية، مستلهمة الروح الوثابة مما جرى على مسرحها من أحداث جسام، كالواقوسة مثلاً «وهي يوم من أيام الله» إبان فتح بلاد الشام، كانت «حوران» بوابة هذا الفتح العظيم، ففي أقصى نقطة في الشمال «في القسم الأردني من حوران» في بني كنانة وفي منطقة الشعلة بجانب العشة، المطلة على نهر اليرموك، وعلى ساحة العمليات لمعركة اليرموك الفاصلة، وعلى مقربة من الجولان المحتل، نجد النصب التذكاري لعمود شامخ يمثل سيف الله المسلول سيدنا خالد رضي الله عنه، عندما تصل تلك النقطة المباركة تجد لوحة كبيرة مكتوب عليها «سير معركة اليرموك» بشكل موجز وتجد مقابلها في وسط الوادي العميق تلة تحمل اسم سيدنا خالد، التي وقف عليها هذا القائد الخالد، ومن خلال وجوده عليها استطاع أن يدير المعركة بكفاءة لا نظير لها في التاريخ، وترى بالقرب منها المقطع الصخري العظيم والذي يسمى بالواقوسة، وهو الموضع الذي سقط فيه نصف جيش هرقل بعد أن أمر خالد بزج الاحتياط من الخلف وتم دفعهم تجاه وادي الواقوسة الساحق بفعل ضغط القوة المهاجمة لهم من

الخلف، والذي أراحهم خالد لمدة نصف نهار حتى يستريحوا ثم ليفاجئوا جيش هرقل من الخلف بعد أن عبروا إليهم من قرية الطرة إلى تل شهاب، واتجهوا غرباً بحركة صاعقية ليهاجموا العدو في مقتل تشيب له رؤوس الولدان، حيث أن قيادة الجيش الروماني بقيادة هرقل وهامان قد فقدوا أعصابهم، وبدأ هرقل بالبكاء والصراخ بعد أن رأى عشرات الألوف من جيشه تسقط في الواقوسة بفعل الضغط لقوة الاحتياط، ولكز هرقل حصانه وقال لمن حوله: من أراد النجاة فليتبعني، وداعاً يا سورية وداعاً لا لقاء بعده.

كان جيش هرقل مئتي ألف، وجيش المسلمين أربعين ألفاً، وكانت خسائر الروم أكثر من مائة وعشرون ألفاً أما خسائر المسلمين فلم تبلغ معشار ذلك.

إن الواقوسة التي تواقص فيها جيش ماهان لا تزال حاضرة في ذهن كل حوراني من ذلك اليوم، وستبقى إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، فهي التي حرّكت نفوس الحورانيين للثورة على الصليبيين والمغول، ثم دفعتهم للثورة على طغيان الفرنسيين، إبان احتلالهم لسورية، فقد انطلقت شرارة الثورة السورية الكبرى من حوران، وشارك فيها الحورانيون بكافة فئاتهم وعشائرهم، وقد حسبت فرنسا أن دخول حوران خاصة وسورية عامة نزهة، وإذا بها تلاقي الموت الزؤام، وقد خلد الشاعر القروي ذلك الموقف فقال:

من قمح حوران أراد وليمةً فأتاه سُم الموت من حوران

وحوران الجغرافيا لا تقل روعةً عن حوران التاريخ، فهي من مناطق الاكتفاء الذاتي، وهي سلّة خبز بلاد الشام، وكانت تسمى «أم المساكين واليتامى» فلا جائع فيها، والخيرات كثيرة، وفيها أنهار الرقاد والعلان ووادي العرام والزبيدي وينابيع

وعيون الثريا «بجوار أنخل» ومرج الصُفّر «قرب نمر وجاسم»، ونبع الصخر، وما أكثر النباتات الطبية والغذائية ونباتات الزينة في حوران «البابونج والغار البصري النبيل المنسوب إلى بسر الحريري، واليبروح والنسرين وست الحسن والقريص والجعدة والمريمية وأصابع مريم «الديجيتال» والزفرة أو «الداتيورا، والدفلة والخبيزة والهندباء والعكوب و..... غير ذلك الكثير» والأشجار المثمرة والحراجية والسياحية، إضافة للحيوانات والطيور بنوعها البرية والليفة، كل ذلك جعل سبل الحياة ميسرة لساكني حوران، لذلك قصدها المهاجرون من مختلف مناطق العالم فوجدوا فيها الأمن والأمان والترحيب وفرص العمل والتسامح، بين النصارى والمسلمين، وبين الكرد والعرب والشركس والترک والقوقاز وبعض الأوربيين، وغيرهم من فئات المجتمع الحوراني ومكوناته «الديموجرافية».

وتطالعك في حوران جملة من الآثار القديمة والمتوسطة، قلعة بصرى وفيها المدرج الروماني الوحيد عالمياً الذي بقي على حالته شبه الكاملة، وآثار أذرعات «المسماة خطأ درعا) وداعل وأنخل «قصر زين العابدين الحريري» ونمر «خان ومعصرة زيتون» والحارّة «خان الحلابات ودير ماما)، وآثار بلدة «بسر الحريري» وتسمى خطأ أيضاً «بصر الحرير» وآثار نوى وصماد والطيبة والغرايا، بل وفي كل حاضرة من حوران تطالعك الآثار التي أهملت ومنها ما انهار أمام عاديات الأيام.

هذه هي حوران بمكوناتها البشرية والجغرافية والآثارية الحضارية، أهملها أيضا الباحثون مثلما أهملها الغوغاء بنقل حجارة أطلالها، بل سرقة آثارها بتشجيع من المتنفذين وحكام السوء، فزادت الأمر سوءاً على سوء، سرقة تاريخ حوران وآثار حوران وجغرافيتها، وكثير من رموزها ومقتنياتها ومياهاها ومتعلقاتها، وجاء هذا

الكتاب محاولة ردّ اعتبارٍ لحوران والهورانيين، وخطوة على طريق البحث، ومادة تراثية مرجعية للباحثين مستقبلاً، كتاب يجمع بين العراقة والأصالة، موثق وفق معايير بيّنة من المصادر المشهورة، والباحث بذل جهداً طيباً مشكوراً لابرار حوران تاريخياً وحضارياً، واني أدعو الله له أن يشيخه على ما قدّم، وأن يبيّ باحثين يكملون الطريق، ففي الأمر سعة ولا يزال باب البحث مفتوحاً، وكما قيل: «كل شيء إذا أخذت منه نقص إلا العلم، إذا أخذت منه زاد!» ونأمل من الباحثين الهورانيين أن يأخذوا بنصيحتهم من البحث والمتابعة، والله من وراء القصد، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

الدكتور. محمد فتحي راشد الحريري

باحث في وزارة التربية والتعليم بدولة الامارات

وأستاذ في جامعة الشارقة

الثاني عشر من رجب الله الحرام ١٤٣٥ هـ/دب



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونسترشده ونؤمن به ونتوكل عليه وبعد:

لقد دفعتني عوامل عديدة وعديدة جداً لخوض غمار هذا العمل، على ما فيه من المسؤولية الكبيرة، وما يتطلبه من جهد، وهذا الكتاب هو عبارة عن موسوعة مصغرة درسنا فيه جغرافية حوران، والبنية الجولوجية، والبنية الجيومورفولوج، ولخصنا فيه تاريخ منطقة حوران، بدءاً من مرحلة ما قبل التاريخ إلى عصرنا الحاضر.

نذكر من تلك العوامل:

١. عدم وجود دراسات علمية موضوعية جادة لهذه المنطقة الهامة من بلاد الشام التي كانت على مرّ التاريخ مسرحاً لأحداث جسيمة، ومهداً لحضارات مازالت آثارها شاخخة تشهد لها بالعظمة والمجد الذي وصلت إليه، ومصطرباً تحطمت على ثراه جباه امبراطوريات حاولت أن تطمس هويته العربية، وهدفاً يسهل له لعب الأعداء الصهاينة.

٢. وجود دراسات قليلة، لم ترق إلى مستوى المراجع التاريخية، لتعثرها بالدوافع المصلحية «الآنية أو العشائرية أو الطائفية»، ولم تتحلّى بالموضوعية المطلوبة في ما يخص هذه المنطقة المباركة.

٣. محاولة البعض الحوم حول تاريخ حوران، ليلتقط بعض حبات من عقده الفريد، يزين بها صدر محاولته البائسة، فيكسب الشهرة دون عناء، فجاءت محاولته عاجزة عن تأدية الغرض المطلوب. وكذلك وفاءً مني لأرض ولدت فيها وترعرعت بين أحضانها وعشقت ترابها، وأرضعتني حبها والاعتزاز بالانتماء إليها.

المؤلف

جغرافية حوران

حوران وحورانو وحوريم وباشان وباشان واورانيس

وحوران كلمة آرامية الأصل مشتقة من حوريم وتعني الكهوف والحفر، وقالوا أنها تعني الأرض السوداء وعرفت عند الآشوريين باسم جيرانوين أي الأرض المجوفة، وجاء ذكرها في التوراة بأنها باثان وباشان وفي الفترة ما قبل الميلاد كانت تعرف بباشان ناو باسان، ومن هذه التسمية جاءت كلمة باسالت أو بازالت وسميت في عهد الرومان باهراء روما أي مخازن روما لوفرة محاصيلها الزراعية وسموها ايضاً أوراتس، أما العرب فسموها حوران بمعنى الملجأ أو الكهف.

وقد ذُكرت في كتاب معجم البلدان أنها كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة وذكر بها قرى ومزارع عديدة.

وحوران هي الهضبة الواقعة جنوب سورية الحالية وليس سورية الطبيعية، مقعرة الوسط وقد أطلق هذا الاسم على المنطقة الممتدة بين جبال عجلون جنوباً وحوضه دمشق شمالاً، ومن أقدام جبال الحرمون غرباً حتى ما وراء جبل حوران شرقاً، قامت فيها حضارات عظيمة رائعة ما تزال آثارها باقية حتى الآن، ودارت على ثراها معركة اليرموك الشهيرة عام (٦٣٦) م التي أنهت حكم الرومان وملك الغساسنة.

سير خط الحدود لمنطقة حوران:

تسير الحدود الشرقية لمنطقة حوران، من الحدود السياسية السورية الأردنية الحالية، بالقرب من وادي المكسر باتجاه الشمال مارة شرقي مدينة بصرى الشام وشرقي قرية أم ولد، وتستمر شمالاً مارة غربي قرية السجّ، ثم تدخل وعرة صبة اللجاة، عند قرية نجران الواقعة على أطراف الضفة الجنوبية، ويستمر خط الحدود شمالاً في وسط الصبة شرقي داما، واعتباراً من هذه البقعة يسير خط الحدود الرومانية القديمة التي تخترق اللجاة لمسافة قصيرة، ويستمر بعدها شمالاً حتى قرية براق، حيث يلتقي مع حدود منطقة دمشق، ومن براق يتجه خط الحدود الشمالية نحو الشمال الغربي ماراً بأراضي قرية بويضان ودير علي ويتقاطع مع طريق دمشق - عمان للسيارات.

بعدها يسير خط الحدود بشكل منحنٍ مسيراً لوعرة زاكية، من جنوب قرية زاكية حتى جنوب قرية سعسع، ومن أراضي سعسع وحتى جنوب غربي مزرعة بيت جن، حيث ينتهي خط الحدود الفاصل بين محافظة دمشق ومنطقة حوران.

هنا تبدأ الحدود الفاصلة بين منطقة حوران وإقليم الجبال العالية «منطقة جبال الحرمون» وتشكل الحدود الأخيرة خطأً متجهاً نحو الجنوب الغربي ومسائراً لأقدام جبال الحرمون حتى نقطة التقاء الحدود بين إقليم الجبال العالية ومنطقة الجولان في حوران.

فروق الارتفاع فيه قليلة لا تتجاوز بضع عشرات من الأمتار، وفوق هذا السطح السهلي تنهض بعض المرتفعات مؤلفة جبلاً أو تلالاً منفردة هنا وهناك كتل الشعار (١١٣٧) م وهو أعلى نقطة في منطقة حوران، وتل الحارة (١٠٩٤) م، أما

جبل المانع (جبل الصبة) جنوب شرقي الكسوة، فيرتفع إلى (٩٥٠م) وتل الجابية شمال غربي نوى (٧١٨م) وبشكل عام يشكل ارتفاع معظم هذه التلال فوق مستوى السهل ارتفاعاً قليلاً يتراوح بين (٢٠٠ - ٢٠٠م) حيث يتراوح ارتفاع السهل العام وسطياً بين (٦٠٠ - ٧٥٠م) ويميل سطح المنطقة من الشمال إلى الجنوب ونحو الجنوب الغربي، ولا يلاحظ الانحدار نحو الجنوب الغربي والغرب إلا في الأجزاء الجنوبية من المنطقة، بينما في الأجزاء الشمالية يسيطر الانحدار العام من الشمال نحو الجنوب حتى حدود موقعي إزرع والشيخ مسكين تقريباً، فجنوباً من هذين الموقعين، تشاهد الوديان السيلية والأرض مائلة من الشرق باتجاه الغرب والجنوب الغربي ابتداءً من نهايات جبل حوران حتى وادي اليرموك. وتبرز في أقصى الجنوب عند الحدود الأردنية أراضي صغيرة المساحة ذات ميل متجهة نحو الشمال عامة تشكل بمجموعها الجانب الأيسر لوادي الزيدي كأرض الزمل وجنوب شرق درعا.

أما أراضي اللجاة فميوها العامة في منطقة حوران تتجه نحو الغرب والجنوب ابتداءً من خط التلال المرتفعة على طول شمالي غربي - جنوبي شرقي، كتل عريقة (٨٥٧م)، وترتفع اللجاة عن مستوى سطح البحر بمقدار (٦٠٠ - ٧٠٠م).

وهكذا يصبح سهل حوران جزءاً متوسطاً من إقليم الجنوب الغربي لسورية، تحيط به جبال حرمون وهضبة الجولان غرباً وسلسلة جبل حوران شرقاً وأرض اللجاة شمالاً شرقياً، ثم مجموعة التلال البازلتية على أطراف حوضه دمشق شمالاً والحدود السياسية السورية الأردنية الحالية جنوباً.

وهذا تأخذ منطقة حوران شكل ميزاب سهلي متطاوّل من الشمال باتجاه الجنوب وحتى الحدود الأردنية ووادي اليرموك وروافده العليا، محتلة مساحة قدرها (٣٨٠٠-٤٠٠٠ كم ٢) تشمل محافظة درعا ومحافظة السويداء ومحافظة القنيطرة وجزء من محافظة دمشق.

إن تسمية حوران، التي أطلقناها على المنطقة الجغرافية المحددة بالشكل الآنف الذكر كانت تطلق سابقاً على كامل القسم الجنوبي والجنوبي الغربي من سورية الطبيعية، الذي يضم اليوم حسب التقسيمات والسياسية والإدارية الحالية، منطقة الجولان ومحافظة درعا ومحافظة السويداء، ومحافظة عجلون وجرش، وإربد في الأردن، دون منطقة حوضه دمشق .

ولا شك أن لحوران أهمية تاريخية خاصة تعكس لنا الدور الجغرافي الذي يلعبه هذا الجزء من سورية الطبيعية، ولهذا السبب بالذات نجد أن ما كتب عن حوران لا نجد فيه من الجغرافي إلا القليل القليل كمراجع علمية لدراسة المنطقة، ويمكن للباحث أن يستفيد من المؤلفات العديدة التي بحثت في المنطقة من الناحيتين الجيولوجية والمائية.

البنية الجيولوجية في منطقة حوران:

إن هذا المشهد السهلي العام يتفق مع البنية الجيولوجية التي تميز منطقة حوران، فهي مغطاة بكاملها تقريباً بغشاء من الصخور الاندفاعية. ما عدا مساحات صغيرة في الأراضي التي تظهر فيها الصخور الرسوبية وذلك قرب الحدود الأردنية في جنوب غرب المنطقة وشمالها، فالأراضي الرسوبية تتمشى مع التوصفات البحرية والنقطية - الجافة والحفية الرباعية والمحصورة بين كتلة جبل المانع وأطراف اللجاة

الشمالية الغربية. وهذه الرسوبيات ترجع في عمرها إلى الرباعي الحديث والأعلى (G4—G3) وهي لا تحتل مساحات كبيرة وتشكل امتداداً جنوبياً للأراضي المشابهة لها في حوضه دمشق وتندس على شكل ألسنة بين الكتل العالية حولها، ولا تظهر الأراضي الرسوبية فيها مرة أخرى إلا جنوب مدينة درعا وعلى طول المجاري الدنيا للوديان السيلية المنتهية إلى اليرموك كوادي الزيدي ووادي الهرير، ونهر العلان، وفي رقع صغيرة جداً شرق وجنوب شرق درعا.

يرجع أقدمها إلى الباليوجين (الأيوسين الأدنى) وتتألف من الحجر الكلسي الغضاري الشبيه بالمرمر ومن المارن والصوان، وتظهر على طول بطن وادي اليرموك وروافده والمناطق الآنفه الذكر. وفي وادي اليرموك والعلان والهرير تظهر طبقات باليوجينية أحدث، ترجع إلى (الأيوسين الأوسط).

وأخيراً مساحة من الصخور النيوجينية (البليوسين الأدنى) جنوب درعا مباشرة. وتظهر جزيرة صغيرة من رسوبيات الأيوسين الأوسط شمال جبال عجلون. باستثناء ما تقدم، تسود الصخور الاندفاعية المنطقة بكاملها، أقدمها يرجع إلى فترة الميوسين الأوسط وأحدثها، إلى الهولوسين (الرباعي الحديث). ففي الشمال وعلى نطاق الحدود بين منطقة حوران وحوضه دمشق تظهر صبات اندفاعية يرجع عمرها إلى النيوجين، ولا تشكل هذه الصبات مساحات مستمرة، بل تنتشر على بقاع متفرقة صغيرة المساحة تفصلها الأراضي الرباعية التي ملأت موادها المنخفضات البنيوية والحتية التي نشأت على سطح الصبات الاندفاعية التي ترجع إلى الميوسين الأوسط.

أما بقية الأغشية الاندفاعية فيرجع عمرها إلى الرباعي بفتراته المختلفة. فصبات الرباعي الأدنى، والمؤلفة من البازلت والاناميزيت والدوليريت والخبث، تغطي معظم المنطقة على شكل أغشية واسعة الانتشار مصدرها البراكين والشقوق في منطقة جبل حوران وبراكين تل زمار، تليها الأغشية العائدة للرباعي الأدنى الأحدث (G1 B2) والمؤلفة من الدوليريت والمنبتقة من براكين عريقة، أما اندفاعات الرباعي الأوسط (B2 G2) فتظهر على الحافات الغربية لمنطقة حوران في صبة وادي الرقاد ومصدرها براكين تل الحديث (الطفرة الثانية = B2 G4) وفي وعرة زاكية وصبة اللجة تظهر أغشية عمرها أحدث، وترجع إلى الرباعي الحديث (الطفرة الرابعة = B4 G4)، وتتألف صخور هاتين الطفرتين من البازلت القلوي والاناميزيت والخبث البركاني.

وأخيرًا نشاهد صبة متطاولة انسلخت موادها المصهورة من الشرق نحو الغرب، قادمة من براكين تقع في منطقة جبل حوران شمال شهباء ومسيرة لأطراف اللجة الجنوبية، ويغلب عليها البازلت والاناميزيت.

البنية الجيومورفولوجية في منطقة حوران:

بالرجوع إلى المصورات الجيولوجية نشاهد أن منطقة حوران مغطاة بأغشية بازالتية اندفاعية عديدة، لكن الأغشية العائدة للرباعي الأدنى (B1 G1) والعائدة للرباعي الحديث وخاصة الطفرة الرابعة (B4 G4) هي المسيطرة والتي طبعت المنطقة بطابعها المميز. وكما في منطقة الجولان نجد هنا أيضًا ظاهرة ارتصاف البراكين على طول خطوط شقوق ذات محاور شمالية غربية - جنوبية شرقية، كما في منطقة أم ولد وتل السمن، والسلسلة الممتدة من عين عفا حتى تل زمار.

تقع منطقة حوران بنائياً ضمن الجزء الهامشي للعبة العربية الملامسة لغور الأردن، التي يتميز غشاؤها الرسوبي بطبقات ذات ميول لطيفة. ولكن هذه البنية معقدة بعدد من البنيات الثانوية التي شوشت الركيزة والغطاء الرسوبي.

البنية البنائية والتكتونية في منطقة حوران:

في إقليم جنوب غرب سورية تظهر ثلاث وحدات بنائية هامة هي:

١- حفرة الغور وطبريا.

٢- نهوض الأردن.

٣- وهدة جبل حوران.

والناظر إلى المصور البنائي لهذا الإقليم (٢) يلاحظ الاضطراب والتخلع الذي تعرضت له المناطق الانتقالية بين كل وحدة بنائية وأخرى، تلك الاضطرابات التي تتمثل بخطوط الشقوق التكتونية والمخاريط البركانية المرتصفة على طولها. ففي منطقة حوران نشاهد أثر نهوض الأردن واضحا برقة الأغشية الاندفاعية بالقياس إلى مثيلاتها في وهدة جبل حوران شرقاً وحفرة طبريا غرباً، كما نشاهد أن خطوط البراكين تتركز على الحافات الشرقية والغربية، على محاور شمالية غربية جنوبية شرقية، على هامشي محور قوس نهوض الأردن الذي يسير شرق درعا، ويشكل في منطقة حوران نهاية تلك النهوض الشمالية.

المجال الحيوي في بنية منطقة حوران:

قد يتخيل القارئ استناداً إلى ما تقدم أن سطح الأرض في حوران عبارة عن مساحة صخرية حجرية سوداء مهيمنة، لكن الواقع، هو أن دارس المنطقة يضطر في

كثير من المساحات إلى الحفر تحت التربة الزراعية السطحية ليصل إلى الصخور البازلتية، إذ أن أقدم الصبات المسيطرة، وخاصة الرباعية الدنيا، تركت المجال للصخر أن تلعب فيه عوامل التجوية دورها وتقدم تربة موضعية أو منقولة لمسافات قليلة، فالمنظر العام هو تعاقب الأرض المغطاة بالتربة الزراعية المتفسخة عن الصخور البازلتية والاندفاعية الأخرى مع مساحات صخرية يطلق عليها اسم «رُقّة» ترتفع فوق مستوى السهل بضعة أمتار، وتكون في كثير من الأحيان مغطاة بقشرة من الأشنيات أو الكلس، وتقل المساحات الصخرية هذه كلما اتجهنا جنوباً وجنوباً غرباً، وفي الأقسام المنخفضة من منطقة حوران، بينما تزداد باتجاه الشمال والشمال الشرقي، خاصة حيث تلتحم أخيراً بصبة اللجاة، وعندما تكبر مساحة هذه الرقع الصخرية يطلق عليها اسم «وعر». وفي المساحات الانتقالية بين الوعرات «الرقّة» والمساحات المغطاة بالتربة تمتد أشربة ومساحات من أرض مجللة بالتربة الغنية بالأحجار الاندفاعية التي يقوم الإنسان بتنظيفها من الحقول وتجميعها على شكل «رجوم».

المناخ في منطقة حوران:

تقع منطقة حوران في نطاق المناخ المتوسطي شبه الجاف (السوري)، وهو مناخ أمطاره تتراوح (٢٠٠ - ٥٠٠ مم) تهطل بشتاء قصير مدته تتراوح بين ثلاثة حتى أربعة أشهر، أما الحرارة فتزداد الفروق بينها، فمتوسطها في الصيف يحوم حول الـ (٢٧-٢٩). أما متوسطاتها الشتوية فتقل، وتتراوح بين (٥-٧)، والمناخ المتوسطي شبه الجاف مناخ انتقالي بين النموذج المتوسطي الجبلي القاري والنموذج الجاف الجولاني في الغرب، وكتلة جبل حوران في الشرق، وكتلة الحرمان وتفرعات

لبنان الشرقية في الشمال الغربي، بينما هو مفتوح من جهة الجنوب، مما يعطي المنطقة خصائص محلية تظهر في عناصر المناخ المختلفة، وهنا يجب ألا ننسى أن الجهة الغربية التي هي مصدر الرطوبة بالنسبة لسورية، ذات تضاريس أقل إرتفاعاً من الجهتين الشمالية والشرقية نسبياً مما يخفف من وطأة الجفاف وقارية المناخ.

١- الحرارة:

إن موقع حوران بعيداً عن البحر وإنخفاض سطحه بالنسبة للجولان جعل الفروق الحرارية فيه أكبر. بالنظر إلى الجدول التالي:

المركز	معدل حرارة ك°	معدل حرارة تموز
تل شهاب - سحم الجولان	٣,٧	٤٢,٧
الصنمين - انخل	٢,٨	٤٢,٥
إزرع - بصر الحرير	٣,٥	٤٢,٩

نجد أن حرارات حوران المتوسطة السنوية تتراوح بين (١٦ - ١٨) وأرقام محطات الأرصاد الجوية تقع بين هذين الرقمين (الصنمين ١٦، ٨ - إزرع ١٧، ٣ - تل شهاب ١٧، ٥).

أما وسطي شهر كانون الثاني لنفس المراكز وبالتسلسل فهو (٧، ٣ - ٨، ١ - ٨، ٨) درجة، ووسطي شهر تموز (٦، ٢٤ - ٦، ٢٤ - ٧، ٢٤) درجة، أما الحرارات القصوى المطلقة فتبلغ في الصنمين (٥، ٤٢) وفي إزرع (٩، ٤٢) وفي تل شهاب

(٤٢، ٧) وفي درعا (٤٢، ١) درجة أما وسطي الحرارة الدنيا لكانون الثاني فيتراوح بين (٢-٤) درجات، ففي الصنمين (٢، ٨) وإزرع (٣، ٥) وتل شهاب (٣، ٧).

من وسطي الأرقام الآنفه الذكر نلاحظ أثر الموقع الشمالي والجنوبي والقرب والبعد عن خط الاستواء، فحرارة موقع الصنمين أخفض من حرارات تل شهاب الواقعة جنوبي المنطقة، لكنها حرارات أعلى من حرارات منطقة الجولان، مما يظهر أثر القرب والبعد عن البحر، إلى جانب الارتفاع فوق مستوى سطح البحر أيضًا.

واذا نظرنا إلى الفروق الحرارية السنوية لوجدناها تحوم حول (٤٥ / د) وقد تنخفض الحرارة الدنيا للمنطقة إلى (٣/د) وأحياناً إلى (٧ / د). وذلك في شهري كانون الثاني وشباط حيث يحدث الصقيع وهذا الفرق الحراري السنوي يعكس لنا أثر القرب والبعد عن البحر بشكل واضح مما يؤكد إنتهاء المنطقة إلى المناخ السوري.

٢- الرياح:

تسود على الرياح التي تهب على منطقة حوران المحصلة الغربية، الجنوبية - الغربية مع محصلة شرقية أضعف أثرًا. هذا يتفق وما شوهد من اثر موقع حوران بالنسبة للجولان وجبل حوران فمعظم رياح ألسنة تأتيها عن طريق فتحة الجولان. ففي الشتاء، عندما تتعرض المنطقة لوصول السيكلونات، تهب على حوران رياح جنوبية غربية تحمل الرطوبة من البحر، فالرياح الغربية والجنوبية الغربية هي السائدة في هذا الفصل، لكن الرياح الشرقية والشمالية الشرقية لا تكون معدومة تمامًا، بل تهب أحياناً، مما يسبب انخفاض درجات الحرارة مع سماء صافية أو قليلة الغيوم، ولا تنقطع رياح المحصلة الغربية في فصل الصيف، لكنها أقل وألطف من رياح فصل الشتاء. أما في الربيع فتهب الرياح الغربية أيضًا، لكنها لطيفة كما تهب رياح

جنوبية شرقية ساخنة وجافة تضر بالمزروعات، وخاصة إذا هبت في نهاية الربيع، وتعرف هذه الرياح الضارة بـ(السفحة)، وفي الخريف تسود الرياح الغربية التي تنقلب إلى جنوبية شرقية شديدة في أواخر الخريف، وتعرف الرياح الأخيرة التي تحمل معها الغبار، وتعرف (بالشرقي).

٣- الرطوبة الجوية:

بسبب الرياح الغربية وتفرعاتها السائدة في منطقة حوران أصبحت الرطوبة ذات أثر هام في وضعها الاقتصادي الزراعي، وخاصة على الزراعات الصيفية، عندما يتشكل الندى في الربيع والصيف خاصة، والمعروف هنا باسم (الصبيب)، وتدلنا أرقام الرطوبة النسبية لمراكز الصنمين وإزرع وتل شهاب على أنها تتراوح بين ٤٢٪ في الصنمين في تشرين الأول و ٧٩٪ في تل شهاب في شباط ومن الملاحظ، من أرقام مراكز مديرية الأرصاد الجوية لجدول الرطوبة لنفس المراكز ارتفاع رطوبة تل شهاب الجنوبية أكثر من الصنمين الشمالية، لكون تل شهاب أقرب إلى الفتحة التي تأتي منها الرطوبة البحرية.

إن ازدياد الرطوبة في أشهر الشتاء، وارتفاع النسبية منها بانخفاض الحرارة بسبب انعقاد الغيوم وهطول الأمطار.

٤- الأمطار:

أمطار سهل حوران أقل من أمطار الجولان، وهي تتراوح ما بين ٢٥٠ - ٣٠٠ مم، ولكنها كافية للزراعة البعلية، وتلعب فتحة الجولان دورها الهام في كمية التهطل.

تقع حوران بين خطي (٢٥٠-٣٠٠) مم المطريين، وتصل فيها الأمطار في إنخل والصنمين إلى (٢٥٠ مم) و(٣٠٠ مم) في إزرع، و(٣٤٧ مم) في نوى، و(٢٣٦ مم) في تل شهاب، و(٢١١ مم) في درعا، ولا تشذ الأمطار في حوران عن القاعدة العامة للهطول من حيث الفترة والنظام في معظم أقاليم سورية، فهي تهطل في الشتاء وفي شهر كانون الأول وحتى شباط بشكل أغزر من أمطار تشرين الثاني ونيسان، كما تتميز باضطرابها وعدم انتظامها بين عام وآخر، فهي تنخفض كثيراً عن الوسطي العام الذي يحوم حول (٢٨٠) مم لكل المنطقة، فتصل إلى (١٥٠) مم وقد ترتفع عنه فتصل إلى (٤٥٦) مم، وكثيراً ما تكون الأمطار عاصفية وعلى شكل زخات قوية تضر بالزرع والغرس، وأحياناً بالتجمعات البشرية، وقد يكون المطر مفاجئاً رعدياً وغزيراً، وخاصة في تشرين الأول، وهذا شديد الضرر ويسمى في المنطقة (مطر طراح)، بينما (مطر اللقاح)، وهو الهاطل منذ كانون الثاني يعتبر هاماً للمزروعات الشتوية والصيفية، وقد تنخفض كمية الأمطار عدة فصول متتالية مما يسبب أزمات زراعية خطيرة للفلاحين.

أ- المياه السطحية:

تختلف منطقة سهل حوران عن منطقة الجولان بوجود عدد أكبر من الوديان السيلية التي تشكل الشبكة العليا لنهر اليرموك الذي يسير الحدود الجنوبية للمنطقة، وينتهي في وادي الأردن، فحوضه هذا النهر تقع بمعظمها في حوران وأقلها في شرق الأردن.

والمياه السطحية هذه قامت حولها دراسات عديدة لارتباطها بمشاريع استثمار مياه حوض نهر اليرموك ومشروع ري مزيريب ومشاريع السدود السطحية، ويمكننا أن نميز بسهولة كثرة المجاري المائية التي ترفد نهر اليرموك، وتشكل مجاريها شلالات تل شهاب وزيزون.

ونهر اليرموك مع روافده المهمة «وادي الرقاد - العلان - نهر الهرير - وادي الزيدي» يشكل منطقة تصريف حوران وجبل حوران الغربي والقسم الأكبر من جنوب الجولان ويغطي حوض اليرموك مساحة قدرها (٧٥٨٤ كم^٢، منها (٦٩٩٠ كم^٢) في سورية، يسقط على سطحها ما يعادل (٣١٤٦ مليون م^٣) من الأمطار. وتقدر غزارة اليرموك قرب مصبه في نهر الأردن بحوالي (١٥ م^٣/ثا) وسطيًا لكنها تصل إلى (١٠٠ م^٣) في الفيضان، وتنخفض إلى (٣٧ م^٣) في وقت الشح، ولقد قدر ما يقذفه نهر اليرموك من مياه سنوية ب (٢٢٦ مليون م^٣) عند المصب، بينما غزارة كل المياه والينابيع التي تغذي اليرموك تقدر ب (٢٥٤ مليون م^٣) سنوياً. هذا في الأراضي السورية، فإذا أضفنا صيب وادي خالد والشلالة وغيرها الآتية من أراضي شرق الأردن، ارتفع الرقم الأخير إلى (٢٥٩، ٧ مليون م^٣) سنوياً.

وأهم روافد اليرموك التي تخترق منطقة حوران نهر الهرير، الذي يبدأ من الشمال حيث يتغذى بالمياه القادمة من أقدام حرمون الجنوبية، كما يجذب إليه معظم مياه جبل حوران الغربية وذلك عن طريق روافده اليسارية العديدة التي تمثل وادي السماقيات أهمها، والوادي الأخير يلتقي مع وادي العرام في أراضي الشيخ مسكين ويشكلان معاً نهر الهرير، وبعد أن يصب وادي العلان وماء زيزون في نهر اليرموك.

أما وادي الزيدي فتقع حوضته في جنوب المنطقة وتبدأ مياهه بالتجمع قرب جبل حوران وتسيل على سفوحه الغربية على شكل مجاري أقية مائية سيلية تجتمع مع بعضها وتشكل مجرى مائياً مميزاً شرقي بلدة (القرية) من منطقة جبل حوران، ومن ثم يسير في منطقة السهل من الشرق نحو الغرب في أجزائها الجنوبية ويمر في مدينة درعا حتى ينتهي إلى وادي اليرموك، ويتغذى وادي الزيدي بمياه أودية رافدة كوادي الرقيق ووادي الزعتري ومياه نهر مزيريب وينابيع منطقة مزيريب العديدة.

ويوجد في حوران بحيرات طبيعية كبحيرة مزيريب، واصطناعية كبركة بصرى، وإلى جانب ما تقدم من مياه سطحية جارية على شكل أنهار أو سيول وبحيرات طبيعية، وتنتشر في حوران مساحات صغيرة على شكل حفر طبيعية أو اصطناعية تملؤها المياه، وهي عبارة عن منخفضات لجمع مياه الأمطار لتستخدم في سقاية الماشية والحيوانات وأحياناً في بعض القرى للشرب وتسمى (البركة)، ولقد قامت مؤسسة المشاريع الكبرى في مجال قطاع الري بالاستفادة من مياه حوران السطحية، فنفذت مشروع استثمار ينابيع اليرموك وذلك بجمع المياه السطحية التي تغذيها الينابيع العديدة في حوران، وتنظيمها لري مساحات واسعة من الأراضي البعلية في منطقة مزيريب التي عرف المشروع باسمها.

ولما كانت المياه السطحية كبيرة الأهمية في منطقة حوران ذات المناخ السوري فإن الإنسان عمل جهده للاستفادة من كل نقطة ماء للري، وإلى جانب مشروع اليرموك تم تنفيذ عدد من السدود السطحية لحفظ المياه والاستفادة منها للري وسقاية الحيوانات، ولوقاية القرى والمدن من خطر الفيضانات والسيول مثل سد

عثمان وسد درعا الشرقي وسد معرة وسد عدوان وسد تسيل وسد نافعة وسد كودنة وسد الحمدانية وغيرها.

ب - المياه الجوفية في منطقة حوران:

قبل الحديث عن المياه الجوفية في منطقة حوران، لا بد من الحديث عن خصائص المياه الجوفية في إقليم جنوب غرب سورية.

الخصائص العامة للمياه الجوفية في إقليم جنوب غرب سورية:

تعتبر المياه الجوفية في إقليم جنوب غرب سورية الذي يتألف من «الجولان - سهل حوران - جبل حوران - حوضه دمشق» ذات أهمية كبيرة في هذا الإقليم، وتزداد أهميتها كلما اتجهنا شرقاً وشمال شرق، حيث تنخفض كمية الأمطار وتبدأ الزراعة البعلية غير المروية بالاستئثار بأكبر المساحات، وتقل المياه السطحية الجارية، وأهمية المياه الجوفية لا تقتصر على دورها الهام بالنسبة للزراعة والحياة الاقتصادية فقط، بل لكونها العامل الأساسي لقيام عدد كبير من التجمعات البشرية في الإقليم والبعيدة عن المجاري النهرية الدائمة الجريان.

فالنبع المائي أو البئر المحفور هما اللذان يحددان موقع القرية قبل أي عامل آخر ليس في إقليم الجنوب الغربي من سورية فقط، بل في معظم إن لم نقل في كل أقاليم سورية الداخلية، حيث الأنهار الجارية قليلة، لهذا السبب ولازدياد أهمية المياه الجوفية للري بواسطة دخول المضخات إلى البلاد أصبح لزاماً علينا التعرف على الوضع المائي الجوفي للإقليم عامة لنرى الصورة التي ينعكس فيها على اقتصاد المناطق المختلفة ونشاط سكانها.

لقد قامت دراسات عديدة عن المياه الجوفية في هذا الاقليم منذ الخمسينات من القرن العشرين أهمها دراسات (مظلوم) و(الصفدي) و(بوردين) و(تقارير مديرية الري والقوى المائية العديدة..).

وتعتبر هذه الدراسات مناهل غزيرة لدراسة المياه الجوفية في اقليم جنوب غرب سورية وفي هذا المجال يجب أن نميز بين المياه الجوفية في الأراضي البازلتية وبين تلك التي تتشكل في الأراضي الترسيبية البحرية اللحقية، ففي الجنوب وفي مناطق الجولان وحوران وجبل حوران، أثبتت عمليات السبر وحفر الآبار، أن هناك طبقة مائية جوفية^(١)، والحديث عن طبقة واحدة مستمرة من البازالت هو أمر لا يتفق مع الواقع، إذ أن المياه تتجمع على طوابق مختلفة العمق تتفق مع وجود الشقوق والفواصل البنيوية في البازالت، أما القاعدة التي تتجمع فوقها المياه فهي في معظم الحالات عبارة عن قاعدة من التراب الغصاري المتحلل والمتجمع في أسفل صبة، أو غشاء بازالتي، وقد تكون القاعدة مؤلفة من الرماد البركاني أو تكون عبارة عن سطح طبوغرافي سابق، تعرض للحت وتشكلت التربة فوقه قبل تغطيته بالغشاء البازالتي، وإذا أخذنا غزارة الينابيع وثبات هذه الغزارة تبين لنا عدم ثباتها النسبي في الجولان، يشير إلى احتياطي كبير وثابت في الجولان أكثر من سهل حوران وجبلها.

ودون هذه الطبقة المائية القليلة العمق يوجد في الأراضي البازلتية أفق آخر عميق للمياه أكثر غنى باحتياطيها، والوضع في حوران يكاد يشبه ما تقدم من حيث وجود طابقين للمياه، وخاصة بين درعا وإزرع، السفلى منها واسع الانتشار وكبير

(١) قرية من سطح الارض

الاحتياطي المائي، بينما الطابق العلوي أقل غزارة وعمقاً، والأعماق الوسطية للوصول إلى مستوى المياه العميقة تقدر هنا بحوالي (١٥٠ م) أو أكثر، أما المياه الحرة في الأعلى تحت سطح الأرض فتقع على بضعة أمتار عمقا.

وتشير الآبار والأقنية المنشأة عليها لإيصال المياه من الينابيع والآبار إلى القرى والمدن، إلى أهمية المياه الجوفية في منطقة يسود عليها الجفاف مدة لا تقل عن ثمانية أشهر في السنة، ولقد قامت دراسات جيدة ولا زالت مستمرة حول إستغلال هذه المياه الجوفية.

صعوبات الحصول على المياه الجوفية في حوران:

مشاكل عديدة تعترض الباحثين نظراً لطبيعة الصخور البازلتية التي تتشكل فيها المياه الجوفية على شكل عدسات أو جيوب على أعماق مختلفة، أو أنها تخترق الغشاء البازلتية من خلال الشقوق والفواصل العديدة إلى القاعدة الرسوبية التي يتكئ عليها البازالت وتشكل طبقة مائية جوفية عميقة.

وبإلقاء نظرة على توزيع الينابيع المتفجرة في حوران نستطيع القول بأن المياه الجوفية القريبة من سطح الأرض، تغذي المياه النافذة في شقوق البازالت والقادمة من الشرق في جبل حوران نحو الغرب، لكن الكثير من مياه هذا المستوى يشكل وحدة قائمة لذاتها، أي تشكل جيوباً مائياً فوق قاعدة من التربة الغضارية المتحللة من البازالت نفسه دخلت وتوضعت بين غشائين بازالتين وسدت الشقوق بهذه التربة، فاستطاعت خلق عدسة مائية قريبة من سطح الأرض، لكن حفر الآبار لتوفير مياه الشرب لسكان المنطقة، يبيّن أن هناك طبقة مائية أخرى عميقة قريبة من المتكأ

الرسوبي أو فيه، وهذه تظهر يناييعها على جوانب الوديان عند سطوح التماس بين البازالت والقاعدة الرسوبية.

إن المياه الجوفية في حوران والينابيع التي تقدمها، وهي عديدة خاصة في جنوب غرب المنطقة (أي حوالي مزيريب)، وكذلك الآبار العديدة (القديمة والحديثة) المحفورة في المنطقة، كلها لا تكفي حاجة السكان المتزايد من المياه للشرب والري، وبالرغم من الجهود الكبيرة المبذولة التي يقدمها المسؤولون لتأمين مياه الشرب لكثير من قرى حوران بواسطة الصهاريج في فصل الصيف لبعض سنوات الجفاف، لكننا يجب أن نعلم أن هناك مشاريع هامة في هذا المجال قد تم تنفيذها، في وجر مياه نبع الصخر من غرب الحارة ونمر وبسطاس وجاسم وإنخل والقنية وتبنة ونبع عين ذكر، لتأمين الماء لقرى نافعة، الشجرة، القصير، عابدين، معربة، بيت اره، الكريسة، عين ذكر بالإضافة إلى مشروع سحب مياه الشرب لقرى غباغب، موتبين، جباب، (ومحطتها) بصير وخبب إضافة إلى مشاريع أخرى.

جيومورفولوجية منطقة حوران والتربة:

لما كانت الصخور المشكلة لمنطقة حوران مؤلفة في معظمها من صبات إندفاعية بازالتية يرجع عمرها إلى الرباعي الأدنى والطفرة الرابعة من الرباعي الحديث !

ولما كانت منطقة حوران تتميز بمناخ شبه جاف !

ولما كانت الميول الطبوغرافية قليلة على العموم في منطقة حوران !

أمكننا لذلك كله أن نتصور جيومورفولوجية هذه المنطقة لنقول:

يلعب عمر الغشاء البازالتي دورًا هامًا في سيطرة التضاريس الحتية (المناخية) أو الأشكال البنيوية، كما وأن قدم السطح الطبوغرافي أو حدثه يحددان إمكان تشكل أتربة سطحية، مع أخذ ميل السطوح بعين الاعتبار:

فعلى صبات اللجة ووعرة زاكية الحديثة تسيطر المساحات الصخرية الحجرية وتنعدم التربة أولاً من الحفر المغلقة الصغيرة والقليلة العمق التي نشأت بانطلاق الغازات واختلاف تبرد المهل البركاني الأسفل، بين سطح الصبة وأسفلها، وأن التبرد السريع للسطح أدى إلى تصلب القشرة العليا للصبة بينما بقى المهل البركاني في السفلى عائمًا ومتحركًا، مما أدى إلى خلق فراغات أسفل السطح المتصلب الذي انهار فيما بعد مشكلاً الحفر المغلقة والمعروفة بـ (الغدران) في اللجة، و(قيعان) في الصفا. وفي أرض الغدران تتجمع الأتربة التي تحملها مياه الأمطار عليها أو المتحللة من الصخر نفسه، وقد يكون بعض هذه الغدران كبيراً.

إن الحفر المذكورة المنتشرة على صبة اللجة القليلة الارتفاع والمتنوع سطحها والمتشقق أيضاً تُعطي اللجة مشهداً نلاحظ فيه الوعورة الشديدة، وقد وصفها أحمد وصفي زكريا في كتابه (عشائر الشام - جزء ٢ - ص ٥٧) كما يلي:

(هي بحر خضم من الحمم والطفوح النارية تلاطمت أمواجه ردحاً من الزمن ثم فُتّرت وخمدت وتشققت فكونت قلاعاً وتضاريس، بينها أخاديد ولجج عميقة ضيقة ملتوية، وبدت في حالة غاية في الوعورة وصعبة المسالك وجهمة المنظر واسوداده ووحشيته).

إن هذا الوصف الصادق لمنطقة اللجاة يعكس لنا من الناحية المورفولوجية تضريساً بينوياً يرتفع فوق السطح العام بوسطي قدره (٢٠ م) ومحدد بحافة تسمى ب (اللف) ويمتد على مساحة تقدر ب (١٤٠٠ كم^٢) معظمها يقع في منطقة حوران الشمالية، والباقي يدخل في منطقة جبل حوران.

إن صبة اللجاة هذه والأغشية البازلتية والاندفاعية الأخرى في حوران تعكس لنا النموذج الذي ساد على المنطقة أثناء الزمن الرابع. فالمساحات الغشائية والصبات الاندفاعية الواسعة الانتشار والقليلة الارتفاع تعكس لنا النموذج الهوائي من النشاطات البركانية، والنموذج ينعكس في نوع بنية الأغشية اللايية السائدة للرباعي الأدنى والحديث والمغطى لمعظم أراضي حوران، إذ تسود عليها بنية لابات، لكن هذا النوع من البنية مغطى في معظم أجزائه بالتربة المتحللة محلياً أو المنقولة من الأماكن المنخفضة بالأمطار والسيول، لذا يصعب تمييزها بسهولة، وهي ترتفع عن المستوى العام بحوالي (١٠ م) وتسمى ب (رقه) كما مر معنا، أما غشاء الباهي هي (بنية اللابات) فيقدر بحوالي (١٥ - ٢٠ م) وسطيًا، لكنه قد يصل إلى (١٠٠ م) وذلك في المنخفضات والأودية التي كانت تشكل السطح المورفولوجي والطبوغرافي فتضاريس ما قبل الثورة البركانية والتي امتلأت بالمهل البركاني بسماكات أكبر من سماكة المهل على الظهور والمرتفعات، وبظهور هذا الأمر في صبة اللجاة والأغشية التي دُونَهَا وأقدم منها عمرًا واضحًا بشكل جلي.

وبشكل عام فإن سطح تضاريس منطقة حوران في أقسامها الواقعة غرب وجنوب غرب صبة اللجاة وغربي منطقة حوران، يقدم لنا مورفولوجية بسيطة قليلة فروق الارتفاع تسيطر عليها السطوح البنيوية التي تعرضت لعمل التجويه

(التفسخ الكيماوي والتفك الميكانيكي) وقدمت لنا تربة الكروموزول الحمراء والسينامونيكية العميقة والتي تكثر في الأحجار ويقل سمكها كلما اتجهنا نحو الشرق باتجاه منطقة جبل حوران، ولقد قامت هذه الأغشية الترابية بتغطية السطح البنيوي الذي تشكلت فوقه، وترتفع فوق سطح السهل المورفولوجي المموج هذا مرتفعات تلية وجبلية قليلة المساحة ومتفرقة هي المخاريط البركانية المتعددة التي تتركز في مناطق خطوط الشقوق.

تختلف أعمار البراكين وتركيبها وموقعها، لذا كان تأثيرها بعمليات الحث والتعرية مختلفاً، وبالتالي نشاهد أن براكين الرباعي الأدنى قد زالت عنها الأشكال الأولية وأصبحت قممها محدبة أو مقطوعة، والفوهة مسطوحة ومغطاة ببقايا الحث والتجوية، وقد لعبت البنية الصخرية دوراً هاماً في خفض هذه المخاريط البركانية إلى جانب قدمها جيولوجيا، فمعظم المخاريط شمال بلدة نوى مؤلفة من مواد اندفاعية قليلة التماسك كالطف والحصى البركاني والرماد، بينما الكثير من البراكين الأحدث مؤلفة من صخور بازالتية مخلوطة أحيانا بالخبث البركاني.

ومن الجدير بالذكر، أن معظم براكين حوران الغربية والجنوبية متأثرة بالحث أكثر من تلك الواقعة على الحدود بينها وبين جبل حوران، إضافة إلى أن البراكين الواقعة في الغرب أقرب لمصدر الرطوبة من تلك الواقعة في الشرق وبالتالي فإنها تتخرب بسرعة أكبر، وهذا ينطبق على سفوح البركان الواحد حيث سفوحه الغربية الجنوبية الغربية معتدلة ولطيفة الميول، بينما الشرقية أشد انحداراً وأقل تأثراً بالعوامل الحثية.

وإضافة إلى المخاريط البركانية التي تعكس لنا شكلاً بنيوياً يتوغل فيه العمل المناخي (الحتي) أكثر من توغله في سطح سهل حوران، نشاهد أن سطح السهل تشقه خيوط من الوديان الحتية ذات الأكواع العديدة والانتساع الكبير نسبياً والعمق القليل.

– الأولى ذات الاتجاه الشمالي – الجنوبي (الخبث هو أسم لتربه بركانية).

– الثانية ذات الاتجاه الشرقي – الغربي.

أما المجموعة الأولى فهي التي تتمشى بشبكة (نهر الهيرير، أو وادي الهيرير)، والثانية، هي التي تتمشى بشبكة وادي الزيدي.

وفي كل من الوديان الرئيسيين يتميز الوادي العرضاني من حيث مقطعه بقلعة عمقه، فهو لا يتجاوز (٤ - ٥) أمتار مع جوانب قليلة الانحدار إلا في بعض المناطق التي يجري فيها الماء وأودية ضمن الصخور البازلتية المتكتلة، حيث يصبح الوادي شديد انحدار الجوانب.

أما عرض الوادي فهو أكبر من عمقه وقد يصبح عريضاً شبيهاً بالوديان التي تشير إلى نشاط الحت الجانبي وخاصة في مناطق الأكواع الكبيرة.

١. تتميز أرض الوديان بغناها بالكتل الحجرية البازلتية المدورة والقليلة التدوير والتي ترتكز على أحجار أصغر أو على الصخر البازلتي مباشرة.

٢. تقل فيها الرسوبات اللحية الناعمة إلا في الحفر والمنخفضات التي تتخلل المقطع الطولاني في الوديان.

٣. العمل الحتي هو السائد على الترسيب.

٤. المقطع الطولاني قليل الميل وغني بمناطق الإسراع والسقطات القليلة فروق الارتفاع، والتي تحددها البنية البزالتية وصباتها المختلفة الأعمار.

٥. عندما تقترب هذه الوديان من الزاوية الجنوبية الغربية من منطقة حوران وتصبح المسافة إلى وادي اليرموك وإلى غور الأردن صغيرة، تصبح المقاطع الطولانية عميقة وعميقة جداً كما تتميز بضيقها ويظهر تدرجها على شكل خنادق (كاينون).

٦. في المجاري الدنيا لهذه الوديان (الزبيدي - الهرير - العلان وغيرها) يسيطر الحت الرأسي على الجانبين لكبر فرق الارتفاع بين سطح سهل حوران وقاع نهر اليرموك مستوى أساس هذه الوديان، مما يؤدي إلى حز الغشاء البازالتي في بادئ الأمر ثم اختراقه والحز في الطبقات الرسوبية تحته.

٧. تبدأ المقاطع العرضانية بالاتساع بسرعة لكنها تبقى خنادق ضيقة، لأن الصخور الرسوبية القاعدية أقل مقاومة للحت، من البازالت فوقها، ويظهر هذا واضحاً في وادي الهرير، شمال مزيريب وفي وادي العلان غرب سحم الجولان، وفي مجرى وادي الزبيدي قبيل درعا.

٨. يصبح المقطع الطولاني في المجاري الدنيا لهذه الوديان متميزاً بكثرة مناطق الإسراع والسقطات حتى الشلالات، كشلالات تل شهاب المرتفعة (٤٠ م) عن أرض وادي جانبي الزبيدي، وشلالات الطلياح غرب تلة الأشعري، ونظراً لزيادة الحت الرأسي في الصخور الرسوبية، نجد أن أرض الوديان غنية بقدور

الجبابرة، كما أن أرض الوديان يتشكل فيها الانحدارات القليلة، أشرطة من الترب البنية على طولها.

إن الظواهر المورفولوجية الأنفة الذكر تتفق مع تضاريس شابة في عمرها، ومستوى أساسها عميق، مما يدعو إلى حز الغطاء البازالتي وتقطيعه بالحت التراجعي، الذي يشاهد واضحاً عند الحدود بين المقطع الطولاني القليل الميل على سطح السهل، والمقطع الطولاني الشديد، عند حافات العينات البازلتية، وعلى الدارس ألا يصاب بحيرة عند رؤيته أنواعاً وميولاً ضعيفة للوديان على سطح سهل حوران، إذ أن هذه المظاهر تفرضها البنية المنبسطة القليلة الانحدار للصبات البازلتية في السهل، فالبنية الصخرية، وضعف غزارة المياه للبحث عن طريق لها للوصول إلى مستوى أساسها فتترنح وتتعرج على أرض السهل.

وهناك أخيراً ملاحظة هامة في تدرج المقطع العرضاني في نهاية الوديان ، وفي وادي اليرموك نفسه بشكل واضح (ولا يرتبط ببنية الصخر) مما يؤكد تحدد الحت الرأسي لانخفاض مستوى الأساس في الرباعي، وانخفاض مستوى الأساس ناتج عن تغير المناخ والحركات في حوران والجولان وجبل حوران، ففي الفترة بعد الرباعي الأعلى، يميل المناخ إلى الجفاف التدريجي، مما أدى إلى انخفاض صيب الأنهار وزاد في كمية ما يتبخر من المياه في البحر الميت، مما سبب انخفاض مستوى مياهه، وبالتالي مستوى أساس الوديان المنتهية إليه مباشرة أو بشكل غير مباشر، أما الحركات البنائية، فقد أثبتت الدراسات أن المنطقة تعرضت لحوادث تكتونية أدت إلى خفض مستوى غور الأردن عامة، وهذا في الوسط والجنوب من منطقة حوران، أما في الشمال حيث تظهر كتل تأخذ طابع الجبال مؤلفة من صخور اندفاعية ترجع

إلى الميوسين الأوسط فإن قدم هذه الصبات سبب توغل الحت فيها فتجزأت الأغشية البازلتية وخلفت بقاياها الجبلية - التلية على مشارف حوضه دمشق الجنوبية، كما أن عمل الترسيب شمال منطقة حوران وتشاهد جنوب حوضه دمشق ليست مخاريط بركانية بل هي بقايا صبات بازالتية قديمة تقع مصادرها في منطقتي السهل والجبل في حوران.

وتعتبر حوران من المناطق القديمة التي أعمارها الإنسان القديم وأعمارها الشعوب القادمة من الجنوب على شكل موجات دفعت الحديثة القديمة منها نحو الشمال والمناطق المجاورة، وفي كل العهود التي مرّت على المنطقة كانت السيطرة تعود دوماً للسكان الأصليين الذين ينتمي اليهم سكان حوران الحاليين العرب، فسكان حوران هم من العرب باستثناء عدد قليل من الأقليات من التركمان والشركس، وأقليات من العرق الأسود يعيشون في جنوب غرب حوران، ويتمركزون خاصة في قرية جلين، ومن أهم أنواعهم:

التكروري - الزنجي - الساحلي - النوبي - وما عدا سكان قرية براق على نهاية صبة اللجاة الشمالية وعلى خط الحدود بين حوضه دمشق ومنطقة حوران، حيث أن سكانها من التركمان، وهم من أتراك قرى الأناضول المختلفة جاءوا إلى حوران في العهد العثماني.

كان عدد سكان حوران السهل والجبل يقدر عام (١٩٤٦) م ب / ١٨٠،٠٠٠ / نسمة وتزايد إلى حوال / ١٩٥،٠٠٠ / نسمة عام (١٩٥٠) م ثم ارتفع هذا العدد ليصبح أكثر من مليون ونصف المليون لمحافظتي درعا والسويداء بسبب

الرعاية الصحية والوعي الصحي الكبير الذي طرأ على المنطقة بعد الستينات من القرن الماضي.

وتشكل محافظة درعا والسويداء المرتبة العاشرة بين المحافظات السورية من حيث عدد السكان والمساحة وتضم حوالي (٢١٪) من سكان سورية وتبلغ الكثافة فيها / ٥٨ ن / كم ٢ / وتشكل هذه الكثافة نسبة عالية بالنسبة لسورية، مما يعكس لنا أهمية منطقة حوران من الناحية الاقتصادية وخاصة الزراعية، وتعتبر محافظة درعا والسويداء من الأقسام الإدارية القليلة التي تكاد تنطبق حدودها الإدارية مع الحدود الجغرافية، إلا أننا يجب أن ننبه إلى أننا لم نذكر عدد سكان محافظة القنيطرة والتي هي جزء لا يتجزأ من منطقة حوران وقد فاق عدد سكان المحافظات الثلاث المليون نسمة في السنوات الأخيرة من القرن العشرين.

.....مياه الشرب في حوران:

يمكن تقسيم المياه حسب المصدرين: المياه الجوفية المستخرجة بواسطة الآبار أو الفجارات، والمياه السطحية التي تتمثل بصور برك أو الينابيع الغزيرة التي تظهر في المنطقة الغربية من حوران نتيجة اصطدام طبقة البازلت المتشققة بالطبقة الكتيمة التي تليها وهي طبقة المارن أو المارل الحوارية (وهي صخور طرية).

وتختلف سماكة الطبقة السطحية التي يلزم حفرها لإنشاء آبار في المنطقة، فهي في الشرق عميقة تبلغ حوالي / ٢٥٠ م /، بينما ترتفع بشكل تدريجي / درعا ٥٠ م / لتظهر على شكل ينابيع في الغرب.

ويمكن تقدير كمية المياه وغزارتها بمقارنتها بالينابيع الغربية كينابيع المزيريب وزيزون، وهي فوارة غزيرة كل أيام السنة، وتزود اليرموك الذي تبلغ غزارته في وادي خالد (٥, ٧ م / ٣ / ٩, ١ م / ٣ / ٣)، وتل شهاب (٢٠٠ / ٣ / ٣).

مياه الشرب في حوران عبر التاريخ (حتى العصر الحديث):

أقدم مشاريع الري المعروفة في منطقة حوران، آثار أقنية تجر المياه للري إلى المدن الكبرى، ولعل أقدمها في المنطقة هي آثار قناة فرعون وهي تجر مياه سهل الثريا الواقع بين مدينة إنخل وقرية الفقيع وهي منطقة يوجد فيها حوالي ثلاثين نبعًا، أهمها نبع أم الدنانير وغزارته ٣٠ م / ٣ / ٣.

تجر المياه قناة فخارية لا تزال أقسامها موجودة، وتنقل مياه الري إلى الشيخ مسكين ثم قرية شقرا فغرب خربة غزالة، وتنتهي في مدينة درعا عند مكان يعرف بحمام الملكة، تحت تل الدرك.

وقطر القناة / ٢٥ / سم، ويتفرع منها فرع يتجه نحو شرق الأردن إلى قرية أم قيس.

وقد استفيد من تخطيط مجرى القناة لجر مياهها لري أراضي الشيخ مسكين، ذلك المشروع الرائد الذي سعى به وأنشأه الشيخ محمد خير بن إسماعيل الحريري، شيخ مشايخ حوران، ولم نعثر على أي سبب لتسميتها بقناة فرعون، وتاريخها يعود إلى عهد الغساسنة، أي حوالي القرن الثالث الميلادي، ويقال أن هناك تخطيط قناة في بصرى من نبع بصرى تجر مياهه إلى بحيرة بصرى.

أما في القرى فقد كانت العادة أن يشرب السكان من الينابيع القريبة، ويقوم البعض بالشرب من البرك التي تتجمع فيها مياه الأمطار، والتي تظل المياه فيها طوال فصل الصيف، وهي عرضة للتلوث، خصوصاً أن الحيوانات تشرب منها، ولا تزال ذكرى وافدة الكوليرا التي أصابت سورية عام (١٩٤٨) م ماثلة في الأذهان، نتيجة تلوث نبع الكتبية القريبة من محجة وانتشار الكوليرا.

وكان السكان إذا أرادوا أن يجعلوها رائقة، عمدوا إلى خض المياه لترقد الأوساخ في القعر، وكان السكان وخصوصاً العائلات الكبيرة تعتمد لتأمين حاجتها من مياه الشرب إلى حفر بئر قرب البركة وتسوية قاعدته وجدرانه لتتجمع فيه مياه الأمطار والرشح، ويغلقون فتحته بحجر كبير، وربما صبوا من حوله الإسمنت ليبقى نظيفاً، وفي الصيف يرفعون منه المياه بواسطة الدلاء، ويقومون بتنظيفه كل سنة، وكان لكل عائلة أو حمولة بئر تشرب منه، أما المناطق الغربية فكانت أكثر حظاً، إذ كانت تشرب من الينابيع التي تظهر هناك.

نسبة الزيادة في حوران:

نسبة الزيادة السنوية: إذا راجعنا جدول تقدير السكان بين (١٩٣٦ - ١٩٥١ م) نجد أن نسبة الزيادة السنوية لكل ألف من السكان كانت كمل يلي:

السنة	نسبة الزيادة %	السنة	نسبة الزيادة %
١٩٣٦	٥٠	١٩٤٤	١٤,٣
١٩٣٧	١٢,٩	١٩٤٥	١٦,٥

السنة	نسبة الزيادة %	السنة	نسبة الزيادة %
١٩٣٨	٥٠,٣	١٩٤٦	١٩
١٩٣٩	٢٣,٣	١٩٤٧	١٢,٣
١٩٤٠	٤٠	١٩٤٨	١٦,٢
١٩٤١	١٤,١	١٩٤٩	٢٧,٥
١٩٤٢	٣٥,٥	١٩٥٠	٢٣,٥
١٩٤٣	٢٤	١٩٥١	٢٢,٩

١. نستنتج من الجدول المذكور آنفاً أن نسبة وسطي الزيادة للسكان ٢٣,٤ بالألف ويجب أن نعيد للأذهان، أن الأرقام المرتفعة في نسبة الزيادة كما في عام (١٩٣٧)م، تعود للعفو عن المكتومين

٢. بمقارنة نسبة وسطي الزيادة للأعوام الآنفه الذكر، وهي / ٢٣,٤ / بالألف، مقابل / ٢٩,٥ / بالألف خلال الفترة الواقعة بين (١٩٦٠ - ١٩٧٠) م وهذا يعود لانخفاض نسبة الوفيات غالباً وليس لزيادة في نسبة الولادات.

٣. نسبة الزيادة الديموغرافية المرتفعة، ناتجة عن نسبة ولادات كبيرة، في حين أن نسبة الوفيات راحت تنخفض بصورة محسوسة جداً بسبب إحداث مراكز صحية وبسبب الوعي الصحي لدى المواطنين

٤. لقد كانت تحديد نسبة زيادة السكان غير واضحة، وكانت مثاراً للتساؤل، ولم تكن هناك من نسبة ثابتة أو صحيحة يمكن الركون إليها، ففي حين تعتمد بعض الدراسات معدل (٢٢) بالألف لهذه الزيادة، فإن البعض الآخر

اعتمد (٢٣) بالألف أو (٢٩) بالألف أو (٣٠) بالألف، ويعود سبب التباين باختلاف الفترات التي جرت فيها هذه الدراسات إلى تسجيل المكتومين في سنوات العفو، وإلى التنقل، وإلى عملية التحسين في التسجيل المدني.

٥. تبين من دراسة أجراها المكتب المركزي للإحصاء عام (١٩٦٨) م أن معدل النمو السكاني هو في حدود ٢٩٪ سنوياً، وأن هذا المعدل يمكن اعتماده حتى شهر أيلول عام (١٩٧٠) م حيث تمت عملية تعداد جديدة للسكان تصلح لاعتمادها كأساس علمي في التخطيط والتنمية.

عوامل ارتفاع نسبة التوالد:

من المتفق عليه أن معدلات التوالد في منطقة حوران، هي نفسها في كافة أنحاء سورية، وإن معدلات التوالد في منطقة حوران تتحدد فعلاً بمدى التطور الاقتصادي والاجتماعي، كما في أي منطقة في العالم، ويبدو لنا من المفيد معرفة العوامل التي تشجع على كثرة النسل:

١- عوامل دينية:

فهو القرآن الكريم يقول تعالى ﴿ وَلَا تَقُولُوا أُولَدُكُمْ حَشِيَّةٌ ۖ اِمْلَقِ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَوْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٣١]، ولما كانت أغلبية سكان حوران من المسلمين، فإن الاعتقاد السائد هو أن رزق العيال موكول إلى الخالق سبحانه وتعالى.

ونظرًا لأن أكثرية المسيحيين في منطقة حوران من غير البروتستانت ولا سيما الكاثوليك والأرثوذكس فإن إنجاب الأطفال أمر مرغوب فيه كما هو الحال تقريبًا لدى المسلمين.

٢ - اعتبارات عشائرية:

إن العقلية القبلية التي يعبر عنها المثل القائل (أنا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب).

تجعل من كثر الأبناء الذكور مجال تفاخر وقوة بالنسبة للعائلات أو القبائل المتنافسة، ولا سيما في الريف أو في الأحياء شبه الريفية في ضواحي المدن، فكلما كان عدد الرجال أكبر كلما كانت مرهوبة الجانب لكثرة مقاتليها إذا نشب نزاع مع الحمولة المنافسة. كما أن الكثرة تجعل دية القتل خفيفة جدًا بالنسبة لحمولة كثيرة العدد على خلاف الحمولة الأخرى المعادية القليلة العدد.

أضف إلى ذلك أن الولد هو عون في الكرب بالنسبة لوالديه ضمن مجتمع لم يحقق بعد أي شكل من أشكال الضمان الاجتماعي المعهود في الدول الحديثة فالولد ضمانة يحفظ كرامة والده إذا تقدم به العمر فيدفع عنه - إذا كان بارًا - عائلة الفقير والإهمال، بيد أن انفجار الخلية العائلية في المدن قد خفف من التضامن العائلي إلى حد ما، كما أن المساكن الأوربية الطراز لا تسمح كثيرًا بوجود الأبوين ضمن إطار أسرة الإبن المتزوج كما أن استتباب الأمن في الريف وسطوة الدولة جعلًا من النزاع بين القبائل المتعادية والإقتتال ظاهرة تقل بصورة متسارعة.

٣- اعتبارات اقتصادية:

يبدو أن الدولة بمنحها التعويض العائلي عن كل ولد فضلاً عن الزوجة التي لا تعمل، تشجع بصورة غير مباشرة على التناسل، ولا سيما بين الموظفين، وحتى بين العمال الذين راحوا يستفيدون من نفس العلاوة، كما أوجدت الحكومة وسام الأسرة الذي يمنح بعض الميزات لذوي الأولاد الكثيرين الذين يزدون عن العشرة كما أن الفلاح يرى في الولد عاملاً مجانياً يحل مكانه بعد هرمه المبكر الناجم عن الإرهاق الذي يتعرض له خلال عمله في الحقول حيث كان لا يعتمد كثيراً على الآلة، وفي حالة العقم عند الزوجة يستدعي في أكثر الحالات الطلاق أو التزوج بامرأة ثانية وثالثة ورابعة، وينطبق هذا على سكان الأرياف والمدن باستثناء المسيحيين الكاثوليك حيث تكون إجراءات الطلاق على غاية من التعقيد والصعوبة أللهم إلا إذا اعتنق الزوج ديانة أخرى، مما يتيح له الطلاق أو التعدد.

٤- الخوف من الطلاق:

أي أن المرأة لا تحب كثرة الأولاد بقدر ما تعتبرهم عوناً وسنداً في وجه تعسف الزوج ونزواته، ولا سيما الطلاق، وإذا كان الخصب الفيزيولوجي لدى البشر يعادل ٦٠ ولادة بالألف، فإن نسبة التوالد ترتفع إذن إلى نسبة تزيد عن ثلاثة أرباع هذا الرقم، ولا يحول دون الوصول لذلك الرقم سوى العزوبة والتمل وبعض الموانع، ونسبة توالد مرتفعة كهذه نجدها في فورموزا في كوستاريكا وفي شعب نيوزيلندا (شعب الماوري) حيث ارتفعت نسبة الولادات إلى / ٥٦ / بالألف عام (١٩٦١) م وفي مصر زاد على ذلك.

والجدير بالذكر أن دزموند سيتوارت ذكر فقرة في كتابه كتاب العالم العربي (ص ٧٧) يقول فيها: كتب هنري عيروط حوالي عام (١٩٣٠) م يصف نظرة أبناء الريف العربي للنسل بقوله: قل أن ينظر الرجال لغير الحب الجسدي، فهم يجعلون منه لذائذهم مع زوجاتهم ويظلون أوفياء لهم احترامًا لقانون القرية، أكثر من تمسكهم بالفضيلة (هكذا)، فالزنى يؤدي فورًا إلى سفك الدماء، ولأن نار الشهوة لا تدوم طويلًا، ففي سن الثلاثين إلى الأربعين تفقد زوجة الفلاح فتنتها، ولكن الأولاد الذين منحتهم لزوجها يجعلونه مرتبطًا بها، ويؤلف هؤلاء بالنسبة للزوجة احترامًا ونفوذًا اجتماعيًا، لأن العقم هو عار عند البعض منهم، والسبب الرئيسي لتعدد الزوجات والطلاق، وبالنسبة للأب فإن الأولاد أعوان وخلفاء يسمحون له بالاستراحة وبإعطاء الأوامر، ولا شك أن هذا كان صحيحًا في تلك الحقبة التي سادها الجهل بالعلم والدين، وقد اختلف الأمر تمامًا بعد الصحوة الدينية والثقافية.

تفضيل الذكور على الإناث:

لا تزال بعض الرواسب من العقلية القديمة، منتشرة مع الأسف بين أكثرية السكان كترجيح الذكور على الإناث، فالوالد الذي يرزق بالبنات في أوائل سني زواجه، يظل راغبًا في الذكر الذي يعتبره مصدر اعتزاز وفخر ورجولة، وهكذا تستمر الولادات في بيته إلى أن يطل الذكر بطلعته ولو بعد ثلاث أو أربع أو ست - من البنات - هناك مثل شعبي يصف المكتئين بأنهم: مثل الذين ولدت عندهم بنت، ومثل آخر يقول: البنت إن لم تجلب العار جلبت العدو لباب الدار (أي الصهر) أي كأنهم لا يرغبون في طول حياة البنت، ولكن غالبًا ما تنتزع هذه حنانهم وعطفهم

كلما تقدم بهم العمر، وعلى هذا النحو يكثر الأولاد بالأسرة حتى ولو كان الأبوان غير راغبين بالعدد الذي أصبح لديهما.

كما يفضل الآباء أحياناً في تعادل عدد الذكور مع عدد الإناث في الأسرة الواحدة، ولكن هذه النظرة المتطرفة قد تبدلت نوعاً ما في الآونة الأخيرة.

التركيب الديمغرافي للسكان في منطقة حوران:

يتجمع معظم سكان حوران في الجزء الشمالي الغربي والجزء الجنوبي حيث المياه والأراضي الصالحة للزراعة، ومنطقة حوران تشكل جزءاً من الإقليم الجنوبي والجنوبي الغربي لسورية، لذا فما ينطبق على كافة الأقاليم السورية من عوامل ديمغرافية يمكن أن يمثلته تقريباً إقليم حوران.

حركة السكان في حوران

الظواهر المؤثرة في حركة السكان في حوران:

مما يلفت النظر في منطقة حوران حركة سكانها التي تؤثر على زيادة وتناقص عددهم فعلياً وعلى فترات زمنية طويلة.

فإلى جانب الزيادة الطبيعية للسكان عن طريق الولادات العالية والوفيات الآخذة بالتناقص والانخفاض، نجد أن حركة سكانية هامة تتمثل بالهجرة الدائمة والمؤقتة من المنطقة، ويتزايد عدد سكان حوران طبيعياً بشكل سريع وفوق المتوسط العالمي العام كما نرى من الأرقام الآتية:

العام	١٩٦٠	١٩٦١	١٩٦٢	١٩٦٣	١٩٦٤
مواليد	٥٨٢٥	٥٠١٢	٣٨٢٥	٥٠٨١	٥٣٢٢
وفيات	١٤٢٦	٩٧٧	١٨٦٣	١٠٥٣	٨٤٦
الزيادة	٣٣٩٦	٤٠٣٥	٣٦٦٢	٤٠٢٨	٤٤٧٦

وتختلف الزيادة بين سنة وأخرى أو بين مجموعة من السنوات وأخرى، إذ أن الزيادة الكبيرة تظهر بعد أعوام من سنين الخير والأمطار الغزيرة، حيث يكثر زواج الشبان في مثل هذه السنوات لتحسن أحوالهم المادية، أما في سني الجفاف فنشاهد انخفاضاً في نسبة الولادات.

أضف إلى ذلك أن إمكانيات السكان في معالجة المرض وتأمين العلاج لهم تكون في سني الخير أكبر منها في سني الجفاف، مما يؤثر على نسبة الوفيات أيضاً.

فإذا أضفنا إلى الأوضاع الطبيعية المؤثرة في اقتصاد المنطقة، وبالتالي في حركة سكانها أيضاً، وكذلك أثر الشروط والظروف الاجتماعية بين السكان والنابعة من تعاليم الدين الإسلامي المحبذة للزواج، وكذلك الزواج المبكر، وخاصة عند عامة السكان، ما عدا بعض المثقفين، ثم جهل الفلاح بطرق تحديد النسل (والتي لا يقرها أصلاً)، وتعدد الزوجات ورغبة الفلاح بانجاب الأولاد ليكونوا له عوناً في أعماله الزراعية وغيرها، فإذا أضفنا هذه الأمور الإيجابية في زيادة السكان أمكننا فهم الزيادة الطبيعية في حوران، لكننا يجب ألا ننسى أن هناك مجموعة من العوامل السلبية في هذا المجال أهمها الوفيات التي كانت تزداد بين الفقراء لسوء التغذية وإنخفاض مستوى المعيشة عندهم، وقلة الوعي الصحي الكافي وأضيف أن أثر عامل الوفيات، بدء يضعف في السنوات الأخيرة بسبب الاهتمام الصحي والمعاشي المتزايد في القرى والداكر، وارتفاع المستوى الثقافي لدى الجيل الحالي من سكان المنطقة، وعدا عن عامل الوفيات نجد أن عامل غلاء المهور يقف عائقاً أمام زواج الكثيرين، وقد تراجع حالياً، كما أن ارتفاع المستوى الثقافي للجيل الحالي، قلل من زيادة السكان، إذ نادراً ما يتزوج أحدهم مبكراً، بل ينتظر عدة سنوات ليؤمن حياة ومستوى يتفقان ومستواه الثقافي، ليس هذا فقط، بل نجد أن المثقف لا يكثر من إنجاب الأطفال بل يقتصر على اثنين أو ثلاثة مقابل (٥ - ١٠) لدى الفئات الأخرى من السكان.

أما الظاهرة الهامة التي تؤثر في حركة السكان في منطقة حوران فهي الهجرة ، والهجرة هنا ذات مفعول سلبي على الأغلب يؤدي إلى انخفاض عدد السكان في المنطقة وهي ذات جذور إقتصادية في الدرجة الأولى، واجتماعية سياسية في الدرجة الثانية.

لمحة عامة عن الهجرة في سورية

الهجرة البشرية: «تعريفها - أسبابها - أنواعها - نتائجها»:

قبل الحديث عن الهجرة البشرية لا بد أن نذكر أن بيئة حوران تعاني من هجرة خارجية لأبنائها إلى أقطار شبه الجزيرة العربية، وقد تقلصت الهجرة الداخلية إلى دمشق بعد تأمين الدولة لفرص العمل والخدمات للمدينة والريف وإيصال مياه الشرب وقد نفذت لذلك عدة مشاريع منها جر مياه مزيريب ومشروع الثورة لمياه الشرب في الأشعري، ومشروع جر مياه اليرموك الأعلى إلى السويداء.

١ - تعريف الهجرة:

يعرف الأستاذ بياجورج الهجرة بأنها الهروب من بؤس مؤكد إلى غنى غير مؤكد، وإذا قبلنا بهذا التعريف، وإذا كانت البلاد تخسر قسمًا من سكانها لفائدة الأقطار المستقبلية، فمعنى هذا أن هناك أوضاعًا معيشية تضطر هؤلاء للهجرة من أوطانهم، وما علينا إلا استعراض هذه العوامل كي ندرك أبعاد هذه الهجرة ومدى أضرارها على توطين البلد، أو منافعها، وإذا كان هناك من نفع يستحق الذكر، ولكن يبدو أن علينا أن نتعرف أولاً على الهجرة الداخلية والهجرة الريفية، وهي أول مرحلة من مراحل الإقتلاع البشري.

الهجرة الريفية:

لأسباب تاريخية، ولا اعتبارات طائفية وإجتماعية معقدة، كانت مناطق معينة في سورية تغص بسكانها بالنسبة لمناطق مجاورة، فكانت هذه المناطق تقذف بفائض محتواها البشري نحو المناطق أو المدن المجاورة لعجزها عن إستيعابهم.

أهم أسباب الهجرة:

أولاً - بنية الملكية الزراعية:

لقد كانت معظم أراضي السهول الزراعية السورية، ولا زال معظمها، حتى الآن خاضعاً لنظام المشاع الثابت أو المتبدل، ومعنى هذا أن كل مالك في القرية يملك عدة حصص موزعة على مختلف مقاسم القرية، ومع ازدياد عدد الوارثين كانت هذه الحصص تنقسم حسب عرضها، مما حول الأملاك الفردية إلى شرائط طويلة وضيقة بحيث أصبح العمل فيها نوعاً من العذاب والمشقة، فكثيراً ما نجد أحد الفلاحين يملك أربع قطع عرض كل منها بضعة أمتار، ولكن يصل طولها إلى كيلو مترين أحياناً. وهذا الوضع الشاذ كان يضطر الفلاحين جميعاً إلى حراثة الأرض في وقت واحد وبذرهما بمحصول وحيد، وحصادها في نفس الوقت، أي أن النظام المشاع يقاوم كل مبادرة فردية في سبيل تحسين الأرض، ولا سيما المشاع المتبدل، الذي كان يجري فيه توزيع الأراضي بين الفلاحين مرة كل سنتين أو ثلاث، والفلاح في هذا الوضع لا يستطيع السكن فوق أرضه والإستقلال إجتماعياً عن بقية أهل القرية فقد كان لا يجد أي جدوى من وراء تسميد الأرض وتنظيفها من الحجارة المبعثرة فيها أو حفر بئر لممارسة الزراعة المروية التي تدر أرباحاً أكبر بكثير.

ومعنى هذا أن طاقة الأرض الإنتاجية تظل محدودة وثابتة ولا يمكن إدخال أي تحسين عليها ومتى ازداد عدد السكان لدرجة لم تعد معها موارد الأرض تكفيهم، إذ كان على قسم منهم أن يهاجروا نحو المدينة لتأجير أيديهم وقوتهم، أو نحو مناطق زراعية جديدة أقل ازدحاماً بالسكان.

ثانياً- دخول الآلة الزراعية:

لقد كان دخول الآلة الزراعية، ولا سيما الجرار والحصادة، عبارة عن ثورة قلبت أوضاع الريف من الناحية السكانية والاجتماعية في مناطق زراعة القمح والشعير، وحيث تكون التربة عميقة ولكن دون أن تحقق أية معجزة اقتصادية، أي أن استعمال الآلة كان تقدماً تكنولوجيا ملحوظاً كانت نتيجته مشكلة اجتماعية ذلك أن المحراث الحديث أخرج إلى سطح الأرض تربة معدنية عميقة، تربة لم تر الشمس والحياة البكتيرية والبيكتريولوجية سابقاً فكانت بالتالي فقيرة، وسرعان ما تفقد قدرتها الإنباتية اذا لم تضاف إليها الأسمدة اللازمة على أساس مدروس، ومن المعلوم أن عدد أيام العمل لدى فلاحنا لا تتجاوز ١٥٠ يوماً بالعام، أي أنه يعاني من نقص في الاستخدام أو شبه بطاله، فلما وجدت الآلة وحلت محله، أصبحت بطالته شبه كاملة، لا سيما في حالة استخدام الحصادة.

ثالثاً- إغراء المدينة:

إن الفارق الحضاري الشاسع بين المدينة والريف، كوجود الكهرباء والمياه الجارية، وتوفير الرعاية الصحية، والمدارس التي تفتح مجال الرزق الجديدة، فضلاً عن السمو الاجتماعي، وتوفير مجالات التسلية ودور اللهو كالسينما وسواها، ولا سيما بعد احتكاك الريفيين بصورة متزايدة بالمدينة بسبب الخدمة العسكرية

الإجبارية والمركزية في الإدارة، وهكذا نجد أن الميسورين من أبناء الريف الذين استطاعوا تكوين رأسمال صغير يقصدون العمل في التجارة الصغيرة التي لا تتطلب مهارة كبيرة، كما أن الفقراء الذين تضاءلت ملكياتهم الزراعية على إثر التفتت الإرثي، أو الذين لا يملكون أرضاً يهبطون إلى المدينة كي يؤجروا أنفسهم بأي ثمن كعمال غير خاصين في صناعة البناء ورصف الطرق، أو يتحولون إلى باعة متجولين في ساحات المدن والشوارع العامة.

هكذا كما تنتقل بعض الأسر الريفية للمدينة لرعاية أبنائهم أو بناتهم الذين يدرسون في الجامعة ومن ثم يستقرون في المدن بعد أن يحصل أبنائهم على مركز ما في دوائر الدولة، لأن ابن الفلاح المثقف لن يعود لقريته حتى لو كان مهندساً زراعياً. وهناك ناحية هامة تشجع كثيراً من الريفيين لهجرة أراضيهم بسبب تقلبات المناخ التي قد تأتي على قطعان الماشية لفقدان المراعي أو تؤدي لضياع محصول مزارعهم كلية، ويندر أن يعود ابن الريف لقريته بعد أن يستقر في المدينة ولو لفترة قصيرة، هذا كما توفر المدينة جواً من الحرية لا تعرفها القرية التي تنوء برواسب أغلال العلاقات القبلية وتحكم رؤساء العشيرة في اتباعهم على الصعيد المادي والاجتماعي.

الهجرة الخارجية:

الهجرة من سورية ظاهرة قديمة نسبياً تعود لأواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين فقد كانت أواخر الفترة العثمانية، حقبة عسيرة من الناحية الاقتصادية بسبب ركود الصناعة التي انحطت بفعل مزاحمة السلع الأوروبية التي كانت تغزو أسواق البلاد، والتي كانت متمتعة بنظام الامتيازات التي منحتها الدولة

العثمانية للدول الأوروبية تبعاً، فتعرض عمال الصناعة الحرفية للبطالة، لأن أرباب العمل السابقين تحولوا إلى تجار ووسطاء لتوزيع السلع المستوردة الرخيصة الثمن.

أما الزراعة فكان حالها أكثر رداءة بدليل تعاقب المجاعات بين فترة وأخرى لرداءة المواصلات والظلم الذي كان يعانيه الفلاح من نظام الجباية واستفحال الفساد والرشوة التي كانت هي القاعدة في الجهاز الحكومي، ولأساليب الابتزاز التي كان يمارسها البعض على الفلاحين، فالخوة كانت ضريبة ثانية يدفعها الفلاحين لأولئك الذين لا يخشون عقاباً ولا ردعاً، بسبب ضعف هيبة الدولة ولانقطاع مواردهم من حماية القوافل وتجارها بعد فتح قناة السويس وظهور السكك الحديدية، وهكذا تناقص عدد القرى في بعض المحافظات إلى النصف بين الفتح العثماني والحرب العالمية الأولى، بسبب هذه الأوضاع، أضف إلى ذلك أن حروب الدولة العثمانية المستمرة كانت تستنزف شباب الريف، شأن أبناء المدن مما كان يقلل عدد الأيدي العاملة المنتجة لحد كبير.

ولكن الهجرة لم تكن تمس سوى المناطق المزدحمة السكان مثل قرى القلمون التي تروى بمياه محدودة الكمية والجبال الساحلية ذات الأراضي الفقيرة والغاصة بسكانها وأبناء المدن من غير المسلمين، وكان تيار هذه الهجرة يتجه نحو الأمريكيتين ومصر، وبالدرجة الثانية إلى أقطار أوروبا.

وأما الهجرة إلى القاهرة والإسكندرية فقد كانت حديث عهد إذ قصد بعضهم هرباً من ظلم الولاة العثمانيين الماسونيين من جهة، أو بقصد تعاطي التجارة والصناعة من ناحية أخرى، كما قصد بعضهم المدن الصناعية في بريطانيا والأمريكيتين وأسسوا مشاريع لهم ولا سيما في صناعة النسيج.

أما فائدة البلاد من أبناء المهاجرين فهزيلة جداً، فيندر أن نجد الأثرياء من هؤلاء يعودون لأوطانهم للمساهمة في ازدهارها، بل سرعان ما يندمجون في أوطانهم الجديدة ويتخذون لأنفسهم أسماء محلية، أما الجيل الذي يتكون من أبنائهم هناك، فلا أمل فيه مطلقاً، لأنه جيل يجهل غالباً لغة أبويه، ويتعرض للتمثل السريع، ثم يفقد صلته بقومه وأدينه ووطن آبائه، وتنقطع تلك الصلات الواهية التي تشدهم إلى الوطن الأم، واندثار الأدب المهجري الذي ازدهر لفترة ما أكبر دليل على ذلك.

الهجرة الحديثة:

ونقصد بها الهجرة التي ظهرت ملامحها منذ (١٩٣٥) م تقريباً والتي اختلفت في نوعية المهاجرين والبلاد التي يقصدونها، فبعد أن كانت الهجرة في الماضي تعتري الريفين الفقراء، أصبحت بعد أن وضعت البلاد المستقبلية شروطاً محددة وعراقيل عديدة أمام المهاجرين، تجتذب فئات الشباب الذين يقصدون بلاد الغرب وأمريكا بقصد الدراسة، وليس في نية هؤلاء الاستقرار.

ولكن المغريات المادية وإمكانات البحث العلمي، التي لا قوها في البلدان التي راحوا يتابعون دراستهم العالية فيها، جعلتهم يختارونها لإقامتهم الدائمة.

هذا كما أدى التوسع في إرسال البعثات العلمية للخارج من قبل الدولة، لاستفحال ظاهرة خطيرة، وهي ظاهرة هجرة الأدمغة، التي تتاب كل أقطار العالم الثالث تقريباً، ولا يقع اللوم كله على هؤلاء العلماء الذين تخسرهم في كل عام كاتهامهم بنقص شعورهم الوطني وعاطفتهم القومية، بل هناك أسباب عديدة تعمل متضافرة على اشتداد هذه الظاهرة الخطيرة.

هجرة الأدمغة وأسبابها:

١- الزواج بالأجنبيات: يلاقي الطالب الذي تزوج بفتاة أجنبية مصاعب عديدة بعد عودته لوطنه في ملائمة زوجته مع بيئته، فيظل منعزلاً إلى حد ما، أو يضطر لخلق مجتمع خاص به يتلاءم مع حياته الجديدة المغايرة لطبيعة مجتمعه إرضاء لزوجته.

كما أن الكثيرات منهن يجبرن أزواجهن على العمل في وطنهن الأصلي ولا يقبلن الاغتراب، فيضطر الزوج مكرهاً بعد أن أنجب منها ولداً أو أكثر إلى البقاء حيث هو ولا سيما أن مجالات الرزق متوفرة والأجور مرتفعة، وفي حالات عديدة تهرب الزوجة بعد عودتها مع زوجها وتدمرها من البيئة الجديدة، وعندها لا يبقى من سبيل سوى اللحاق بها وتحسره البلاد نهائياً.

٢- إن الكثير من العلماء الذين ينتسبون للكوادر الفنية والذين عادوا لأوطانهم لم يجدوا مجالاً لتطبيق الاختصاص الذي اختصوا به في البلاد الأجنبية، فقد درس الكثيرون مثلاً علم الفيزياء الذرية وحصلوا على شهادات عالية فيها، ولكنهم لم يعثروا على عمل يمت بصلته لما درسوه نظراً لعدم توفر مثل هذه المجالات في البلد، فعادوا من حيث أتوا.

ويساهم التعقيد الروتيني في ظاهرة هجرة العلماء النابغين، كعدم مرونة نظم المرتبات وصعوبة تقييم أمثال هؤلاء العلماء من قبل أناس لا يماثلونهم في المستوى، فمن يحملون عقلية قبلية متعصبة، ومن تأخذه الغيرة والخوف من المنافسة في مجال ضيق، يدفع بالذين حصلوا على مناصب سامية يتحسبون من هؤلاء الذين يحملون

شهادات عالية تفوق ما لديهم، فيضعون الكثير من العراقي، إلى أن يدفع اليأس
بهؤلاء إلى النفور من العمل وإلى مغادرة البلاد.

وأخيرًا لا بد من القول بأن (مركب النقص) الذي نحس به تجاه كل ما هو
أجنبي يجعلنا نرجح الخير أو العالم الأجنبي عن مثيله من أبناء الوطن، فلا نساويهم
بالمرتبات ولا بالميزات.

وغالبًا ما يتقاضى الأجنبي ثلاثة أضعاف ما يناله مثيله من أبناء البلد، أو من
الذين يحملون جنسيات عربية.

ونفتقر مع الأسف لأرقام تشير إلى عدد علمائنا ومهندسينا الذين يعملون في
الخارج، ولا نقصد بذلك الذين يعملون في الأقطار العربية الشقيقة.

حوران والهجرة

كما سبق تبين لنا أن الهجرة من المنطقة على أنواع، منها هجرة من المنطقة إلى بقية أنحاء سورية وخاصة إلى المدن ومنها هجرة إلى خارج سورية، كما أننا نجد هجرة داخلية مؤقتة وموسمية ودائمة، نجد هجرة خارجية دائمة ومؤقتة، وأخيرًا توجد في حوران هجرة معاكسة أي إليها تتمثل بأعداد الأخواة الفلسطينيين المنكوبين، والنازحين من منطقة الجولان بعد نكسة عام (١٩٦٧) م.

تتمثل الهجرة الداخلية المؤقتة، بالنسبة لحوران، بأفواج الشباب الذين يؤدون خدمة ألا وهي عدم عودة الكثير منهم إلى القرية بعد تحسن أحواله الاجتماعية والمعاشية، فخربجوا الجامعات يفضلون العمل في المدينة وخاصة دمشق على العودة إلى القرية، والمتقاعدون يعملون على شراء بيت في المدينة ويعيشون على راتبهم التقاعدي، ونادرًا ما يعودون إلى القرية.

أما الذين أدوا خدمة العلم، فإن معظمهم يعود إلى أهله وحقله، وتلعب الرابطة القبلية والعائلية (الأسرة) في القرية والبيت دورًا هامًا في عودة هؤلاء إلى المنطقة.

ففي القرى التي لازالت فيها هذه الروابط قوية يعود أبناءها إليها كما هو الحال في قرية بصير مثلاً، بينما قرية رخم لم يعد إليها أحد ممن غادرها، وأخذ أهلها يبيعون أراضيهم لأهالي القرى المجاورة كالحراك والمليحة الغربية.

وهجرة هذه الفئات تتجه نحو مدينة دمشق بالدرجة الأولى ثم نحو درعا والقرى الأخرى بالدرجة الثانية، كما هو الحال في قريتي طفس وتل شهاب مثلاً.

لكن الهجرة بين قرية وأخرى قد تكون موسمية كالهجرة من القرى المجاورة إلى قرية طفس للعمل في زراعة الخضار، لكن الهجرة الكبرى والبعيدة المدى من حوران تكون باتجاه المحافظات السورية الأخرى وخاصة إلى الجزيرة في الموسم الزراعي حيث تصبح الحاجة لليد العاملة في الجزيرة كبيرة، وهؤلاء يعودون إلى قراهم بعد نهاية الموسم.

ويمكننا أن ندخل تحت هذا النموذج من حركة السكان، حركة بدو المنطقة وهم من عرب النعيم في الجيدور (شمال غرب حوران)، والسلوط في وعرة اللجاة، وبعض أفخاذ الرّوكة والدرعان والأشاجعة والسوالمة في منطقة وادي الزيدي، الذين ينتقلون بين أطراف القرى في الصيف ومنطقة اللجاة وأطراف الجولان أو الأردن في الشتاء ويقدر عددهم ب(١٤٠٠٠) نسمة، ويتمركزون في منطقة درعا ومزيريب وجلين وتل شهاب وسحم الجولان وغيرها. كما تنحصر في أعداد الأخوة الفلسطينيين الذين جاؤوا إثر حرب ١٩٦٧م مع بقية منطقة الجولان، ويقدر عددهم بـ ٤٠٠٠ نسمة، أما النازحون من منطقة القنيطرة فمعظمهم من بدو الجولان، أما الشراكسة والتركمان فقد نزحوا إلى منطقة حوض دمشق.

أما الهجرة الداخلية الدائمة: فهي هجرة من الريف إلى المدينة ومراكز التجمع البشري الكبرى وأسبابها، كما عرفنا سابقاً، ناشئة عن ازدياد عدد أفراد العائلة وضيق الأراضي الزراعية التي تملكها، كما تنشأ عن قلة الأمطار وزيادة الجفاف التي

تتعرض لها المنطقة عدة سنوات متتالية، واتجاه الهجرة يتركز على مدينة دمشق، وفي أحياء معينة منها الطبالة والدويلعة والقدم وباب توما وحي الأكراد.

وتزداد هذه الهجرة بعد استقرار المهاجر الأول من عائلة ما، إذا ما تحسنت أحواله المادية، يستدعي إليه بقية أفراد العائلة، ويستقرون نهائياً في المدينة.

فكانت الهجرة سبباً في إفقار ريفنا الزراعي بشكل خطير، ويزداد هذا الخطر إذا تذكرنا ما أشرنا إليه من عدم عودة معظم المثقفين والموظفين إلى قراهم.

وأخيراً تعرض المنطقة لهجرة خارج القطر وهي أيضاً مؤقتة ودائمة، والمؤقتة تكون قصيرة الأمد لا تتجاوز السنة الواحدة، وهي تنشط بعد انتهاء الموسم الزراعي (موسم الزرع وبعد موسم الحصاد)، وتتجه نحو لبنان والكويت لكسب المال.

أما الهجرة الخارجية الدائمة فإلى لبنان وإلى العالم الجديد، وأغلب المهاجرون إلى أمريكا غادروا منطقة حوران في القرن الأخير العهد العثماني، من جراء الضغط السياسي والهرب من التجنيد الإجباري، ومعظم هؤلاء من المسيحيين وعدد من سكان جبل حوران.

إن الهجرة من منطقة حوران بمختلف أشكالها وإن كانت تجلب الأموال للمنطقة بطريق أو بآخر، مما يساعد على تطور الريف الحوراني، وتقلل من البطالة، فإن مضارها أكثر من منافعها لأن معظم المهاجرين من الشباب عماد العمل الزراعي في ريفنا، وهذا يؤدي من ناحية أخرى إلى ارتفاع عدد الإناث في المنطقة مما يخل بالتوازن السكاني، كما أن هذه الهجرة تنقص من اليد العاملة الزراعية التي قد تتضرر أثناء المواسم السيئة.

مراكز التجمع البشرية في حوران:

يتجمع معظم سكان حوران في الجزء الشمالي الغربي والجنوبي حيث المياه والأراضي الصالحة للزراعة، وتتميز المراكز البشرية ببيوتها المتقاربة والمبنية من الحجارة السوداء وقد تطورت إلى بيوت إسمنتية حديثة مع ارتفاع مستوى المعيشة.

أولاً - مراكز التجمعات البشرية:

يبلغ عدد التجمعات البشرية الصغيرة منها والكبيرة (١٩٢) مدينة وقرية ومزرعة تتوزع على كافة المنطقة ولكن بشكل متفاوت، فهي تقل في المناطق الصخرية كاللجاة، وتكاثف ويزداد عدد سكان كل تجمع باتجاه الغرب والجنوب للأسباب التي ذكرناها، ما عدا المدن والقرى في جبل حوران ويلعب توافر الأرض الزراعية والمياه للري دوراً في توزيع هذه المراكز، كما أن خطوط المواصلات كخط دمشق، عمان (درب الحج سابقاً) لعبت دوراً في توزيع هذه المراكز، وتوضع عدد من المراكز على طرفيه، ويلاحظ كثافة القرى شمال غرب حوران وتنخفض هذه الكثافة باتجاه الجنوب (الوسط الغربي من منطقة حوران) لتعود بعدها كثافة القرى، وترتفع في الجنوب الغربي الذي تتوسطه مدينة درعا أكبر تجمع بشري في المنطقة.

أما في الجنوب الشرقي، جنوب اللجاة وعلى حدود منطقة جبل حوران، فإن عدد التجمعات البشرية كثيرة، ولكن عدد سكان هذه المراكز قليل، وتعوض بعض المراكز الكبيرة في بقعة ما النقص في عدد التجمعات البشرية، يكون عدد سكانها كبيراً كما هو الحال بالنسبة لنوى ومنطقتها إذ يبلغ عدد سكان نوى (١٧٠٠٠٠)

نسمة^(١) وقد ازداد عدد السكان بالسنوات القليلة الماضية بشكل متسارع في جميع قرى حوران حتى أصبحت أعدادها أضعاف إحصاء عام / ١٩٦٠ / م وسكان هذه المراكز من المسلمين ما عدا بعض القرى التي تعيش فيها الطائفة المسيحية (المذهب الكاثوليكي) وهو السائد، أو على المذهب الأرثوذكسي.

ويلاحظ على توزع القرى الحورانية وجود أثر الوديان السيلية التي تمتد على جانبيها الأراضي الزراعية، فالوديان تسير في أخفض المناطق، فالأراضي المسيرة لها تكثر وتمسك عليها التربة الزراعية، عدا عن كون المياه الجوفية وخاصة مياه الشرب قريبة من سطح الأرض، وهذا ما نلاحظه على طول وادي الزيدي وروافده ووادي الهرير أيضاً، كما نلاحظ تركيز بعض القرى على علوات صغيرة من الأرض هي التلال الناشئة من إنقراض التجمعات البشرية القديمة في المنطقة.

نماذج مخططات القرى في حوران:

يغلب على مخططات القرى في حوران التجمع وعدم التبعثر، وهذا النموذج من المخططات يهدف إلى توفير الأرض الصالحة للزراعة بالدرجة الأولى، والابتعاد والارتفاع عن مستوى السيول في القرى القريبة من الوديان السيلية.

والشوارع والحارات فيها ضيقة ومتعرجة لا تخضع لمخطط مرسوم في ذلك مثل القرى الشرقية، كما ويهدف نموذج هذه المخططات إلى تحقيق هدف العامل البشري الذي يتمثل بالعصبية القبلية والروابط العشائرية العائلية التي تدفع بالحمولة (قبيلة أو بطن أو فخذ) إلى التمرکز في نقطة واحدة متجمعة على بعضها،

(١) إحصاء عام ١٩٦٠.

أو عدة حمائل متفاهمة تتجمع في مركز واحد، كما وأن هذا النموذج من المخططات يسهل الدفاع عن القرية أمام غارات البدو أو الفئات المعادية لسكانها، لكن هذا المخطط أخذ بالتطور الذي شمل كامل المنطقة فأخذت القرى تتسع حسب طبيعة الأراضي القابلة للتوسع في كل قرية كما أخذ التنظيم في هذه المخططات، لذا نشاهد أن هذه المخططات أخذت تتسم بطابع تظهر في القرية القديمة (النواة) وحولها أو في أحد أطرافها بيوت القرية الحديثة، واتساع القرى سببه استتباب الأمن وازدياد عدد السكان، وارتفاع مستوى المعيشة والثقافة التي عمت المنطقة.

أسباب زيادة عدد القرى في المنطقة الغربية من حوران:

إن زيادة المحصلة الغربية على معظم القرى يرجع إلى عدة أسباب هي:

١ - العامل المناخي.

٢ - العامل الطبيعي.

٣ - الرغبة البشرية بالاقتراب من مصادر الرطوبة.

٤ - ميزاتها الاقتصادية الزراعية.

فالقرية مركز للنشاط الزراعي منذ القدم وحتى اليوم، وقد كانت القرى في السابق شبه مقطوعة عن المدن الكبرى لسوء المواصلات وخاصة في الشتاء، لكنها أصبحت مرتبطة مع بعضها ومع درعا ونوى ودمشق والسويداء بطرق مواصلات جيدة وأصبح أهلها منفتحين على التطور والتعامل الواسع مع بقية سكان المنطقة والمناطق الأخرى.

أهم مراكز التجمع البشري في حوران:

١ - مدينة درعا:

لا توجد في منطقة حوران مدن كبيرة، بالمعنى الجغرافي الصحيح، باستثناء درعا التي لم يتجاوز عدد سكانها (٢٥٠٠٠ نسمة) ولها طابع ومظهر المدينة رغم قلة عدد سكانها حسب إحصاء ١٩٦٠ م.

تقع مدينة درعا جنوبي منطقة حوران قريبة من الحدود الأردنية (٥ كم) وترتفع (٥٠٠) م عن سطح البحر، وهي مركز المحافظة، ودرعا ليست بالمدينة الحديثة، إذ تشير بعض الآثار والحفريات التي تمت في أنحائها إلى قدم إعمارها، ولقد كانت المدينة أصغر بكثير مما هي عليه الآن، إذ كانت المدينة، حسب المعلومات المتوفرة، تتركز في الحي المعروف بحي (الكرك) الذي يمكن اعتباره نواة المدينة، ولقد نمت المدينة في حي (الكرك) وباتجاه الجنوب والجنوب الغربي فقام حيّان جديان هما (حي البلدة) وحي (الأربعين) واللذان احتلا مساحة تعادل أضعاف أضعاف مساحته، وقد أصبحت مدينة جميلة المباني حسنة التنظيم، وأصبح عدد سكانها يربو على ثلاثمائة ألف نسمة بسبب الهجرة من القرى المجاورة.

مخطط مدينة درعا على جانبي الزيدي:

مخطط مدينة درعا مختلف على جانبي الزيدي، فالمدينة القديمة لا مخطط منظم واضح لها، شوارعها وأزقتها ضيقة متعرجة ويوتها متراسة، بينما الحديثة مخططة ومنظمة وشوارعها عريضة ذات أرصفة مستقيمة، ويظهر المخطط الشطرنجي المعروف في أحدث أحيائها ألا وهو (حي شمال المحطة) الذي يرجع عمره الى عام ١٩٤٠ م.

ونظرًا لكون مدينة درعا مدينة حدود، وهي آخر مدينة للمغادر وأول مدينة للقدام إلى سورية، نجد أن المسؤولين قد اهتموا بعمارتها بشكل ملحوظ مما أعطاهم طابع المدينة رغم ما ذكرناه آنفًا بالنسبة لعدد السكان.

مخطط مدينة درعا:

النواة القديمة: بقي توسع المدينة متمركزًا على الطرف الأيسر (جنوب) وادي الزيدي وذلك حتى مطلع القرن العشرين، وبعد إنشاء الخط الحديدي الحجازي وتفرعاته وإنشاء المحطة، نشاهد الدور الذي لعبته سكة الحديد في اتساع المدينة شمال وادي الزيدي، ويعتبر هذا القسم حديثًا بالقياس إلى الأجزاء الأخرى من درعا.

وقد كان الاتساع في المدينة الحديثة سريعًا وكبيرًا لم يتوقف، وقامت أحياء جديدة هي (شمال المحطة) و (شرق المحطة) و (جنوب المحطة)، ثم مخيم الأخوة الفلسطينيين، واتجاه التوسع هونحو الشمال والغرب والشرق بالنسبة للمدينة القديمة (جنوب الزيدي).

عدد السكان في درعا وتطوره:

لقد تطور عدد السكان في مدينة درعا بشكل حثيث، فبعد أن كان يقدر بـ ١٨٢٥٤ نسمة (١٩٥٠) م ارتفع إلى (٢٠٤٦٥) عام (١٩٦٢) م و (٢٥٠٠٠) عام (١٩٦٤) م واستمر التزايد حيث وصل العدد عام (١٩٦٩) م إلى ٢٨٠٠٠ نسمة، ثم تضاعف العدد إلى أكثر من ثلاثمائة ألف نسمة نهاية القرن العشرين.

وظيفة مدينة درعا:

كانت وظيفة مدينة درعا متعددة، لكن الوظيفة الزراعية هي المسيطرة والطاغية، فأهلها معظمهم كانوا يعملون بالزراعة وتربية الماشية مباشرة أو عن طريق غير مباشر إلى جانب قيامهم ببعض الأعمال الأخرى في المدينة كالتجارة وبعض الحرف الصناعية، فدرعا هي سوق لمنتجات حوران الجنوبي وحيواناته. إلى جانب ذلك هناك وظيفة تجارية هامة أخرى لدرعا، لوقوعها على خطوط مواصلات رئيسية وخاصة طريق دمشق - عمان للسيارات وطريق جبل حوران، الجولان، كما أنها عقدة مواصلات للسكة الحديدية (رغم تضائل أهميتها)، ولا ننسى أخيراً أهميتها من الناحية الإدارية كمركز محافظة وكمدينة حدود ينشط فيها التبادل التجاري وتزدهر فيها حركة البيع والشراء المشروعة أو غير المشروعة (التهريب) بنسبة أقل بكثير.

مراكز التجمع البشرية الكبرى في حوران:

بعد مركز تجمع مدينة درعا نجد مركز نوى بسكانه البالغين ١٧٠٠٠ نسمة الذي يعتبر في المنطقة إدارياً مدينة.

ويلي مركز تجمع نوى مراكز أقل سكاناً يمكن تقسيمها حسب عدد سكانها إلى:

أولاً - التي يتراوح عدد سكانها بين (١٠٠٠ - ٢٠٠٠) نسمة.

وبين (٢٠٠٠ - ٣٠٠٠) نسمة

وبين (٤٠٠٠ - ٥٠٠٠) نسمة

ثانيًا: في منطقة درعا (إداريا وحسب تعداد السكان العام لعام ١٩٦٠) م نجد أن بلدة إنخل و داعل أكبر القرى ٤٤٨٠ نسمة، تليهما قرية غزالة، ثم إبطع وسكانها فوق ال ٢٠٠٠ نسمة ثم خمس قرى سكانها فوق ١٠٠٠ نسمة.

ثالثًا: في ناحية بصرى الشام، نجد بصرى الشام وأربع قرى.

رابعًا: في منطقة إزرع فإن مركز منطقة إزرع ليس أكثر المراكز سكانًا، بينما أكبر القرى هي إنخل تليها داعل والشيخ مسكين، ثم الصنمين، ثم خمس قرى.

خامسًا: أما من ناحية اللجاة الجنوبي فلا توجد قرية واحدة كبيرة نسبيًا، ولا توجد في اللجاة الشمالي قرية واحدة - ذات عدد كبير من السكان نسبيًا.

سادسًا: في منطقة نوى إلى جانب مركز نوى قرية عدد سكانها كبير نسبيًا، وأخرى أقل سكانا وقريتان، مثل تسييل وجاسم.

ومن الملاحظ أن عدد السكان أصابه تطور وتغير كبيران، وذلك بازدياد عدد سكان حوران عامة وجميع المراكز البشرية وخاصة الكبيرة منها نسبيًا، لكن نظرًا لانعدام الإحصاءات السكانية الموثوق بها، وكيلا نعتمد على أرقام تقديرية تخمينية إكتفينا بما أوردناه، وقد أصبح عددًا من هذه القرى مدنا يربو عدد سكانها على (٢٠٠٠٠) نسمة أو أكثر.

المسكن في حوران:

يعتمد المسكن في حوران في بنائه على المادة الطبيعية الأولية المتوفرة في المنطقة، ألا وهي الحجر الاندفاعي البازالتي مع التربة الناعمة المتحللة عنه، ولقد تكيف بناء المسكن مع هذه المادة الأولية للبناء، ومع انعدام الغابات والأشجار

الطويلة والمستقيم الجذوع بشكل يجعلنا نتكلم عن المسكن الحجري في جنوب سورية، وعلى الرغم من تطور مادة البناء ودخول الحديد والأسمت في تشييد المنازل الأعظم من مساكن حوران لا زال مبنياً على نمط المسكن (الحجري القديم) والسائد في منطقتي حوران وجبل حوران بشكل خاص، وقد تطور هذا المسكن مع مرور الزمن حتى وصل إلى الشكل الحالي، منذ العصر الروماني وما بعده، تظهر مهارة وإبداع الإنسان في المسكن الحجري هذا اقتصره على الحجارة في البناء حتى السقف الذي يخلق في هذه المنطقة مشكلة رئيسية لانعدام الأخشاب وارتفاع أسعارها، فبعد رفع الجدار القائم على أساس من الحجارة البازلتية، والمبني من مكعبات مصقولة (وأحياناً غير مصقولة في البيوت الفقيرة)، وتكون الحجارة في الجدران الأربعة من صفيين (كلين) أو صف واحد (مسقط)، وكثيراً ما تدخل في الجدران أحجاره طويلة وبصورة عرضانية لتزيد من تماسك الجدران تعرف باسم (الربط)، أما حل مشكلة السقف فيتم بإحدى الطريقتين التاليتين:

أ - تبنى قنطرة بين الجدارين المتقابلين تصل بينهما في الأعلى، وإذا كانت الغرفة كبيرة، تبنى عدة قناطر متتالية بين الجدارين المتقابلين، وإن بناء القناطر هذا يجعل مسافة الوصل في الأعلى قصيرة مما يجعل بالإمكان وضع أحجار طويلة تصل بين القنطرة والثانية، أو توضع بلاطات حجرية فوق قوس القنطرة وفوق الجدارين تعرف باسم (الموازن = ميزان) ومن ثم يزداد في ارتفاع الجدران حسب الحاجة والرغبة.

نظام الغذاء في حوران:

ويكون نظام غذاء أبناء الريف السوري الذين يؤلفون قرابة ٥٥ ٪ من السكان وسطياً وينطبق هذا على أبناء سكان حوران، شكلاً بسيطاً للغاية، بحيث يمكن إعطاء صورة عنه حسب النسق الآتي:

- يكتفي الفلاح صباحاً بتناول الخبز مع كأس من الشاي أو مع قليل من الزيتون.
 - وعند الظهر يأكلون الخبز مع اللبن المخثر في فصل الربيع.
 - في المساء تكون الوجبة الرئيسية وتتألف من البرغل المطبوخ بالزيت أو مع الدهن أو مع السمن، وعلى العموم فقد كان الفلاح لا يأكل اللحم إلا في المناسبات، كالأعياد أو عند قدوم ضيف حين يذبح له خروفاً أو جدياً أو دجاج.
 - وفي الربيع يضيف إلى رتابة وجباته بعض الخضار، أو بعض الأعشاب البرية الصالحة للأكل مثل الخبيزة أو الحلبوب أو الهندباء (العليجة) والرشاد والعكوب والحويره والعاصمية.
 - وفي السنين الخصبية تكثر منتجات الألبان على مائدته، أما في المدن فالغذاء أكثر تنوعاً بكثير ويختلف حسب المستوى الإقتصادي للعائلة.
 - كما أن الفلاح أصبح لا يستهلك أي نوع من الحبوب الدنيا كالشعير والذرة بنوعيهما، باعتبار استهلاك خبز القمح يعتبر نوعاً من المظاهر الدالة على ارتفاع مستوى المعيشة لدى المجتمع الفلاحي بشكل عام وفي حوران بشكل خاص.
- وبهذا نكون قد أنهينا من الدراسة الجغرافية لمنطقة حوران الخير.

استهلال

أرجو أن يكون مذكرناه جغرافياً في مخطوطنا كافياً لإعطاء صورة متكاملة وواضحة عن جغرافية حوران، وآمل أن تكون محاولتنا المتواضعة التي نقدمها بين يدي قارئ الكريم عن تاريخ حوران، والتي سنعرض فيها مقتطفات عن تلك العهود الغابرة التي مرّت على منطقة حوران حتى عهد الغساسنة ثم نبحت ما أمكن في كل عهد من هذه العهود، ونتوسع ما أمكن في بعضها خاصة عهد الغساسنة الذي انتهى بمعركة اليرموك الخالده التي جرت على ربي حوران؛ حيث يبدأ التاريخ في دورة المجد والفخر، مجد العرب المسلمين الذين حملوا راية العلم والنور لكل أرجاء المعمورة، ثم نبحت في العهود التي تلتها حتى جلاء المستعمر الفرنسي عن أرض سورية الحبيبة.

ورجأؤنا أيضاً أن تكون هذه الصفحات، التي نضعها تحت أبصاركم وبصيرتكم، مساهمة متواضعة في تقليص أبعاد فقر مكتبتنا العربية بالمعلومات المتعلقة بتاريخ حوران، عن طريق التعرف على مجريات التاريخ (القديم والحديث) لمنطقة حوران، حيث تؤكد الوحدة التاريخية لهذه البقعة العربية، التحامها ببقية جسم الوطن العربي، عبر عصور التاريخ المختلفة، وفي وقت تجهد الصهيونية العالمية، وأعوانها، لتمزيق هذه الوحدة، من خلال كيانها المصطنع على جزء مقدس من بلاد الشام، يهدد كيان الأمة ويستنفد طاقاتها، ويقف حائلاً دون وحدتها وعائقاً في وجه تواصلها.

والتاريخ هو العلم الذي يفسر الحاضر، ويعين على بناء مستقبل وحاضر هذه الأمة، وهو ركيزة الغد ومنطلقه، وهو حصيلة ماضيها القريب والبعيد في تطوراتها المتباينة (صعودًا وهبوطًا)، لأن إدراك الماضي وأبعاده وبواعثه وأغراضه وأمانيه، يعني العودة إلى جذور واقعنا وأسس تكوين ثقافة أمتنا، التي تشكل شخصيتنا العربية جزء منها، وبالتالي فهي تعيننا على رسم المستقبل المشرق في إنشاء الدولة الواحدة التي يسودها العدل والمساواة والحرية، بفكر إسلامي وسطي منفتح، والله تعالى من وراء القصد.

المؤلف

الأهمية التاريخية لمنطقة حوران

من تعدد التسميات من الآثار المتبقية، والوثائق التاريخية المختلفة نرى أن تاريخ منطقة حوران قديم جداً، تعاقبت على حكمه أقوام عدة.

لقد أجمع المؤرخون أن أول من استوطن حوران منذ أن عرف الإنسان على الأرض، وقبل أن يعرف التاريخ، وهذا ما تؤكدته المكتشفات الأثرية في حوران هم الساميون الذين قدموا من وسط شبه الجزيرة العربية على شكل موجات متعاقبة، وقد بدؤوا حكمهم بقدرات بسيطة ثم تعاظمت تدريجياً حتى سيطروا على بلاد الشام.

وأقدم من عُرف من الساميين قبائل الآمور، وقد ورد ذكرها في الآثار المصرية، ومعناها باللغة السامية (الشعب) ولعل ذلك بعد طوفان نوح، كان من هذه القبائل السامية (الأموريون) و(الكنعانيون) و(الآراميون) و(الآشوريون) و(الأنباط) و(الغساسنة) ويصح تسميتها بالشعوب العربية القديمة.

أما الشعوب ألاما سامية، والتي تمكنت في فترة من الزمن في حكم حوران فهم اليونان بعد الإسكندر المقدوني، والرومان، ولم يكن حكمهم لحوران مركزياً في أغلب الأحيان، فقد كانوا يוכלون ذلك إلى أمراء عرب من سكان حوران - ينوبون عنهم في جمع الضرائب ودفع الهجمات الفارسية.

التسمية:

اسم حوران أحدث من اسم باشان، وقد ظهر اسم حوران لأول مرة في الكتابات الآشورية وخاصة في عصر تيغلات فليصر الثالث ٧٤٥ - ٧٢٥ قبل الميلاد، الذي قضى على مملكة دمشق الآرميه عام (٧٣٢) ق.م، ثم اجتاز حوران وفلسطين وجعلها مقاطعات آشورية، ولا نعرف مركزها وإن كنا نرجح أن يكون المركز (ترميم)، أي بلدة الشيخ سعد الحالية، وقد امتدت مقاطعة حوران آنذاك حتى جبل حوران شرقاً والجولان غرباً، أما حدودها مع مقاطعة دمشق فغير معروفة، وكذلك حدودها الجنوبية والتي تصل إلى جبال عجلون في الأردن وباشان، منطقة كانت معروفة في الألف الثاني ق.م، كما يتضح لنا من زيري باشاني المذكور في رسائل تل العمارنة، وذكرت باشان كمنطقة في كتاب العهد القديم، ومعنى كلمة باشان (أراضي خصبة سهلية منخفضة) وهذا ينطبق على منطقة (النقرة) المعروفة خاصة عند سكان (محافظة درعا والسويداء).

وقد ورد اسم باشان أو زيري باشاني في رسائل تل العمارنة على أنها تقع إلى الجنوب الشرقي من عشتروت، ويعتقد أنها عين تل حمد الذي يقع غربي الشيخ مسكين، وفي عصر تل العمارنة وقف أميرها أتامينا إلى جانب ملك دمشق بيريأوزة ضد ملك قادشي إيتا كاما، ويبدو أن هذه المدينة قد بقيت على علاقات طيبة مع مصر، والدليل على ذلك أن ابن أمينا من بلدة زيري باشان وقد دخل في خدمة الفراعنة، وارتقى إلى مناصب عالية منها النذير الأول - حامل المروحة على يمين الملك - كبير مناء المستودعات ومستودعات الميرة، وقد خدم في عهد الملكين رمسيس الثاني (١٢٩٠ ق.م - ١٢٢٣ ق.م) ومرنبتح (١٢٢٣) ق.م - (١٢٠٥) ق.م.

تاريخ حوران:

لقد أجمع المؤرخون وعلماء كثيرون أجنب، أمثال: موسكاني - فيلي - سيرانجر، وغيرهم كثير أن الأرض العربية هي المهد الأول للعرب وقد نشأت فيها أقدم الحضارات في العالم وأجمعوا على أن الحضارة العربية قد أثرت في جميع الحضارات الإنسانية (قديمها وحديثها) وقد تبين من خلال الأدلة الآثرية أن العرب قد استقروا في بلاد الشام في الفترة الواقعة ما بين الألف التاسع والألف السادس ق.م، وهي الفترة الهامة جداً في تاريخ عصور ما قبل التاريخ.

وعلى هذه الأرض نضجت جملة من التحولات التي تؤكد السبق في ركب الحضارة الإنسانية، فقد تمكن إنسان ذلك العصر (البليستوسين) و (الهولوسين) بفضل قدرته على التنقل من استحداث وسائل عديدة للصيد وجمع الغذاء من المحاصيل البرية المتوفرة.

واستطاع أن يتدبر أمره في استقراره في الملاجئ الطبيعية مثل الكهوف والمغاور، وقد عثر على مخلفاته في تلك الأماكن، ثم استمر في حضارته حتى استطاع أن يصل إلى مجتمع القرية في العصر الحجري الحديث (النيوليتي)، وأقام البيوت المشيدة وتعرف على زراعة الأرض، وصنع الفخار، ومارس طقوساً دينية لها أعراف ومناسك معينة، وذلك بفضل ماوفرت له هذه الأرض من مقومات العيش.

إنسان ما قبل التاريخ في حوران:

تدلنا الآثار التي عثر عليها في حوران، والتي تعود إلى العصر الحجري القديم الأدنى الذي يرجع تاريخه إلى حوالي مليون سنة واستمر إلى مئة ألف سنة مضت، وهو الذي يرادف ما يسمى بأوروبا بالحضارة الآشولية^(١)، وقد سكن الإنسان هذه الأرض، إنسان ما قبل (الهوموراكتوس)^(٢)، وقد قدم إلى بلاد الشام من جنوب قارة أفريقيا، ووجدت آثاره قبل أن يتحرك نحو الشمال، بحوالي نصف مليون سنة.

وقد تتبع الهوموراكتوس وسلك طريقه إلى بلاد الشام بخطين اثنين يشكلان ممرات طبيعية بين أفريقيا وآسيا، الأول ساحلي على امتداد ساحل البحر الأبيض المتوسط، والثاني عبر الانهدام السوري الأفريقي أو الأخدود الأفريقي العظيم، الممتد من جنوب شرق أفريقيا جنوباً مروراً بالبحر الأحمر فوادي عربة فوادي الليطاني وحتى نهر العاصي في سورية شمالاً^(٣).

كانت أنماط الأدوات البدائية المصنعة بالطرق الحجرية الثقيلة، التي عثر عليها في حوران المغلفة بالطبقة الكثيفة، الأمر الذي جعل الباحثين يؤرخونها بما يقارب المليون سنة خلت، وهذا أقدم تاريخ عرف في بلاد الشام عامة، وفي حوران خاصة، وقد عثر على أدوات للطحن والسحق أو الدق في موقع (الطيبة) يعود تاريخها إلى

(١) ظهرت الحضارة الآشولية في أوروبا وانتشرت في انحاء العالم القديم انتشارا في عصور ما قبل

التاريخ واشتهرت بتصنيع الفؤس ذات الرأسين

(٢) الهوموراكتوس: يعني الإنسان منتصب القامة

(٣) ذنون - عن د. سلطان محيسن - كتاب تاريخ الشام القديم

العصر الحجري القديم أو الحقبة النطوفية، مما يدل على مدى تطور الإنسان في هذه المنطقة وتواصله الحضاري مع الشعوب الأخرى.

لقد وقف رئيس البعثة الأميركية (جورجينو بوتشيلاني) عند أطلال مملكة (جرخانة) قرب التقاء الفرات والخابور ليقول وهو يفرك بأصابعه حفنة من تراب المنطقة: عندما نكون في سورية تجدنا نمتزج مع التاريخ ذاته، فكل ذرة من ترابها هي حرف مضى في سفر الإنسانية الخالد).

يمكن تقسيم تاريخ حوران إلى خمسة أقسام رئيسية:

١ - عصر ما قبل التاريخ:

(إذا تتبعنا خط النسب بعد آدم إلى آرام، فإننا نلتقي بواحد من أعظم الآباء العرب وهو سوريان، أحد أحفاد آرام الذي أنجب أعظم السلالات التي حكمت بابل)^(١).

٢ - العهد السامي:

العهد الذي بدأ في (٢٥٠٠) ق.م تقريباً، هو العهد الآموري الذي دام قرابة ألف عام أي حتى عام (١٢٥٠) ق.م، حيث بدأت هجرة العبرانيين إلى الجنوب الغربي من سورية بصورة غير منتظمة.

٣ - العهد الآرامي:

الذي بدأ حوالي (١٠٠٠ ق.م).

(١) تاريخ سورية القديم، ص ٥٧٨ - ص ٥٧٩ - أحمد داوود.

وأطلق الآشوريون تسمية (آرومو) و(آرامو) على بلاد آرام وعلى سكان تلك المنطقة وكان اسم آرام قد عرف منذ عهد الملك الآكادي نرام سين (٢٢٥٠ ق.م) كما يقول موسكاني في كتابه المرسوم: (الحضارة القديمة) ^(١)

أما الفينيقيون، فقد عرفوا بهذه الاسم، ولهذا الاسم صلة بكلمة أرجوان، أي صبغ الأقمشة باللون الأرجواني وهي صناعة اشتهرت بها المدن الفينيقية، وقيل: إن كنعان هو الاصطلاح الأصلي الذي عرفت به البلاد الفينيقية، ومنه اشتقت كلمة أرجواني، وفي المصادر المحلية نجد اسم كنعان أطلق على الشعب والبلاد معاً في القرن الخامس عشر ق.م، والفينيقيون والكنعانيون هم شعب واحد، وقد اختلف المؤرخون في أصل الكنعانيين أو الفينيقيين، وذكر البعض أنهم من جنوب فلسطين، وقيل بل جاؤوا من خليج البصرة، وقيل هم أصليون في موطنهم، وقد أكد أحمد علي إسماعيل علي أن الفينيقيين وأهنتهم وثقافتهم (مصدرها بلادهم). ^(٢)

عاش الإنسان العربي في حوران منذ عصور ما قبل التاريخ الأولى، كما أقام في غيرها من أقطار المشرق العربي، وهناك دلائل كثيرة تؤكد وجود أسلوب حضاري متقارب بين سكان حوران وسكان مصر وبلاد الرافدين (ما بين النهرين) منها الفخار وأدوات المعيشة والعمل.

والحفريات الأثرية التي قام بها بعض العلماء ساعدت على تعيين المساكن البشرية في عدد كبير من المواقع أهمها ما اكتشف في درعا، والطيبة، وتل شهاب، والمزيريب، والأشعري وبعض نواحي اللجاة على أن معظم آثار عصور ما قبل

(١) تاريخ الشام القديم ص ١٤٨ - عبد الحكيم الذنون.

(٢) تاريخ بلاد الشام أحمد إسماعيل علي.

التاريخ في حوران لا تزال مجهولة، وميدان البحث في هذه البقعة من الآثار حافل بالاحتمالات، ونشاهد بالعين المجردة في كثير من المناطق الأدوات الصوانية، كالفؤوس اليدوية التي يعود تريخها إلى (١٥٠) ألف عام وما صنع فيما بعد بدافع الحاجة إلى مقاشط لتنظيف الجلود وسكاكين وبلطات وسواطير ومطارق و.....

وفي العصر النيولوتي من الألف السادس قبل الميلاد حتى الألف الرابع قبل الميلاد بدأ استيطان حوران واخذ سكانها يعيشون حياة فيها شيء من الاستقرار عندما عرفوا كيف يبنون الأكواخ والقرى وتربية المواشي وزراعة الأرض وتوصلوا إلى اكتشاف طريقة صنع الفخار.

وفي العصر الخالكولتي (٤٥٠٠ - ٣٠٠٠ ق.م) خبط الحضارة في تطوراتها خطوات سريعة بعد اكتشاف صهر النحاس واستعمال الألوان في الرسم وغزل الخيوط واستعمال الوشم، وقد أدى نمو صنع المعادن والخزف الذي يتصف به أواخر العصر النحاسي الحجري، وأوائل العصر النحاسي إلى ظهور حرف مختلفة، وإلى زيادة التبادل في المحاصيل والمصنوعات، كما نتج عن ذلك اختصاص في العمل وإنشاء مدن أهلة بالسكان في السهول والأودية، وفي أواخر الألف الثالث قبل الميلاد انتشرت الكتابة التي تعتبر إيدانا ببدء التاريخ المكتوب واستكمالاً للتطور.

- الساميون:

اشتق اسم الساميين من سام (الإبن الأكبر للنبي نوح عليه السلام)، غير أن هذه التسمية، من وجهة علمية، هي تسمية لغوية تطلق على الذين تكلموا اللغة السامية واللغات السامية، كما هو معروف اليوم، تشكل مجموعة لغوية تضم (العربية والكنعانية والآشورية والفينيقية والآرامية والعبرية والحثية).

وكانت اللغة من أهم الروابط التي جمعت الشعوب السامية، ولكنها ليست الروابط الوحيدة، فالعقائد الدينية والنظم الاجتماعية المتشابهة، التي كانت سائدة بين تلك الشعوب، تؤكد أنهم من أصل واحد.

وقد أجمع المؤرخون أن الساميين قدموا إلى بلاد الشام بحثاً عن الأماكن الخصبة في الشمال، وكان قدومهم تدريجياً على شكل موجات متعاقبة، وهذا يقودنا إلى القول أن الشعوب المسماة بالسامية هم طبقات من العرب، بدليل أن اللغة العربية هي أقرب لغة إلى لغة الأقوام العربية تلك، وإن جميع الهجرات المعروفة (بدءاً من الهجرة الآكادية إلى الفتح الإسلامي) خرجت من قلب الجزيرة العربية ولم تكن هناك هجرات معاكسة، والتسلسل التاريخي للساميين الذين جاؤوا في هجراتهم إلى بلاد الشام هو على الشكل التالي:

الأموريون - الكنعانيون - الآراميون - الآشوريون - الأيتوريون -
الحوريون - الأنباط - الغساسنة - الذين تعاقبوا على حكم حوران والمناطق المحيطة بها أحياناً، وعلى حكم بلاد الشام بالكامل أحياناً أخرى.
- الآموريون:

جاء في العهد القديم أن فلسطين وشرقي الأردن وسكان الجبال والبوادي هم أموريون، قبل قدوم اليهود إليها.

وكلمة أموريين غير سامية وتعني (الغريين) والعاصمة الأمورية (ماري) الواقعة جنوب مصب الخابور (كلمة سومرية) مشتقة، شبيهة باشتقاق بلاد أمور ومارتو، أي بلاد الغرب، وهو أيضاً إسم آلهتهم التي كانوا يعبدونها، كإله الحرب وإله الصيد).

وتظهر أول إشارة إلى أرض الأموريين في عصر الملك سرجون^(١) حوالي (٢٢٥) ق.م، وهو أول شخصية كبرى في تاريخ الساميين الذين حكموا حوران ثم امتدوا إلى سورية الوسطى (لبنان و فلسطين) ثم إلى بلاد ما بين النهرين، حيث أسسوا فيها مملكة بابل التي ظهر فيها حمورابي وشريعته العظيمة (١٧٠٠) ق.م وهو الذي فتح بلاد آمور وضمها إلى امبراطوريته البابلية ثم تحول إلى مركز الأموريين إلى الجنوب حيث المناطق الواقعة شرقي الأردن وباشان (حوران)، وأصبحت أرضهم تدعى أرض الجبابرة أو العماقة، لطول قاماتهم التي شبهت بقامات الأرز وأنهم أقوىاء كالسنديان، وكان ملكهم (عوج) ذي قامة عظيمة حسب ارويات، بلغت تسعة أذرع^(٢)، وتبدو قامات الأموريين في المباني الأثرية التي تركوها وبواباتها الشاهقة، وكان البرونز هو المعدن المستعمل عندهم، فكانت رؤوس حراهم نحاسية، وخناجرهم وسكاكينهم أكثر صلابة، لأنهم كانوا يمزجونها مع القصدير بواسطة التطريق، وقد انتقلت بعدها إلى فلسطين، وكانت لغتهم كنعانية شرقية تقابل اللغة الكنعانية الغربية أو الفينيقية، أما آلهتهم فهي لا تختلف عن آلهة التي

(١) سرجون الذي خلده شاعر آشوري وخلد فتوحاته بقصيدة يقول فيها:

أناشاوكين ملك أكاد القوي	سلطان البرونز قهرت الجبال العظيمة
تسلقت السلاسل العالية	وعبرت السلاسل الوطئة
جبت البحر ثلاث مرات	قبضت على دلمون بيدي
والى دير العظيمة صعدت	وابني ملك يأتي من بعدي
فليحكم ذي الرؤوس السوداء	ويملك عليهم ليصعد الجبال العالية
ليتسلق سلاسل الجبال العالية	وليصعد الى مدينة الدير العظيمة

(٢) كما جاء في التورات.

كانت تعبد في بلاد الشام ومن أشهرها حدد إله المطر وصانع الصواعق) و (رشف إله النار) و(دجن آلهة الغذاء) حسب اعتقادهم، وداموا حوالي ألف عام، وفي سنة (١٢٥٠) ق.م بدأت هجرت العبرانيين إلى الجنوب الغربي من سورية بصورة منتظمة وهم من الحوريين والحثيين والساميين.

ولما استقر بهم المقام سال لعابهم على أرض اللبن والعسل، كما كانت تسمى، وطمعوا فيها وتعلموا لغة الكنعانيين وتزاوجوا منهم وأججوا في نفوس أبنائهم شعور العداء لأهل البلاد، ولما شعروا بقوتهم هاجموا حوران إبان حكم الملك عوج، واحتلوا عدد من مدنه وقراه، ثم حاولوا احتلال المنطقة الشمالية إلا أن مملكة الآراميين في دمشق حالت دون ذلك، وقد بسطوا سلطتهم على ضفاف الفرات الأوسط شرقاً حتى ضفاف اليرموك غرباً، ودخلت باشان أو حوران في سيطرتها وذلك حوالي (١٠٠٠ ق.م).

وقد قام الملك (بن حدد الأول) ما بين (٨٧٩ - ٨٤٣) ق.م بمحاربة العبرانيين وتمكن من هزيمتهم وتحرير أرض حوران، وبقيت الحروب مستمرة قرابة القرنين وحتى ظهور الآشوريين بقيادة شلمنصر الثاني عام (٨٤٢ - ٨٣٨) ق.م الذي قام بطرد العبرانيين من حوران ولم يتركهم إلا بعد أن قدموا له الطاعة وكل ما يملكون من الكنوز والذهب التي جمعوها في معابدهم على ألا يتجاوز عدد محاربيهم على الخمسين فارساً وعشر مركبات^(١).

(١) يقول هنري فرانكفورت وآخرون إن الآموريين هم ساميون وقد أصبحوا سومريين حتى النهاية والذين اعتمدوا الكتابة السومرية، نقشوا على تماثيلهم باللغة الأكادية

حل الساميون في حوران منذ أقدم عصور التاريخ وتذكر التوراة: إنه قبل الغزو الكنعاني كان يقطن حوران العمالة، حتى ان حوران طغى عليها اسم (ارض العمالة) وان عوج ملك باشان كان من سلالة هؤلاء العمالة، وكانت عاصمتهم مدينة أدرعي (درعا)، وتظهر أول إشارة إلى هؤلاء العمالة (وهم الآموريون على وجه التأكيد) في عصر سرجون (٢٢٥٠) ق.م وهو أول شخصية كبرى في تاريخ الساميين.

وأخذ الآموريون يظهرن بالتدريج في سورية الوسطى ومنطقة لبنان ومنطقة فلسطين، ولم يكتفوا باجتياح سورية وإنما اجتاحوا بلاد ما بين النهرين وأسسوا فيها سلالة حمورابي، واسم الآموريين مثل الحثيين تغير مع الزمن.

ويوصف الملك عوج ملك باشان بأنه من بقية الجبابرة وذو قامه هائلة، وكان طول تابوته المصنوع من حجر البازالت تسعة أذرع وعرضه أربعة أذرع، وتقول التوراة أن قامه الآموريين كانت مثل قامه الأرز.

وأنهم أقوىاء كالسنديان، وتبدو قامات الآموريين في المباني الأثرية طويلة عسكرية ولا بد أن حجمهم وحضارتهم قد أثرت على سكان الكهوف القصار القامة البدائيين في جنوب سورية.

وكما مر معنا، ما لبث شأن الآموريين أن اضمحل بعدما امتدت سلطة الكنعانيين نحو الداخل وأخذوا يغادرون الساحل بجماعات صغيرة مما أدى إلى وقوع فتن وحروب محلية وضعف الدولة، كما أن أنانية الحكام وانقسامهم سبب الفوضى وتوقف عجلة التطور، إلا أن ظهور الهكسوس وهم خليط من الآموريين والكنعانيين وغيرهم من عرب الجنوب والذين وطدوا دولتهم على حضارة تتسم

الحياة فيها بمزيد من الحرية والاتساع، وفي عهدهم تم استخدام الحصان والمركبات في الشرق العربي، وفي هذه الفترة أخذ الإسرائيليون بالهجرة إلى الجنوب الغربي من حوران، وكان نزولهم في بادئ الأمر بشكل مرتزقة وتجار وجماعات صغيرة، وما لبثوا أن اقتبسوا لغة السكان وعاداتهم، وما أن تركزوا حتى شكلوا جماعات ثم دويلات أخذت تهدد باحتلال المنطقة بكاملها وإخضاع السكان إلى نفوذها، فتعاونوا مع كل فاتح طمعاً بأرض السمن والعسل ونهب خيرات البلاد، غير أن قيام الدولة الآرامية في دمشق وقف سداً أمام توسعهم وحاربوهم مدة قرنين، كما حاربوا الآشوريين الذين قدموا من الشمال وتحالفوا مع الإسرائيليون خلال فترات غزواتهم لهذه المنطقة.

وخلال القرن العشرين ق.م، أصبحت مدينة ماري والبلاد المحيطة بها أمورية في سكانها وحضارتها وحكومتها، وقد أكدت الرسائل التي عثر عليها في قصر (زمرى ليم) بمدينة ماري الدور الحضاري الذي قدمه الأموريون الذين اتصفوا بالقوة، وحمورابي كان من سلالتهم.

٢- الكنعانيون:

ما لبث شأن الأموريين أن بدأ يضمحل في البلاد عندما امتدت هجرة الكنعانيين نحو الداخل، وأخذوا يغادرون الساحل بجماعات صغيرة تتمركز في القرى وتتجمع حول المدن، وما لبثوا أن أقاموا التحصينات المنيعة، والأسوار ذات الشرفات والأبراج الدفاعية ليلتجئ إليها الريفيون عند الخطر، وتكون لهم زمن السلم سوقاً ومركزاً، وعدا هذه الحصون، فقد استخدم الكنعانيون المركبات الحربية بالإضافة إلى الحصان.

جاء في معجم لا روس كما ذكر محمد كرد علي في خطط الشام:

إن أرض كنعان أو بلاد كنعان يحدّها من الغرب البحر المتوسط، ومن الشرق نهر الأردن، ومن الشمال خط آخذ من الأردن إلى البحر، ومن الجنوب خط يسير من البحر الميت إلى البحر المتوسط، وكان الكنعانيون ينزلون في وسط الشام وجنوبه، عرف منهم عدة أقوام مثل الحثيين والآموريين والجرجاشيين والخوريين والغربيين والعراقيين والسنين والأرواديين والصحاريين والحمائيين، وكانت حدود أرض كنعان الأصلية من حماه شمالاً إلى البادية إلى ساحل البحر المتوسط حتى البحر الميت. وقد عُرف عن الكنعانيين أنهم كانوا يحبون السلم ولا يميلون إلى الحروب، وكانوا يوجهون جل اهتماماتهم إلى التجارة والصناعة والفنون، لذلك سعوا إلى إنشاء الاقتصاد واستغلال مواردهم في الزراعة، وكانوا يبذلون بأيديهم في أول أمرهم، ثم أدخلوا المحراث البابلي، وقد وجدت يقايا من أعمال الزراعة الكنعانية التي يعود تاريخها إلى (١٥٠٠ - ١٣٠٠) ق.م في قرية (سفر القديمة)، واكتشفت آلة حديدية وهي طرف محراث في تل الغول في فلسطين، وتبين عملية دراسة المحاصيل أنها كانت تتم بواسطة زلاجة خشبية في أسفلها حجارة صغيرة تشبه تمامًا (اللوح المستعمل في دراسة المحاصيل في بيادر حوران) ولا زال بعض الفلاحين يستعملونها حتى الآن، ثم تدرى بمذاري خشبية كبيرة ليحصل على حبوب القمح، ويطحن في مطاحن يدوية حجرية، أما الخبز فيخبز في أفران إسطوانية الشكل، تبنى من الطوب، كما أن اكتشاف أدوات أخرى (كالمناجل والمدقات والأجران) هي نفس الأدوات التي كان يستعملها الفلاحين السوريين حتى وقت قريب، وكذلك الأمر بالنسبة

لأدوات الطبخ التي عثر عليها في المواقع القديمة مثل: الجرار والصحون الحجرية والقناديل الخزفية.

أما لباسهم، فهو الأثواب الطويلة المصنوعة من القماش المصبوغ والمزخرف وفوقه شال أبيض له أطراف حمراء أو زرقاء يلف من الخصر إلى الأسفل، ولباسهم بشكل عام كان قريبا من اللباس البدوي المعروف اليوم.

وديانتهم لم تختلف عن ديانات أجدادهم الساميين والأموريين، فهم وثنيون يعبدون الأصنام ولهم آلهة للصيد وأخرى للحرب وللمطر وللصواعق.

واللغة الكنعانية قسمان: (كنعانية شرقية وكنعانية غربية) ولا يختلف القسمان عن بعضهما إلا باللهجة، ولم ينجح الكنعانيون في تأسيس دولة موحدة قوية، بل كانوا ينتظمون في جماعات صغيرة على رأس كل منها ملك، وكل جماعة كانت تتجمع حول مدينة محصنة بأسوار ذات شرفات وأبراج للدفاع، يمكن لسكان الريف أن يلجؤوا إليها عند الخطر، وكانت هذه المدن المحصنة تشكل سوقاً في وقت السلم، غير أن انقسام البلاد إلى ممالك مدن صغيرة، جعلها دائماً بحالة حرب وعدم استقرار، بسبب النزاع بين الملوك والنبلاء، مما جعل الدول المجاورة تطمع بهم وتشن عليهم الحروب طمعاً بما بين أيديهم من الثروات.

٣ - الآراميون:

يمكن اعتبار تسمية (آرام) تسمية جغرافية، والمقصود بها الأراضي المرتفعة في الجبال الشمالية، وأن مصطلح (ارام نهريم) يقصد به الأقسام الشمالية من نهري دجلة بمنطقة ما بين النهرين ومركزها حران جنوب الأناضول^(١).

السريان حسب المصادر العربية هم آراميون أو من الآشوريين العرب، ومن المعروف أن الآراميين والآشوريين إخوة وكلاهما من أبناء سام بن نوح غ، فقد ولد سام، عيلام، وآرام، وأفخشاد، ولاوذ، وأشور^(٢).

(فإذا تتبعنا خط النسب بعد آدم إلى آرام، فاننا نلتقي بواحد من أعظم الآباء وهو سوريان، أحد أحفاد آرام الذي أنجب أعظم السلالات التي حكمت بابل^(٣)).

وبما أن بادية الشام تعتبر امتداداً جغرافياً لشبه الجزيرة العربية التي هي الوطن الأساسي للعرب، وأن الموجات المتعاقبة من العرب خرجت متتابعة من الجزيرة العربية واستقرت في بلاد الشام وبلاد الرافدين، بسبب تزايد الجفاف وتزايد السكان في الجزيرة العربية واستقرت في مناطق الخصب، وكان هذا في النصف الأول من الألف الثانية ق.م، عندما خرجت قبائل الأخلامو والآراميون وغيرهم وأخذوا ينتقلون في أطراف بادية الشام ويغزون بين حين وآخر، أراضي تابعة لمملكة بابل ونيوى، من أجل الاستقرار وممارسة الزراعة والتبادل التجاري والتخلي نهائياً عن حياة التنقل والبدو.

(١) الذاكرة الأولى تاريخ العراق القديم ص ١٣٨ عبد الحكيم الذنون.

(٢) تاريخ سورية القديم - عبد الحكيم الذنون.

(٣) تاريخ سوريا القديم ص ٥٨٠ - احمد داؤد.

وقد خاضوا حروباً عديدة ضد الملوك الآشوريين حتى استطاعوا أن يثبتوا أقدامهم في أماكن مختلفة من بلاد الشام. وأخذوا يستقبلون الأفواج المهاجرة من شبه جزيرة العرب، وتمكنوا من الوصول إلى جوار جرابلس (كرميش)، كما تمكن أحد زعمائهم (حدر أبال أدين) من الاستيلاء على بابل وحكمها في الفترة (١٠٨٣ - ١٠٦٠ ق.م) مما اضطر الآشوريين إلى الاعتراف بهم.

وقد تمكن الآراميون من التغلب تدريجياً على الآموريين، وقاموا بتشكيل مقاطعات إدارية عديدة، تطابق تنظيماتهم القبلية الأولى، ثم تحولت إلى ممالك آرامية، تختلف فيما بينها من حيث القوة والأهمية، وغدت هذه الممالك الآرامية الجديدة كطوق حصار حول الآشوريين الذين أصبحوا محرومين من منفذ لهم.

وهكذا، كان لمجيئ العرب الآراميين إلى بلاد الشام واستقرارهم فيها أثر كبير في قلب الوضع الدولي وقتئذ في هذه المنطقة، ومنها سهل حوران الذي دارت على ثراه رحى حروب لا حصر لها بين هذه الأقوام وغيرها فيما بعد.

وقام الآراميون بالتوسع نحو الجنوب للاستيلاء على أرجاء المنطقة الواقعة ما بين الفرات ودجلة في بلاد الرافدين ونهر البليخ شمال سورية وحتى نهر اليرموك جنوب حوران، وفي البقاع في لبنان.

وقد ظهرت للآراميين ممالك عديدة منها: (آرام نهرين) أي آرام النهرين و(فدان آرام) و(مملكة دمشق الآرامية) يعني آرام دمشق الممتدة من نهر الفرات حتى نهر اليرموك، و(آرام صوبا) في البقاع، و(آرام بيت رحوب) عند نهر الليطاني، و(آرام مقلّة) في حماه، وعاصمتها (أرفاد) الباقية أطلالها في (تل رفعة)، و(بيت بخيالي) ومركزها (تل حلف جوزن) في شمال سورية قرب منطقة رأس العين

وحلب وكرميش (جرابلس) شمال (زنجرلي) في تركيا، و (مملكة بيت عديني) في (برسيا) في العراق، و (مملكة زوحي) بيت عانة على الفرات في العراق - قرب نهر بليخ شمالي سورية.

لم يكن الآراميون على مستوى واحد من الحضارة، بل كان هناك تفاوت فيما بينهم، فمنهم البدو ومنهم الحضر ومنهم أهل المدن، وكان لبعض القبائل والعشائر دور تاريخي هام مثل قبائل الأخلامو، وهي تسمية أطلقت على جماعات بدوية آرامية، في الكتابات القديمة وجدت في شمال جزيرة العرب. ثم أصبح الأخلامو في العهد الأخير مرتبطين كلياً بالآرمنين في صد الغزو الآشوري، ونظراً لشهرة هذه القبائل، صار اسمها كثيراً ما يطلق على كافة الآراميين.

وقد ورد ذكر جماعات أخرى مع (الأخلامو) مثل (الهبيرو) أو (العبيرو) أو (الخبيرو) وهي كلمة أطلقت على القبائل العربية الرحل التي كانت تجوب الجزء الشمالي من الجزيرة العربية، وصارت هذه الكلمة، بعد أن صحفت (عبري) و(عبراني) تطلق على أتباع النبي موسى ﷺ، بعد ظهورهم، باعتبارهم من القبائل الرحل ولكنهم لم يكونوا قد وجدوا بعد عندما كانت هذه الكلمة تستعمل لتعني البدو الرحل أو المهاجرين أو العابرين.^(١)

إن بعض السمات المشتركة في (الخابيرو) و(العابيرو) و(الهابيرو) و(الأخلامو) جعلت بعض الباحثين لا يعرفون كيف يميزون فيما بينهم، بسبب استخدام هذه الكلمات بشكل عشوائي دون أي سعي لفهم حقيقة هذه الظاهرة، ضمن المنظور السياسي والاجتماعي والاقتصادي التي عاشوا فيها وفي تلك الحقبة من الزمن، لأن

(١) العرب اليهود - احمد سوسة.

تسمية الأخلامو هي تسمية مرتبطة أساسًا بالوجود الآرامي في المنطقة. وأن جميع هؤلاء هم من الآراميين البدو والفقراء كانوا يتحركون في منطقة واحدة من شبه الجزيرة العربية^(١).

كان للآراميين عدة ممالك منها:

١ - مملكة رحوب^(٢): قامت في شمال فلسطين الى جنوب مملكة صوبا، قرب نهر الليطاني الأوسط إلى منطقة اليرموك.

٢ - مملكة معكة: قامت في شمال غرب باشان قرب جبل الحرمون (الشيخ) وقيل هي دويلة آرامية تقع شرق نهر الأردن بالقرب من جبل الحرمون، ومركزها معكة.

٣ - مملكة جشور: تقع بين دمشق واليرموك إلى الشرق من مملكة معكة، على حدود هذه الدويلة جسر على نهر الأردن بين طبريا والحولة يعرف بجسر بنات يعقوب في الجولان، وهذا يعني أنها كانت تمتد على كامل هذه الأرض وحدود باشان (حوران)، والممتدة حسب التاريخ القديم من أقدم جبل الشيخ وحتى البادية شرقاً، بما فيها (جبل حوران) في محافظة السويداء، ومن حوضه دمشق شمالاً حتى جبال عجلون جنوباً.

٤ - مملكة كركم: قامت هذه المملكة في المنطقة الواقعة بين مملكة شمال من الشمال وبيت عديني من الجنوب عاصمتها مدينة مركاسي (مرعش)

(١) تاريخ الشام القديم، ص ١٨٠ - عبد الحكيم الذنون

(٢) منشورات وزارة الثقافة. عفيف البهنسي

٥ - مملكة سوحى: في المنطقة الممتدة بين الخابور ومصب البليخ في أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد وقضى عليها الملك (أشور ناصر بال) عام (٨٩٧) ق.م.

٦ - مملكة صوبا: وهي من أقدم الممالك الآرامية، وقد نشأت على سهل البقاع جنوب زحلة وعاصمتها صوبا (عنجر) وكانت دمشق تابعة لها فأصبح اسمها (آرام دمشق) ثم تحول اسمها، في العهد الروماني إلى (خالكيس) (عنجر) وامتدت من دمشق حتى البقاع وإلى البادية شرقاً.

وقد انتهت الدولة الآرامية على يد (سرجون) (شروكين) ملك نينوى بعدما قضى على مملكة حمه عام ٧٢٠ ق.م/ وكان (تجلات بليسر الثالث) قد احتل دمشق عام (٧٣٢) ق.م لكن النفوذ الآرامي استمر عن طريق نشر الدولة الكلدانية عام (٦٢٥) ق.م على يد (نبوليسر) وما زالت المدن السورية تحمل أسماء آرامية حتى الوقت الحاضر، وقد أطلق على اللغة الآرامية اسم اللغة السريانية، نظرًا لأنها كانت لغة الآشوريين، ولم تكن للآراميين دولة واحدة، بل عدة ممالك ولكنهم كانوا متوحدين عندما يداهمهم العدو^{(١)(٢)(٣)}.

في الأعوام (٨٥٨ - ٨٥٧ - ٨٥٦) ق.م قرر ملك نينوى شلمنصر الثالث القضاء على الدولة الآرامية التي كان يحكمها ملك دمشق (برحدد الثاني) كي يتمكن من الاتساع في المناطق الشمالية من سورية. وإزاء ذلك أسرع ملك دمشق فقام بتشكيل حلف يضم اثني عشر ملكًا، وقد تولى رئاسة الحلف، وجهاز جيشًا مؤلفًا من

(١) عفيف البهنسي - منشورات وزارة الثقافة.

(٢) تاريخ بلاد الشام - عبد الحكيم الذنون.

(٣) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين - فيليب حقي.

(١٢٠٠) عربية حربية و(١٢٠٠) من المقاتلين و(٢٠,٠٠٠) مقاتل مشاة، وأسهم بقية الملوك المتحالفين معه في إعداد جيش قوي بلغ عدد أفرادهِ (٦٠,٠٠٠) جندي، واتجه الملوك المتحالفون بجيوشهم نحو الشمال فالتقوا بجيش الملك الآشوري شلمنصر الثالث في موقع يدعى (قرقر) على نهر العاصي جنوبي جسر الشغور، وجرت معركة وصفها (شلمنصر الثالث) بكتابه جاء فيها: إن الغنائم من ملوك ما وراء الفرات أي من سنجارا ملك كركميش وكواندشبي ملك الشمال كانت هذه الغنائم تتألف من فضة وذهب ورصاص ونحاس وأواني نحاسية حصلت في الجانب الثاني من نهر الفرات في مدينة يسميها الحثيون (pitr) غادرت منطقة الفرات واقتربت من حلب، فكانوا خائفين من المعركة، فخرّوا على قدمي فحصلت منهم على غنائم من فضة وذهب وقدمت أضحية إلى حدود حلب ثم غادرت حلب، فاقتربت من مدينتي (بارجا) و(عدينو) مدينتي ملك حماه (أخوليتي) احتليت عاصمة (أرجنا) وحصلت على غنيمة منه وأمواله وأملاكه وقصوره ووضعت النار في قصوره ثم غادرت (أرجنا) واقتربت من (قرقر) عاصمته وخربتها وحرقتها وقضيت على (١٢٠٠) عربية حربية و(١٢٠٠) حصان و(٢٠) ألف جندي من جنود (أدوادوري برجد الثاني) ملك دمشق و(٧٠٠) عربية حربية و(١٠,٠٠٠) جندي من جنود (آخاب) و(٥٠٠) جندي كيليكيا و(١٠,٠٠٠) جندي من مصر، و(١٠ عربات) حربية و(١٠,٠٠٠) جندي من (قيوي) و(قيوني) و(كيليكيا)^(١) و(٢٠٠) جندي من جنود ملك (أرواد) (ماتينوبعل) و(١٠,٠٠٠) جمل.

(١) عبد الحكيم الذنون - تاريخ الشام القديم.

هؤلاء الملوك الإثني عشر ساعدوه لخوض المعركة وقاموا ضدي، فقتلت ١٤,٠٠٠ من الجنود بسلاحهم وأمطرت عليهم العاصفة كالرب حدد، وبعثرت جيشهم وملأت السهل بفرقهم القوية وبالسلاح جعلت دماءهم تسيل.....).

وبعد وفاة (برحدد الثاني) اعتلى (حزائيل) عرش المملكة الآرامية في دمشق، وقد حدثت في عهده معركة أخرى مع الآشوريين حين جهز الملك الآشوري (شلمنصر الثالث) حملة حربية في عام ٨٤١ ق.م أعدها ووضعها قائلاً: «وفي السنة الثانية عشر من حكمي، اجتزت الفرات للمرة السادسة فجهز حزائيل جيشه وأعده، فكان جبل ظهير بمثابة حصن له، حاربته فهزمته، وقتلت ستة آلاف من جنوده المسلحين، واستوليت على (١١٢١) عربة حربية، وأربعة وسبعين حصاناً، ومعسكره في آن واحد، فهرب للنجاة بنفسه فلحقت به وحاصرت في عاصمته دمشق وخربت الكروم وسرت حتى جبال حوران وخربت وحرقت مدنه التي لا تعد، وحصلت على غنائم كثيرة وسرت إلى جبل باليراسي، فوضعت في هذا المكان صوري الملكية، وتلقيت الغنائم من الصوريين والصيداويين وجيهو.....».

وقد أضحت اللغة الآرامية لغة الناس في بلاد الشام لا تنافسها سوى شقيقتها اللغة العربية التي أفادت الآراميين واستفادت منها.

وقد اتخذت اللغة الآرامية في العهود الهلنستية والرومانية والبيزنطية موقف المدافع عن قومية البلاد اتجاه التيار الثقافي اليوناني واللاتيني عصرئذ، فبرهن أولئك المواطنون باهتماماتهم بلغتهم الآرامية القومية وعلى حسهم الحضاري ووعيهم القومي.^(١)

(١) دمشق في عهود قدماء العرب الآراميين: بشير زهدي، ص ١٤٠.

«وقد دعاها بعض العلماء الأقدمين باسم (اللغة النهرية) نسبة إلى نهر دجلة والفرات لازدهار الآرامية على ضفاف هذين النهرين العظيمين، وإن لهجة الآراميين في منطقة نينوى وبابل وسومر والخليج هي السريانية القديمة»^(١)

وقد اختفت اللغة العبرية من الوجود وحلت محلها اللغة الآرامية، وذلك في عهد المكابين عام ١٩٥ - ١٦٤ ق.م، وبقي اليهود يتكلمونها حتى القرن الرابع الميلادي، وهذا يثبت أن الآرامية كانت لغة السيد المسيح.^(٢)

العبرانيون والعهد القديم:

تمكن العبرانيون الذين قدموا إلى جنوب بلاد الشام خلال مرحلة زمنية من إنشاء دويلتين لهم على هذه الأرض، وقد كشفت النصوص والمكتشفات التي خلفها أجدادنا قبل العهد القديم بزمان بعيد وهم السومريون والآكاديون والفينيقيون والآشوريون والحثيون والمصريون والأموريون مسائل كثيرة غامضة فأوضحت ما يلي:

- ١ - تشخيص أكثر المواقع التي ورد ذكرها في هذه المدونات من كتاب التوراة.
- ٢ - تعيين تاريخ الحوادث بشكل دقيق وفق التسلسل الزمني وإيضاح هذه العلاقة بين الأقوام وتبيان أدوارها، وخاصة هجرة الأقوام وتطور ثقافتها ولغاتها.
- ٣ - تعيين زمن الحوادث التاريخية الوارد ذكرها في العهد القديم قياساً إلى الوقائع الحربية والسلالات الحاكمة في كل حقبة من الحقب التاريخية وفق التسلسل الزمني.

(١) الآرامية المحكية - دار الأبجدية للنشر - دمشق عام ١٩٩٢، ص ٨: حنا فرنسيس.

(٢) كتاب الآراميين - د. علي أبو عساف، ص ٨٧ - ص ٨٩ كبير الآثاريين.

٤ - توصل الباحثون إلى أن كثيرًا مما ورد في التوراة، من قصص وأساطير وشرائع، يرجع إلى أصل قديم جدًا، ووجد مثيله أو ما يشابهه في المدونات السومرية والآكادية والكنعانية والآشورية والمصرية والبابلية.

٥ - توصل الباحثون إلى أن مواد عديدة في التوراة مأخوذة من تشريع حمورابي والشرائع القديمة الأخرى التي سبقت التوراة بزمان بعيد، وأن كثيرًا من التراتيل والتساويح الدينية الواردة في التورات مقتبسة من الكنعانيين. وقد عثر عليها في مدينة (أوغاريت) السورية القديمة وفي (إيبلا).

٦ - توصل الباحثون أيضًا إلى أن شرائع التوراة هي نفسها الشرائع التي كان يمارسها الكنعانيون والبابليون والمصريون من قبل، وقد اقتبس اليهود ذلك ومارسوها ثم أدخلوها في كتبهم الدينية.

٧ - ثبوت كون اليهود غرباء عن فلسطين وأن كل ما يملكون من المقومات الثقافية، ومنها اللغة العبرانية والتوراة، مقتبسة من الحضارتين الكنعانية والآرامية^(١) وهما من أصل عربي، حتى أن التوراة سميت بالتوراة الآرامية، لأنها كتبت باللغة الآرامية في بابل وإن الأسماء الواردة في التوراة، سواء كانت أسماء أشخاص أو أسماء مدن قديمة في فلسطين، هي من أصل كنعاني، ترجع إلى ما قبل ظهور اللغة العبرية بفترة طويلة.

٨ - ثبت أن اليهود عاشوا في فلسطين، وهم أقلية بين الفلسطينيين وأنهم لم ينشئوا دولة مدنية زمنية تضم كل فلسطين، وقد اقنصر حكمهم في دويلتين من

(١) اللغة السريانية هي لهجة من اللهجات الآرامية، وهي اللهجة التي كانت سائدة في زمن السيد المسيح، ولا زالت منتشرة في القلمون مثل (معلولا وجبعدين).

دويلات المدن هما السامرة والقدس، وذلك لعدم وجود دولة مركزية تضم بلاد الشام، ومنها فلسطين، في تلك الفترة، وكان النظام السائد في سورية القديمة هو نظام دويلات المدن، ويجب الفصل والتمييز بين التوراة التي هي كتاب إلهي أنزل على النبي موسى ﷺ في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وبين التوراة الآرامية التي دوت من قبل كهنة اليهود في مرحلة التحرير البابلي لفلسطين عام (٥٨٦) ق.م، والتي كتبت باللغة الآرامية بعد ثمانمائة عام من عصر النبي موسى، وبعد ألف وخمسمائة سنة من عصر إبراهيم الخليل ﷺ.

٩ - لا بد من تحديد أربع تسميات ^(١) (عبري) (إسرائيل) (قوم موسى) (اليهود) حيث كانت تطلق تسمية (عبري) في نحو الألف الثانية قبل الميلاد، وفيما قبل ذلك على طائفة من القبائل في شمال الجزيرة العربية وفي بادية الشام، وعلى غيرهم من الأقوام السامية في المنطقة حتى أصبحت كلمة (عبري) مرادفة (لابن الصحراء) أو (ابن البادية) ولم يكن لبني إسرائيل أو أتباع موسى أي وجود بعد.

وتسمية (إسرائيل) مصطلح في التاريخ القديم يقصد به «يعقوب النبي ﷺ» حفيد إبراهيم الخليل نفسه ﷺ.

وبهذا الصدد نذكر أن كلمة (إسرائيل) كانت اسماً لموضع في فلسطين وهي تسمية كنعانية، وبهذا المعنى وردت في الكتابات المصرية التي ترجع إلى ما قبل عصر موسى، أما بالنسبة لأرض كنعان فلسطين، فقد كانت أرض غربة لإبراهيم وولده إسحاق (يصحاق) وحفيده يعقوب (إسرائيل) وذلك بتأكيد التوراة نفسها.

(١) كتاب تاريخ الشام القديم

وحول تسمية (قوم موسى) فقد تم تداولها بعد الدور الذي تم فيه تداول تسمية (إسرائيل) بزهاء ستمائة عام، وقد خرجوا من مصر في زمن فرعون (رئيس الثاني (١٢٩٩/ ١٢٣٢) ق.م، وبعد خروجهم من مصر ظلوا في طور سيناء أربعين سنة، وكان قوم موسى يدينون ديانة التوحيد، ثم أخذوا من بعده بالديانة الوثنية عن الكنعانيين الذين جاوروههم، كما أخذوا بالثقافة والتقاليد الكنعانية، وتمكن أتباع موسى قبل دخولهم فلسطين في التاريخ القديم، من الإغارة على بعض الأماكن القريبة من فلسطين، حيث غزوا دويلة إمارة آمورية، وقد ورد ذكرها باسم مملكة (سيحون) كما استولوا في فلسطين على بعض المدن الكنعانية المسورة مثل (تل دوير) أو (لخيش) أو (عاد) أو (أريحا) ثم تغلغلوا شمالاً في الجليل.

أما تسمية (يهود) فقد أطلقت على جماعة (يهوه) الذين هاجمهم الملك البابلي (نبوخذنصر الثاني) وأخذهم أسرى إلى بابل عام (٥٨٦ ق.م) وقد سموا كذلك نسبة إلى دويلة (يهوذا) المنقرضة، واقتبسوا لهجتهم العبرية من الآرامية، وبها دونوا التوراة.

لقد حصل اليهود في بابل على حريات كثيرة، وأعطاهم البابليون المنشغلون في الحروب مناصب مدنية. وبعد سقوط المملكة البابلية الكلدانية - العهد البابلي الحديث - الذي يعتبر آخر العهود الوطنية في العراق القديم، قام الفرس بغزو بابل، وأعادوا قسمًا من اليهود المبعدين إلى فلسطين ثم توالى الغزوات على فلسطين حتى احتلها الإغريق، في عهد إسكندر المقدوني عام (٣٣٢ ق.م).

وهكذا نرى أنه ليس لليهود أي حق في بلاد الشام أو بلاد الرافدين، وأن ادعاءاتهم بأنها أرض أجدادهم هي محض افتراء وتزييف للتاريخ ومخالفة لما جاء في كتبهم.

أخذ العبرانيون بالهجرة إلى الجنوب الغربي من سورية القديمة بشكل مرتزقة وتجار وجنود حوالي (١٢٥٠) ق. م وكان دخولهم أول الأمر بصورة تدريجية، وكانوا يتألفون من عناصر حورية وحثية وسامية، وما لبثوا أن طمعوا في الاستيلاء على أرض اللبن والعسل، وطرد سكانها الأصليين، من أجل ذلك تزوجوا من الكنعانيين واحتفظوا بقرويتهم وألفوا لغتهم، بعدما تعلموها من السكان الأصليين، وعندما شعروا بقوتهم هاجموا حوران وحاربوا الملك عوج في درعا واحتلوا بعض المدن، ثم تطلعوا لاحتلال الأراضي الشمالية.

غير أن قيام المملكة الآرامية في دمشق وقف سداً منيعاً في وجههم، وفدت قبائل الآراميين من شمال شبه الجزيرة العربية فظهرت دولتهم في الفرات الأوسط حيث أسسوا مملكة دمشق أواخر القرن الحادي عشر قبل الميلاد ووصلت دولتهم إلى ضفاف اليرموك ودخلت باشان (حوران) تحت سلطتها الأكيدة حوالي (١٠٠٠) ق.م.

كان الآراميون خلال قرنين من الزمان ألد أعداء العبرانيين، وأخذ ابن حدد الأول ملك دمشق حوالي (٨٧٩ - ٨٤٣) ق.م بمهاجمة العبرانيين وحرر أراضي حوران، وبقيت الحروب مستمرة قرابة قرنين، كانت حوران خلالها ميداناً لهذه الحروب، ولما ظهر الخطر الآشوري من الشرق حاول الإسرائيليون الانضمام للآشوريين للتخلص من ضغط الآراميين، إلا أن حزائيل وريث ابن حدد ظهر

كأعظم محارب في التاريخ الآرامي، وقام بصدد هجومين آشوريين قام بهما شلمنصر عام (٨٤٢ - ٨٣٨) ق.م ثم انصرف لمعاقبة اليهود فطردهم من حوران ولم يرفع السيف عنهم حتى قدموا له جميع ما يملكون من كنوز وذهب كانوا قد جمعوها في المعبد، وتعهدوا له بالطاعة وألا يتجاوز عددهم وعدد قواعدهم العسكرية خمسين فارساً.

٤- الآشوريون:

بعد (شلمنصر الثالث)، جاء (أددنيراري الثالث) الذي اهتم بقيادة الحملات الآشورية الحربية ضد الدول الآرامية المتحالفة حيث يقول:

«من ضفاف نهر الفرات، أخضعت بلاد خطي. سورية الشمالية وعمورة كلها - سورية الوسطى - وصور، وصيدا، وبلاد عمري، وأدوم، وفلسطين حتى البحر، وسرت ضد دمشق وحاصرت (مرئي برحدد الثالث) في عاصمته دمشق فقتله خوفاً من غضب سيدي آشور فخر عند قدمي وحصلت على (٢٣٠٠) تالنت فضة و(٢٠) تالنت ذهب و(٢٠٠) تالنت نحاس و(٥٠٠٠) تالنت من الحديد واقمشة دمشقية مزركشة واقمشة كتانية وسرر عاجية ومقاعد عاجية مزينة بالذهب ومطعمة بالأحجار الكريمة وخزنته وأمواله بكميات كبيرة في عاصمته وسط قصره».

وفي سنة (٧٤٥) ق.م، في عهد الامبراطور الآشوري (أددنيراري الرابع) اندلعت ثورة داخلية في بلاد نينوى، فقلبت نظام الحكم وتسلم (تجلات بليسر الثالث) (٧٤٥ - ٧٢٧) ق.م مقاليد الحكم الآشوري. وفي عهده اعتلى عرش مملكة دمشق الآرامية (رصين) وقد تمكن (تجلات بليسر الثالث) الآشوري من السيطرة على مملكة أرباض وجعلها مقاطعة آشورية، ثم استولى على ستة عشر مقاطعة من

مقاطعات مملكة دمشق و(٥٧١) مدينة من مدنها وأطرافها، بما فيها مدن حوران مما اضطر ملك دمشق (رصين) إلى الانسحاب إلى العاصمة دمشق، لكن الملك الآشوري حاصره ثم استولى على مقره الملكي في (عدرا) قرب دمشق، وفي عام (٧٣٢) ق.م سقطت دمشق في أيدي القوات الآشورية ودخل الملك الآشوري (تجلات بليسر الثالث) دمشق دخول الفاتحين وقتل ملكها (رصين) وقضى على حكم الامبراطورية الآرامية الكبيرة التي تضم بلاد الشام ومصر وبلاد الرافدين.^(١)

٥- الأيطوريون:

وإلإيطوريون Iturians من الأقوام العربية التي دخلت إلى حوران الأيطوريون، ومعنى الأيطوريون بالعبرية (الجبليين) وهم شعب عربي جاء من إيتورة أي الجيدور شمالي حوران، واشتهروا برمي الشباب فاستولوا بمضائهم الحربي على المنطقة الواقعة ما بين البقاع في لبنان وشمال حوران بما فيها جبل الشيخ، ومنطقة المرتفعات الواقعة إلى الجنوب حول الحوض الأعلى لنهر الأردن، ومناطق الجليل في شمالي فلسطين.

وتنسبهم المصادر القديمة إلى يطور بن إسماعيل بن إبراهيم. وتصفهم بأنهم شعب صعب المراس يعتمد على الغزو والإغارة لتوفير عيشه، وقد ورد ذكرهم في حصار الإسكندر المقدوني لمدينة صور، إذ هاجموا مؤخرة جيوشه، وكانوا رماة مهرة فاضطروه إلى إرسال حملة لتأديبهم، بعد ذلك انقطع ذكرهم من المصادر التاريخية حتى عام (١١٥) ق.م، حين حصل زعيمهم على اعتراف السلوقيين بسلطته ،

(١) تاريخ الشام القديم - عبد الحكيم الذنون.

مستغلا الصراع الذي نشب في ذلكالوقت أنطيو خوس الثامن وأنطيو خوس التاسع، وأدى إلى حرب أهلية حملة.

كانت هجرة العرب الآراميين إلى سورية قديمة قدم التاريخ، ثم تعاقبت الهجرات العربية إليها وضمنت لهم رسوخ أقدامهم في ظل السلام، فقد كانت مدينة حمص في يد حكومة عربية قبل وصول القائد (بونيبوس) إلى سورية وأن الأقبال الذين تولوا أمر تلك الديار أطلق عليهم ألقاب عربية صرفة كما يفهم من آثار الصفا، ولما جاء الإسكندر إلى الشام كان العرب هم سكان لبنان^(١) (١١٦ و٩٦) ق.م، أما أشهر حكامهم فهو منايوس الذي يُعتقد أنه كان أول من اعترف به السلوقيون، وفي هذه المرحلة توسعت مناطق سيطرة الإيطوريين كثيراً نتيجة الحروب التي خاضوها، فوصلت هذه السيطرة إلى مناطق يبرود شرقاً وهوران والجولان في الجنوب الشرقي، مما وضع مدينة دمشق بين فكي كماشة وعرض تجارتها لتهديد شديد وكاد الإيطوريون أن يستولوا عليها، لولا أن وضع الدمشقيون أنفسهم تحت حماية الأنباط، وحين دخل الرومان سورية كانت سورية الجنوبية مقسمة بين الأنباط والإيطوريين، وكانت بينهم صدامات ونزاعات من أجل السيطرة والسيادة، وانتهت بخسارة الإيطوريين بعض ممتلكاتهم في الجولان، وقد حاول المكابيون فرض اليهودية عليهم إلا أنهم امتنعوا عن ذلك وفضلوا الاكتفاء بمناطقهم السابقة، ويرى بعض المؤرخين القدماء أنه حين أعاد (بومبيوس) تنظيم هذه المنطقة إدارياً، وعامل الإيطوريين معاملة خاصة، حتى إنه أعاد إليهم بعض الممتلكات في الجولان التي كان قد استولى عليها ملك المكابيين ألكسندر

(١) كتاب خطط الشام نقلاً عن (دوسو).

يناوس، لكنه انتزع منهم مدينة واحدة هي قناتا (القنوات) إلا أن أمور الإيطوريين بدأت بالتراجع بعد وفاة بطلميوس، إذ استولى هيرودس الكبير على جزء من أملاكهم. وبعد وفاة زنودورس آخر ملوكهم، ضمّ هيرودس ما تبقى من أملاكهم إلى أملاكه، ماعدا بعض الأراضي التي ضُمت إلى مدن بيروت وصيدا وصور ودمشق.

اتخذ الحكام الإيطوريون لقب الكاهن الأعلى، والحاكم وهو لقب مزدوج ديني ومدني في آن واحد، وكانت لهم عاصمتان واحدة دينية هي بعلبك التي اشتهرت بمعبد الشمس، وعُرفت هذه المدينة في المصادر الإغريقية باسم هليوبوليس، أما العاصمة الأخرى فكانت تلك التي عرفها المؤرخ بوليبيوس باسم (جرا) والتي عرفها المؤرخون العرب باسم عين الجر، وتُعرف اليوم باسم (عنجر) وبحسب ما ذكر اسطفانس البيزنطي فإن مؤسس هذه المدينة هو مونيكس العربي، وربما كان المقصود ميناوس المشار إليه آنفاً، وأطلق عليها اسم خلقيس. وأما أهم مراكز الإيطوريين على ساحل المتوسط، فكانت (عركة) قرب طرابلس التي استمرت إمارة إيطورية حتى بعد أن فقد هؤلاء معظم أملاكهم الداخلية. كما خضعت جيغارته (زغرتا) لهم إضافة إلى مناطق أخرى.

ذكر (مومسن) في كلامه على الاضطرابات والمنافسات بين الرؤساء في الشام المدن الكبرى مثل إنطاكية والسويدية ودمشق هي التي كان ينالها الأذى من جراء ذلك، فيصاب الزراع بزراعتهم، والتجار بتجارهم البرية والبحرية، ولا يستطيع سكان جبيل وبيروت حماية حقولهم وسفنهم من هجمات الإيطوريين، وكانوا قد استولوا على اللبنانيين الشرقي والغربي، ونزلوا فينيقية وجعلوا (عنجر)

عاصمتهم الأولى، ثم اتخذوا طرابلس عاصمتهم الثانية، ثم أخذوا بالتعدي على البر والبحر من حصونهم العالية، ويحاول سكان دمشق أن يدفعوا عن أنفسهم عادية الإيطوريين والبطالسة، وذلك بخضوعهم للملوك القاصية مثل النبطيين، وتدخل (سامسيكراموس وازيوس) في إنطاكية في الخلافات المدنية بين الوطنيين فأصبحت هذه المدينة اليونانية عاصمة أمير عربي.

٦- الأنباط:

قبل الحديث عن الأنباط، لا بد لنا من التقديم التالي:

إن الاكتشافات الأثرية، خاصة اللوحات التي عثر عليها من تل العمارنة في القطر المصري خلال (١٨٨٨) ق.م، وهي رسائل متبادلة بين سكان حوران وسكان القطر المصري في زمن أمنحوتب الثالث وأمنحوتب الرابع، وتذكر في جملة ما تذكر عن أحوال القطر السوري وأسماء كثير من مدن حوران، كما تدل على وحدة القطرين في نهاية حكم أمنحوتب عام (١٦٤٢ - ١٦٢٣) ق.م، ومن المحقق أن حوران لم تعرف سكاناً مستقرين إلا العرب منذ أقدم التاريخ الذين أول من ذكر منهم عوج ملك بثنية (حوران) الذي جعل من مدينة درعا (أدرعي) عاصمة لبلاده، وكان يطلق على هؤلاء السكان إسم العمالقة وهم في الواقع قسم من الشعب يقطنون بلاد ما بين النهرين والشمال السوري باسم الأموريون الذين تظهر أول إشارة اليهم في عصر سرجون (٢٢٥٠) ق.م، ولم يقتصر على تأسيس دولة منطقة الفرات الأوسط بل وحدوا معها الدويلات الصغيرة التي كانت قائمة في بلاد الشام والتي هي سورية الحالية ولبنان وفلسطين وشرقي الأردن.

في عام (٣٣٣) ق.م زحف الإسكندر المكدوني على الشرق العربي واحتل بلاد الشام، وبعد وفاته دخلت حوران ضمن الجزء الذي حكمه بطليموس.

وفي عام (٣١١) ق،م أصبحت حوران في القسم الذي احتله انتيغوفس الذي حارب السلوقيين وأرسل جحافلته المؤلفة من أربعة آلاف جندي وستماية فارس بقيادة اثينوس لاحتلال الجنوب، وعند وصوله إلى البتراء تراجع نحو الصحراء، غير أنهم سرعان ما انقضّ الأنباط على حملة (أثينوس) فأبادوهم ولم يسلم منهم سوى خمسين فارسًا تمكنوا من الفرار فكان انتصارًا حاسمًا أجاد الأنباط تحضيره وإعداد أسبابه.

في هذه الأثناء أصبحت حوران على تماس وثيق مع المؤسسات الثقافية اليونانية، وقد تأثر السكان إلى حد ما بالآداب والفنون اليونانية، ولكنهم أعطوا لليونان قسطًا وافرًا من تقاليدهم وحضارتهم المتطورة.

وفي منتصف القرن الثاني ق.م تحولت طرق الأنباط التجارية نحو حوران، فأصبحت مركزًا من مراكزهم التجارية التي امتدت إلى أواسط آسيا وشواطئ أوروبا، وكانت هذه البضائع تتضاعف بالمنتجات المحلية، ويعتقد أن زراعة الفاصولياء والعدس والقرع والخردل وغيرها من مزروعات القطر المصري قد أدخلت إلى حوران في هذا الحين، كما أن زراعة الشعير والقمح والعنب والزيتون وصناعة الزجاج والأواني والأسلحة والزيت والخمر تطورت وتوسعت إلى حد كبير، وكان القطر المصري يستورد حاجته من أخشاب أحراش البلوط الحوراني، وفي مدينة يوتيولي الإيطالية عثر علماء الآثار على مذبح أقامه أحد التجار الأنباط لعبادة الآله (ذو الثرى).

يرجع نسب الأنباط إلى إسماعيل جد العرب، وكانوا يستوطنون الجنوب الشرقي للجزيرة العربية قبل وصولهم إلى الرقيم (البتراء)، ولكن انتظام دولتهم لم يتوطد حتى أوائل القرن الثاني ق.م عندما برزوا كقوة لها شأنها في سياسة الشرق الأدنى.

أول ملك عرف من ملوك الأنباط الحارث (١٦٩ ق.م) وأطلق عليه لقب ملك العرب.

ذكر هيرودوت الأنباط، وسمى بعض معبوداتهم ومنها الإله أوراتول، وقد ذكر ديودور الصقلي عادات الأنباط فقال: كلها أخطاء وأساطير. أما نتيجة الرحلة التي قام بها دوفوغية ووادنغثون إلى سورية عام (١٨٦١-١٨٦٢) م فقد جاء فيها البحث عن الأنباط بصورة واسعة وأمكن قراءة كتاباتهم وفهمها، وكذلك أبحاث (نولدكه) أعطت معلومات واسعة عن تاريخ دولة الأنباط وذلك في عام (١٨٦٥ م)، وأزاحت دراسات ليمان شيئا من الغموض الذي كان يحول دون معرفة حضارة الأنباط على حقيقتها، مما سهل فيما بعد لجهود دوسو وغيره من العلماء في الكشف عن بعض المجهول من تاريخ دولة الأنباط التي كانت بصرى مدينة من مدنها الزاهرة ثم أصبحت فيما بعد عاصمتهم بعد البتراء.

وتدلنا البقايا الأثرية التي اكتشفت في منطقة بصرى على أن حوران قد حافظت على الكثير من مميزات الحضارة النبطية وعناصرها الفنية، ويحدثنا التاريخ عن الصراع المستمر بين الأنباط واليهود المكابيين الذين استمروا في عدوانهم على سكان البلاد الأصليين، وبسبب الخلافات بين حكام مدن حوران فيما بينهم أدى ذلك إلى تحريك أطماع الأعداء العبرانيين الذين اغتتموا الفرصة وهاجموا بصرى

ومدن باشان (حوران) واحتلوها ودمروا تحصيناتها ونهبوا خيراتها (وعندما خنع الأمراء للاحتلال العبراني، أخذوا بمهادنة العدو المحتل، لكن فلاحًا من أبناء القرى الحورانية يدعى عباد، ثار ضد المعتدين وألب أبناء الشعب ونظم صفوفهم وجندهم لطرد العدو وضرب قواه أينما وجدوها، وسرعان ما انتظموا في جيش واحد تركز على شواطئ اليرموك، حيث نشبت معركة هزم فيها العبرانيون شر هزيمة، وتحررت المنطقة من بقاياهم.

وفي زمن الحارث الثاني، هاجم إسكندرجانوس المكابي مدينة غزة عام (٦٦ ق.م) وحاصرها وألحق بالغزاة خسائر فادحة ورددهم عنها.

وفي زمن عبدة الأول الذي خلف الحارث الثاني، جدد جانوس المكابي عدوانه، وكانت المعركة في هذه المرة على الشاطئ الشرقي لبحر الجليل، فأحرز الأنباط نصرًا هامًا أدى إلى تحرير منطقة حوران والجليل.

وتابع ربال الأول الحرب ضد السلوقيين واليهود المكابيين، وفي أيام ربال الأول وقعت معركة (أمتان) الشهيرة حيث تغلب الأنباط على جيوش السلوقيين التي حشدتها (أنطيوخوس) الثالث عشر وتولى قيادتها، فكانت أبشع الهزائم التي عرفها السلوقيون بعدما شنت العرب الأنباط شمل جيوشهم وقتلوا ملكهم في ساحة المعركة، ويعود الفضل في هذا النصر العظيم إلى التنظيم العسكري الذي برع فيه الأنباط، فجعل المثل يضرب بشجاعتهم وصبرهم على القتال ووصفوا بأنهم أبرع من رمى بالنبل في ذلك العصر، ومنذ ذلك الوقت دخلت هبة الأنباط في نفوس الغزاة، وأصبحت قوافلهم تحمل البضائع المختلفة إلى سائر أنحاء المعمورة آمنة مطمئنة، وسيطروا على التجارة بين الشرق والغرب، وأقاموا كثيرًا من الحصون

والأبراج التي لا تزال بقاياها حتى الآن، ولتأمين قوافلهم اهتموا باستخراج المياه الجوفية وجمع الماء وزراعة أجزاء كثيرة من الأرض الصحراوية، فبرعوا في ذلك، وحولوا هذه الأجزاء إلى واحات مزهوة تترتاح وتتمون فيها القوافل.

وكانت بصرى تشكل حلقة داخلية هامة في سلسلة هذه المواقع، وقد عثر في أقاصي العالم القديم، على وثائق تدل على ما بلغت العرب الأنباط من همة وقوة، وتدلنا هذه الوثائق على أنهم وصلوا إلى الصين وتبادلوا معها المشاريع التجارية. وكان لهم مراكز ثابتة في المرافئ اليونانية والإيطالية والغالية، وتشهد الكتابات النبطية التي عثر عليها في عصرنا الحاضر بذلك.

وفي أيام الحارث الثالث (٧٨ - ٦٢) ق.م تجدد العدوان الأجنبي، وكان على الحارث أن يحارب السلوقيين والبطالسة واليهود من جهة، ويدفع خطر الرومان الذي أخذ يهدد البلاد لأول مرة من جهة ثانية، ويعتبر هذا الملك أقوى منظم وقائد عرف بين ملوك الأنباط، فبعد أن هزم مراراً جيوش اليهود وحاصر القدس، اتجه إلى دمشق فطرد بطليموس السلوقي منها ثم تابع الحملة إلى سهل البقاع وحرره بعد احتلاله لمدينة خالكيس (عنجر) وشملت دولة الأنباط جميع هذه المناطق وأصبحت دمشق مركزاً للحارث الثالث الذي أصبح محرر البلاد وباعثاً لنهضتها.

كان الحارث الثالث يطرد المحتلين ويحاربهم بعنف وضراوة، في الوقت نفسه أخذ ما لدى الأعداء من حضارة وتطور وتنظيم فلعب (بغليهلين) أي (محب الهليلينية) واقتبس كثيراً من النماذج المعمارية والفنية والإدارية والتقاليد التي توافقت البيئة، وطبع التقاليد بطابع خاص مميز وصك النقود وشجع الصناعة، ومن المرجح أن يكون بناء القصر النبطي في بصرى قد تم بعهده.

وفي هذه الأثناء زادت مطامع القائد الروماني (بومين) لاحتلال هذا الجزء من البلاد، غير أنه صُدَّ عنها في أيام الحارث الثالث، ثم أصبحت العلاقات بين الأنباط والرومان تأخذ طابع التحالف عام (٤٧) ق.م عندما أمد مالك الأول، ملك الأنباط، يوليوس قيصر بجنود في حربه ضد أنطون أوكتاف أيام كيلوباترة بفريق من الفرسان.

وفي زمن الملك مالك الأول ظهرت على النقود النبطية صورة امرأة إلى جانب صورة الملك، ولكنهم لم يذكروا اسمها فوق النقد.

وفي زمن هذا الملك أيضًا، وقعت حملة اليوس غالوس القائد الروماني على الجزيرة العربية التي ذكرها سترابون الرحالة اليوناني فقال: «بعث أغسطس قيصر عام (١٨) ق.م بحملة لفتح الجزيرة العربية بقيادة اليوس غالوس واستنصر العرب الأقباط في نصرته على يد الوزير سيلوقس، ولكن هذا الوزير قاد الجيش الروماني في طريق وعرة قضوا فيها أيامًا يقاسون العذاب الشديد حتى بلغوا مدينة الرامانيين فحاصروها ستة أيام حتى دفعهم العطش إلى النكوص عنها».

وينسب ترابون هذا الفشل إلى مكيدة الوزير النبطي، وإذا علمنا مدى الصداقة التي كانت تربط الرحال اليوناني سترابون بالقائد الروماني ليوس غالوس جاز لنا أن نشك في صحة الرواية.

وخلف الحارث الثالث مالك الأول عام (٩) ق.م إلى (٤٠ ميلادي) وفي أيامه استمرت الحروب بين الأنباط واليهود، وعندما تزوج هيرودوس انتباس ابنة الحارث ثم طلقها ليتزوج راقصة كانت المحرصة على قتل يوحنا المعمدان حسب الروايات، (ولأدري صحة هذه الرواية)، نشبت الحرب، وكان الظفر للعرب

الأنباط فاستنجد هيرودوس بالامبراطور طيباريوس الذي بعث إلى جيوشه العسكرية في شمال سورية لتتوجه إلى دمشق وحوران وتقضي على الأنباط، وأن يرسل إليه برأس الحارث.

وبينما كانت الجيوش بقيادة فيتالس، جاءها الخبر بموت الامبراطور طيباريوس عام (٣٧ م) فعادت إلى قواعدها في إنطاكية غانمة سالمة تاركة حليفها تحت رحمة الأنباط.

وتظهر على النقود التي سكّت في أيام هذا الملك صورة الملك والملكة مزدوجة، ففي بادئ الأمر ظهرت صورة زوجته خالدة، وبعدها صورة زوجته الثانية شقيقة، واستمرت هذه العادة حتى أيام الغزو الروماني وأصبحت بصرى عاصمة للأنباط قبل عام (١٠٦) ق.م.

وفي أيام رثبال الثاني عام (٧١ - ١٠٥) بعد الميلاد حملت النقود المصكوكة في عهده صورته مع زوجته جميلة، ونعرف من الكتابات القديمة أنه لقب ب (الملك الذي أحيا وخلص شعبه) ونعرف أيضًا أن أمه تولت الوصاية على عرشه مدة من الزمن.

ولا شك أن بصرى تطورت تطورًا كبيرًا في عهد الأنباط، وأخذت تتأثر بالحضارة الهلنستية منذ أيام رثبال الأول الذي هزم السلوقيين في معركة أمتان، وازداد هذا التطور في عهد الحارث الثالث الذي حرر دمشق والبقاع فأصبحت بصرى أكبر قاعدة هامة للقوافل التجارية بين دمشق والبتراء. ومن المرجح أن بناء أسوار المدينة وبعض القصور النبطية وأحواض الماء تم في ذلك العهد وهي نماذج لفن البناء تدل على براعة وابتكار وحضارة متقدمة، ويظهر ذلك من طراز الغرف

ذات العقود ونحت الأحجار والألواح النافرة، الأمر الذي دعا إلى أن تنتقل هذه النماذج منهم إلى المدن العربية الواقعة في أطراف الصحراء.

قدم الأنباط إلى البتراء وحوران من شمال أو وسط شبه الجزيرة العربية - وهم عرب آراميون - وهناك أدلة قاطعة تؤكد عروبته، فأسماؤهم عربية وألغيتهم هي اللات والعزى ومناة وأكثر المؤرخين القدامى كانوا يطلقون على النبط كلمة العرب، ولغتهم عربية^(١)، والبتراء كانت عاصمة لهم في القرن الثاني الميلادي، حيث ضمت إلى الرومان في عهد (تراجان عام ١٠٦ م). وقد أكدت الكشف الأثرية في البتراء وحوران ذلك.

ومن المؤكد أن الأنباط كانوا قد قدموا إلى البتراء حوالي (٥٠٠ ق.م) وسيطروا على المنطقة وقد دامت دولتهم أكثر من خمسة قرون، كانوا فيها بدوًا رحل، في بداية تواجدهم فيها ثم بدؤوا بالاستقرار والتحضر وتلازموا مع الحياة واقاموا دولة منظمة بنظام ملكي كما أسلفنا، وضربوا النقود واستوزروا الوزراء وقد اتسعت دولتهم فشملت البلاد الواقعة بين دمشق ومدائن صالح شمال الحجاز، بما في ذلك سواحل البحر الأحمر وسيناء وحوران والأردن، ويعتبر الأنباط من أقدم الشعوب العربية التي استقرت في جنوب فلسطين.

ويرى العديد من المؤرخين، ومنهم الدكتور جواد علي، أن الأنباط هم عرب أقحاح وهم أقرب إلى قريش من العرب الجنوبيين.^(٢)

(١) تاريخ بلاد الشام القديم. نقلا عن كتاب تتاريخ العرب القديم - وكتاب هنري - س - عبودي.

(٢) قال بعض المؤرخين ان الانباط هم من جبل شمر. نزحوا منه الى العراق وقال بعضهم ان الانباط

هم من شواطئ الخليج العربي.

«النبط وملوكهم يرجعون الى النبط بن هاشم، ومنهم كل العرب البائدة»^(١).
«نحن معاشر قريش من النبط من اهل كوثاريا»^(٢).

«إن مباحث اللغة إنما تقدم لنا البيئة الكبرى عن قرابة النبطيين لأهل الحجاز، لأن لغة الحجاز لم تتطور في اللغة اليمنية مباشرة، وإنما جاء التطور من العربية إلى الآشورية إلى الآرامية إلى النبطية إلى القرشية، وأن الأنباط قد أخذوا أبجديتهم من الآراميين عن الفينيقيين ثم طوروها وحولوها من كتابة منفصلة الأحرف إلى كتابة متصلة الحروف، واعتمد الأنباط لغة الكتابة النبطية اللغة الآرامية، والخط النبطي خط متطور من الخط الآرامي. واللغة الآرامية كانت لغة شائعة في ذلك العصر، وهي لغة المراسلات الدولية في العالم القديم. وهي لغة السيد المسيح»^(٣).

«البتراء تعرف في المصادر العربية باسم الرقيم، وتعرف البتراء اليوم باسم وادي موسى، وباسم البتراء، وقد كون الأنباط حضارة عربية لغتها الآرامية سامية في ديانتها»^(٤).

«وقد ترك الأنباط كتابات كثيرة في مواقع متفرقة، أهمها البتراء وحواران والجوف وصيدا ودمشق والحجر وتيماء ومصر وسيناء واليمن، وكان أول ظهورهم في القرن السادس قبل الميلاد كبدو في الصحراء الواقعة شرقي الأردن، وفي القرن

(١) مقدمة ابن خلدون

(٢) كتاب لسان العرب - ابن منظور، ص ٤١١ - ج ٧.

(٣) كتاب تاريخ بلاد اشام.

(٤) معجم البلدان.

الرابع قبل الميلاد تركوا التنقل وتحولوا إلى مجتمع المدينة الذي اتصف بالتقدم والتطور، وكان لموقعهم الجغرافي دور هام في تحويلهم إلى مزارعين وتجار^(١).

وقد عني الأنباط بالزراعة والري أيما اعتناء، فاقاموا السدود المائية والسواقي والغدران الاصطناعية ولم يكتفوا بذلك بل قاموا باستخراج المياه الباطنية وبرعوا في ذلك واستخدموا مياه الأمطار وحفظوها ووضعوها في صهاريج سرية في باطن الأرض على أشكال مربعات محفورة في الصخور ولها فوهات ظاهرة ضيقة وباطنها واسع وقد أحكموا سدها، وللفوهات علامات ترشدهم إليها.

وإن أحسن ما ذكر عن الأنباط وعنايتهم بالماء^(٢).

ما قاله ديودوروس الصقلي «الأنباط يعيشون في البادية الجرداء، والتي لا تمر فيها سيول ولا ينابيع. وهم ظنينون بحريتهم، فان داهمهم عدو يخافونه، فروا إلى الصحراء، وهي أمنع حصن لهم، لأنها خالية من الماء فلا يدخلها سواهم إلا مات عطشاً، أماهم فيشربون من صهاريجهم السرية التي صنعوها في الأرض ولا يعرفها غيرهم.

«وقد أظهر الأنباط مقدرة فائقة وبراعة في مجال التجارة ساعدهم على ذلك موقعهم الجغرافي، حيث بدؤوا وسطاء يقومون بنقل السلع والبضائع كالبخور والطيب إلى مصر من موانئ ومدن سورية، ثم تطوروا بعد ذلك وأصبحوا سادة في التجارة وفي نقل تجارتهم بين الشرق والغرب كما سبق ذكره»^(٣).

(١) تاريخ سورية ص ١٧٤ فيليب حتي.

(٢) «تاريخ بلاد الشام القديم» مقولة ديودوروس الصقلي في القرن الأول ق.م.

(٣) تاريخ سورية ولبنان - فيليب حتي - تاريخ بلاد الشام القديم - أحمد اسماعيل علي.

وكانت قوافلهم تعبر الجزيرة العربية عن طريقين رئيسين:

الأول: يبدأ من شرق الجزيرة العربية.

الثاني: من جنوبها، ويلتقي الطريقان في الحجر، ومن المحطة الأخيرة تتشعب الطرق، وكانت البتراء المركز التجاري والاقتصادي للطرق التجارية ما بين غزة وبصرى وما بين دمشق وإيلا، وكانت التجارة أهم الموارد الاقتصادية عند الأنباط، وبها وعليها قامت حضارتهم وكانوا يديرونها بشكل منظم، وكانوا أول من عمل على نشر الأمان على الطرق التجارية بإقامتهم الحصون والقلاع والمخافر والأبراج للمراقبة وحماية القوافل عند الضرورة، مقابل المكوس العالية التي كانوا يأخذونها من التجار، وهي الضريبة الجمركية، وكانوا يدعون في الصناعة، ويقال أن الصناعة رسخت منذ القدم في الفرس والنبط والقبط واليونان والروم.^(١)

أما ملوك الأنباط فهم:^(٢)

الحارث الأول، وهو أول ملوك الأنباط (١٦٩ - ١٤٦ ق.م) وكان معاصرًا لأنطونيوخوس السلوقي وبطليموس فيلوماتر ملك مصر، ثم جاء بعده زبدائل (١٤٦ - ١١٠ ق.م)، فالحارث الثاني وهو من أشهر ملوك الأنباط حكم ما بين (١١٠ - ٩٦ ق.م) وكان يعرف باسم (إيروتيموس) ثم جاء بعده عبادة الأول، وهو من الحق الهزيمة بالاسكندر جالينوس (٩٠ ق.م) وهو ملك المكابيين على الضفة الشرقية لنهر الأردن، وكان انتصاره سببا لاحتلال منطقة حوران في هذه المرحلة وقد تنازل (جالينوس) لهم عن مؤاب وجلعاد.

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ٤٠٤.

(٢) تاريخ بلاد الشام القديم

ثم تلاه الحارث الثالث، وهو من ملوك الأنباط المشهورين ويعد المؤسس الحقيقي لسلطة الأنباط ويتميز عهده بالفتوحات والانتصارات وعلى يده تمت هزيمة السلوقيين في معركة قرب يافا وقتل ملكهم وهو الذي خاض معركة يهوذا وانتصر عليه وفرض شروطه.^(١)

وهو أول من صك نقودا نبطية ثم خضع للرومان، وجاء بعده مالك الأول (٤٧ - ٣٠ ق.م) الذي حاول الاستقلال عن سلطة الرومان لكنه لم يتمكن، ثم تلاه الحارث الرابع (٩ ق.م - ٤٠ م) وكان يلقب (رحم عم) أي المحب لأئمه، وكان عهده عهد رخاء وأمن وقوة، وقد انتصر في صراعه مع اليهود وملكهم (هيرودوس) عام (١٤ - ٣٧ م).

ثم جاء بعده مالك الثاني الذي خلف أباه، وهو الذي جهز حملة قوامها ألف فارس وخمسة آلاف من المشاة سنة (٦٧) م وهاجم بيت المقدس ودمرها بأمر من الامبراطور الروماني (تيطس) أو (طيطس).

وأنهى اليهود كتجمع سياسي، وفي عهده صكت عملة فضية وبرونزية عليها صورته وصورة زوجته واخته، وقد تم الكشف عنها، مع العلم أن ملوك الأنباط كانوا يقلدون الفراعنة المصريين ويتزوجون من شقيقاتهم.

وقد خلف مالك الثاني بعد خلعه (رب أيل) وقد عرف (بسوتر) حكم من (٧٠ - ١٠٦) م وفي عهده أمر الامبراطور الروماني (تراجاة) نائبه في سورية (كورنيليوس بالما) عام (١٠٦) م بأن يقود حملة ويتوجه إلى البتراء ويضم دولة

(١) تاريخ الشام القديم: فيليب حتى - تاريخ سورية.

الأنباط على الامبراطورية الرومانية، وعرفت منذ ذلك الحين بالمقاطعة العربية وأصبحت بصرى عاصمة لها، واضمحل دور البتراء.

ومع سقوط دولة الأنباط بقيت البتراء مزدهرة ثم أهملت مع الزمن وحلت (تدمر) محلها وأصبحت البتراء مركزاً أسقفياً.^(١)

وقبل أن ننهي بحثنا عن الأنباط لا بد لنا من ذكر ما أورده أهل العناية بأخبار ملوك العالم فقالوا: «إن أول ملوك السريانيين بعد الطوفان، وقد تتوزع فيهم وفي النبط، فمنهم من رأى السريانيين هم النبط ومنهم من رأى أنهم إخوة لودماش بن نبط، ومنهم أول من وضع التاج على رأسه وانقادت له ملوك الأرض، وكان ملكه ست عشرة سنة باغياً في الأرض مفسداً سفاكاً للدماء».^(٢)

العصر اليوناني:

بعد الإحتلال الآشوري تحولت حوران إلى جزءاً من الولاية الآشورية في سورية وصارت جزءاً من الولاية الكلدانية ثم جزء من الولاية الفارسية الخامسة زمن قورش والتي ضمت بلاد الشام وسميت مرزباته عبر نهرا (عبر النهر) وفي عام ٣٣٣ ق.م بعد معركة إيسوس الشهيرة أصبحت حوران قسماً من امبراطورية الإسكندر المكدون، وبعد وفاته (٣٢٣) ق.م تجزأت امبراطوريته إلى أربع ولايات كبيرة بين قادته الذين خلفوه وهم: بطليموس في مصر - انتيبتر في مكدونيا - سلوقس في مرزبانه بابل - أنتغوفس في آسيا الصغرى - والحق حوران بمملكة أنيغوفس التي احتوت سورية الطبيعية بكاملها.

(١) تاريخ بلاد الشام القديم.

(٢) مروج الذهب، ص ٢٠٧ - ج ١ - المسعودي.

ولكن بطليموس ملك مصر تغلب عام (٣١٢) ق.م بمساعدة سلوقس على أنتيغوفس في غزة وضم فلسطين وشرق الأردن وحوران إلى مقاطعته المصرية ومثلت حوران منطقة الحدود الشمالية الشرقية مع الدولة السلوقية. ولكن عام (١٩٨) ق.م تمكن انطيوخوس الثالث من هزم البطالمة في بانياس (عند منابع الأردن) وصارت سورية الطبيعية ضمن ممتلكاته بما في ذلك حوران التي وصلت حدودها الجنوبية إلى جبال عجلون، التي نشأت نتيجة لتداخل وتفاعل الثقافة الهلينستية والسامية تلك الحضارة المركبة التي عرفت بالهيلنسية لتمييزها عن الحضارة الهيلنستية أو اليونانية الصرفة، وفي مضمار النشاط الأدبي والفلسفي ظهر في حوران فيلسوف هو أبيقوري وشاعر اسمه فيلوديموس، ولد في أوائل القرن الأول قبل الميلاد في حددة (أم قيس) (مكيس الحالية) التي تقع على مرتفع شاهق مشرف على اليرموك.

الحوريون:

اشتق اسمهم من حوريم أي سكان المغاور، يعتقد أنهم بقايا قبيلة ثمود العربية البائدة وأنهم أقدم من الكنعانيين، وهم الذين حفروا الكهوف الصخرية الكبيرة المعروفة بالحرى الحورانية^(١).

الرفائيون العمالقة:

ينتسبون إلى جدهم رافا الجبار، وهم الآراميون الذين سموا بالجبابرة، سكنوا حوران منذ عام (٢٥٠٠) ق.م وشكلوا مملكتين: جنوبية عاصمتها (حشبون)

(١) قرى وانساب حوران - د. محمود مصطفى - المهندس هشام عبد العزيز، ص ٦٥.

وشمالية عاصمتها عشتاروت (تل عشترة) قرب مدينة نوى وهي قرنائيم، ذات القرنين والمشهور من ملوكهم عوج الجبار ملك حوران الذي كان طول سيره حوالي خمسة أمتار وعرضه أربعة أذرع حسب الروايات. (ولأعتقد بصحتها) ^(١).

السلوقيون:

لقد فتح الإسكندر المكدوني بلاد الشام في القرن الرابع ق.م وضمها إلى مملكته وبعد وفاته أصبحت حوران والشام من ضمن ممتلكات السلوقيين (نسبة إلى سلوقس أحد قادة جيوش الإسكندر في سورية) وهم الذين أطلقوا إسم تراخونيش على اللجاة وأورانيش على حوران، وقد تركوا فيها آثارًا وابنية كثيرة وعززوا أحوالها الزراعية والتجارية. ^(٢)

الضجاعم:

ينتسبون إلى إحدى فروع سليم العدنانية، وقد قدموا من سبأ في اليمن، ويقسمون إلى مناذرة سكنوا في بلاد ما بين النهرين وشكلوا مملكة الخيرة، وإلى تنوخيين تفرقوا في حوران ودمشق، فاتخذهم الرومان عمالاً لهم على العرب، آخر ملوكهم زياد بن الهبولة، تنصروا في عهد ملكهم عمرو بن مروان بن الحاف، وأصبحوا عمال القياصرة على العرب يجمعون الأتاوة للقيصر. ^(٣)

(١) المصدر السابق، ص ٦٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٦٦.

الشهابيون:

ينتسبون الى مالك بن الحارث من قبيلة مخزوم الحجازية جد الشهابيين الذي ارسله الخليفة عمر بن الخطاب واليا على حوران وتولى الامارة في شهباء عام (٦٣٦) م وبقي اعقابه فيها الى القرن الثاني عشر ميلادي (١١٧٣) م حيث أرغمتهم المجاعة التي اجتاحت حوران في هذا العام على الهجرة إلى وادي التيم وجبال لبنان الشرقية مع التنوخيين والمعنيين،^(١) وقد ذكر محمد كرد علي في كتابه خطط الشام ان الامير فخر الدين المعني نقل عائلة الشهابي وعددها خمسة عشر ألفا إلى وادي التيم.

العشائر البدوية المتنقلة:

أ - عشائر السردية: دخلت حوران عام (٨٥٠ م)

ب - عشائر شمر طى: دخلت الى حوران مع الفتوح الإسلامية لبلاد الشام.

ج - الأسر العربية البدوية: تشير المصادر التاريخية إلى أنه عام (١٠٦٥) كان يقيم في حوران عدد من الأسر العربية البدوية مثل عشائر عقيل - نمير - قشير - كلاب - طيبىء - كلب.

د - التركمان - وقد قدموا إلى حوران من تركيا وتركمنستان عام (١٠٩٣ م).

هـ - السلاجقة: عام (١٠٨٩) م

و - الأكراد: نزحوا من شمال سورية إلى حوران عام (١٠٩٣) م.

(١) المصدر السابق، ص ٦٧.

ز - الصليبيون: دخلوا إلى حوران وكانت آخر حملة صليبية على حوران عام (١٢١٧)م التي ردت جميعها وانتهت بفشل الغزاة.

في منتصف القرن الثاني ق.م تحولت طرق الأنباط التجارية نحو حوران فأصبحت مركزاً من مراكزهم التجارية التي امتدت إلى أواسط آسيا وشواطئ أوروبا، وكانت هذه البضائع تتضاعف بالمنتجات المحلية، ويعتقد أن زراعة الفاصولياء والعدس والقرع والخردل وغيرها من مزروعات القطر المصري، قد أدخلت إلى حوران في هذا الحين، كما أن زراعة الشعير والقمح والعنب والزيتون وصناعة الزجاج والأواني والأسلحة والزيت والخمر تطورت وتوسعت إلى حد كبير، وكان القطر المصري يستورد حاجته من أخشاب أحراش البلوط الحوراني، وفي مدينة يوتيولي الإيطالية عثر علماء الآثار على مذبح أقامه أحد التجار الأنباط لعبادة الآله (ذو الشرى).

الصفويون:

كان لابد لنا قبل أن نتحدث عن العهد الغساني من أن نذكر الصفويين الذين أقاموا دولتهم على منطقة تمتد من جبل حوران ووادي النقرة، ومنطقة التلول والصفاء، وحتى حرة وادي حبيال الموطن الأصلي للصفويين وفي هذا الوادي بعض الآبار وبعض مجاري المياه، التي تنبع من السفح الشرقي لجبل حوران، وتحف في الصيف، وفي العهد الروماني أنشئ في الرجة مركز حصين على جانب كبير من الأهمية، وقد شُيّد على أطلال القصر الأبيض، أطلق عليه العرب اسم (القلعة البيضاء) ويعتبر من أهم الحصون التي أقيمت في الفترة الرومانية في منطقة الصفاء،

إضافة إلى نقطة جبل سيس - القصر الأبيض - المنارة - دير الكهف - قلعة الأزرق (وكانت تتبع القيادة الحربية في بصرى).

ينسب الصفويون إلى المنطقة الجغرافية التي سكنوا فيها، وهي منطقة الصفا وما حولها، وهي تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة دمشق، عند أول بادية الشام، ولغة الصفويين العربية، وقد استوطنوا في السفح الشرقي لجبل حوران، وهم غير الصفويين الشيعة.

«استوطن الصفويون إقليم حوران بما فيه بصرى والسويداء وأذرع»^(١).

وقد استعمل الصفويون عدة طرق للتغلب على الصلابة الشديدة للصخور البركانية المتواجدة في مناطق عيشهم أما أهم الأعمال التي مارسوها فهي تربية الماشية وصيد الغزلان وبقر الوحش، والأسود، واستفاد الصفويون من طبيعة الأرض فاستخدموا الحجارة في بناء بيوتهم التي تميزت بطابع معين ومميز حيث كان السقف يعمل من بلاط البازلت، يتصل ببعضه بدقة متناهية ثم عقود من الحجارة أو فوق مساند داخلية في الجدران.

«وقد دخلت حوران عبادة اللات بواسطة النبطيين والصفويين، والنصوص الصفوية التي كتبت على الصخور البركانية بطريقة الدق أو بالمناكير المدببة، وما نشر من النصوص الصفوية التي بلغت (١٧٥٠) نصاً ووجد تشابه واضح بين الأبجدية الصفوية والكتابة العربية الجنوبية، واكتشفت أن هناك روابط أسرية بينهم، وأن عدد الحروف الأبجدية الصفوية (ثمانية وعشرون) حرفاً مثلها مثل الأبجدية العربية.

(١) احمد علي اسماعيل علي: كتاب تاريخ بلاد الشام القديم: نقلاً عن رينيه ديسور: كتاب العرب في سورية.

من ذلك، كانت الصلة وثيقة بين الأبجديتين، كما كانت الأبجدية الصفوية تتصل بالأبجدية الإيلائية والفينيقية والشمودية والحميرية أيضًا. واللهجة الصفوية لهجة عربية قريبة من لهجة القرآن الكريم، وهذا يعني أنها عربية المنشأ.

وتمدنا النصوص المكتشفة بطائفة من أسماء الأعلام العربية والجاهلية وأسماء الأعلام كانت تقسم إلى قسمين الأسماء البسيطة والأسماء المركبة.

وقد أكتشفت البعثة السورية الإنكليزية العاملة في شرق السويداء خمسة وأربعين موقعاً أثرياً، تضم جميعها كتابات صفوية، تعود إلى القرن الأول قبل الميلاد وحتى الرابع الميلادي، تبحث عن النسب عند العرب، وقد تم نسخ (٦٢٠٠) نص صفوي حتى الآن، وهي قيد الدراسة جميعها وقد عثر عليها منقوشة على الحجر، وتشمل أمكنة الاكتشافات منطقة البيساوي من سد الرحبة حتى وادي الزلوب.

قال جرير بالصفاء:

هبت شمالاً فذكرى ما ذكرتكم عند الصفاء التي شرقي حوران
هل يرجعن وليس الدهر مرتجعاً عيشي بها طال ما احلولي وما لانا

العصر الروماني:

كانت الدولة النبطية شوكة تشكل عقبة أمام زحف الرومان نحو الجنوب العربي، فكان الرومان يتحينون الفرص للقضاء على هذه الدولة، ويبدو أن هذه الفرصة أتاحت لهم عام (١٠٥) م عندما هاجموا المنطقة واحتلوها، ويؤكد العالم أينوليمان وقوع ثورات واسعة في هذه البلاد عند وقوع الغزو الروماني تحت قيادة

(كارنيلوس بالما) الذي يعد من قواد روما الشهيرين، وبعد الاحتلال عين هذا القائد حاكمًا لبلاد الأنباط التي أصبحت ولاية امبراطورية أطلق عليها اسم الولاية العربية كما ذكرنا سابقًا، وأصبحت من أولى الولايات الهامة، إذ كانت مع ولاية الغال مركزًا يتنافس على الوصول إلى حكمها كبار الدولة في روما، وكانت بلاد الشام مؤلفة في ذلك الحين من ثلاث ولايات، الأولى مركزها مدينة إنطاكيا، والثانية مركزها أفاميا، أما الثالثة فكان مركزها مدينة دمشق وأصبحت بصرى مركز للولاية الرابعة في جنوب سورية، وصك الرومان وسامًا تذكاريًا لتخليد غزوهم لهذه المنطقة واحتلالها، يمثل البلاد بامرأة واقفة ترفع بيدها اليمنى غصن الزيتون وعلى جانب قدميها جمل برك، وكان تعبيد الطرق أول مشاريع الرومان، وطرق القوافل القديمة كانت غير معبدة لأن المركبات لم تكن مستعملة كوسيلة للنقل البعيد لدى الانباط، وتم تعبيد الطريق الذي يمتد من دمشق إلى بصرى مارًا بالمسمية وقنوات والسويداء وعرى وأحمر، من بعد أن يشق صخور اللجا الصلبة، ثم يتوجه إلى شرق الأردن والحجاز، والطريق الذي يصل بصرى بشواطئ البحر الأبيض المتوسط مارًا بدرعا وأم قيس غربًا، وطريق يمتد إلى العراق مارًا بصلخد وقلعة الأزرق شرقًا، وقام أحد ولاية بصرى كاوديوس سفيروس بشق طريق يمتد من بصرى إلى عمان والبتراء حتى العقبة، وكان فرش تلك الطرق يتألف من الحصى الرملي والإسمنت والرصف بأحجار مربعة ومستوية وعلى جانبي الطريق أقيمت الحواجز المؤلفة من أحجار ضخمة تبعد عن بعضها اثنتي عشر قدمًا، ويبلغ عرض الطريق المرصوص ستة أمتار، وعلى طوله أقيمت محطات للمراقبين والحراس ومرابط الخيول ومستودعات للمؤونة والعلف - ونقشت الأبعاد بين المدن على أعمدة نصبت على كل ألف خطوة. وكانت المسافة مكتوبة باللغة اللاتينية وبعضها بالأحرف النبطية.

كانت حدود الولاية تمتد إلى البحر الأحمر جنوباً وإلى خط اليمين من السويداء إلى عرى شمالاً والبحر الميت غرباً، وفي زمن الامبراطور اسكندر سيفر عام (١٩٣- ٢١١م) ألحق شمالي حوران بالولاية العربية حتى حدود حوران وأصبحت بذلك منطقة اللجا والصفاء والأراضي الواقعة شمالي اليرموك داخلية في حدود الولاية.

وفي عهد الامبراطور ديوكلسيان (٢٨٤ م) أصبح القسم الشمالي من شرق الأردن والجزء الجنوبي في الجنوب السوري، ولاية أطلق عليها اسم الولاية العربية السياسية، فمن هذه التسمية التي عثر عليها في وثائق فيرون أمكن الاستدلال على أن الولاية العربية جزئت في ذلك الحين وأصبحت ولايتين منفصلتين الأولى شمالية مركزها بصرى، والثانية جنوبية مركزها البتراء، وقد اتضح أن حدود الولاية العربية وتشكيلاتها وتنظيماتها كان يتبدل مع تبدل الأوضاع الإدارية في الامبراطورية الرومانية، ففي عام (٢٧ م) نظم أوغست قيصر إدارة الولاية فجعلها على نوعين، الأول يتولى إدارته مجلس الشيوخ ويقرر أنظمته وأحكامه ويعين له الولاة ويعزلهم، والنوع الثاني جعل ارتباطه المباشر بالامبراطور شخصياً فهو الذي يدير على مسؤوليته الشخصية سائر شؤون الولاية وينفذ ما شاء له من أحكام، وهذا الشكل من الإدارة كان يقرر عادة للولايات التي لا يستتب فيها أمن القوات المحتلة ولا ترضخ للحكم الروماني تماماً وتكثر فيها الثورات الوطنية، فكان الامبراطور يعهد بنائب قنصل يمثلها فيها ويتولى قيادة الجيش ويرأس الإدارة ليستطيع البت في شؤون الأمن الطارئة الذي كان مهدداً في بعض الأحيان، وكانت مدينة بصرى مركزاً للفرقة العسكرية وكبار موظفي الإدارة المالية، وكان موظفوا المالية يهتمون بحماية الأموال مباشرة أو بواسطة التلزييم، ويبدو أن أكثر الحكام كان يعينهم

الامبراطور لفترة قصيرة ولا يتقاضون راتبًا ويساعد الحاكم قائد عسكري يدعى ليقا وموظفون مدنيون يطلق عليهم لقب (حاكم أو قنصل) كان يعينهم الإمبراطور مباشرة أيضًا.

حوران والاكتشافات الأثرية في العصور التاريخية:

ولنترك للقارئ مجال التحليل في اقوال علماء الآثار الآتية التي وردت في كتاب تاريخ الشرق القديم يستنتج منها ما يستنتج عن حوران.

أمام سيل الاكتشافات الأثرية الأخيرة في كل من سورية ولبنان تم العثور بجانب الأدوات المنزلية الثقيلة للطحن والجرح والسحق وصناعة الأدوات العظمية وأحياناً الأعمال الفنية المصنوعة من الحجر أو من العظم، وقطع أدوات الزينة والحلي المصنوعة من الحجر أو العظم أو الصدف، إلى جانب الوجود المتكرر للبقايا المعمارية كالأكواخ المستديرة وصوامع خزن الغلال والمدافن الفردية التي تعود إلى الحقبة النطوفية وظهور القرى الأولى، حيث ظهرت الحضارة النطوفية للوجود في حوالي (١٠ آلاف) سنة قبل الميلاد، إلى جانب ذلك تم العثور على أدوات أخرى للسحق والطحن في (موقع طيبة) بحوران.^(١)

أما طريقة الدفن فهي إما من الدرجة الأولى، أو أن يحتوي القبر على ثلاث جماجم لا ترافقها بقايا عظمية أخرى، حيث شاعت عادة فصل الجمجمة عن الهيكل العظمي في بلاد الشام حوالي (٧٥٠٠) ق.م .

(١) تاريخ الشام القديم - تأليف عبد الحكيم ذنون، ص ٣٦.

وبناء على ذلك فقد استخدم الناس في بلاد الشام - باستثناء موقع أبو هريرة - من أواخر الألف الثامن قبل الميلاد جزءاً من الهيكل العظمي وهو الجمجمة ليجعلوا منها تشخيصاً حقيقياً للأموات في مساكن الأحياء.^(١)

يبعد تل الرماد حوالي (٢٠) كم جنوبي دمشق، وقد نشأت القرية المكتشفة في موقع تل الرماد في حوالي (٦٢٠٠) ق.م، ويرتفع تل الرماد عن مستوى البحر ويتربع فوق هضبة بازلتية في أسفل جبال لبنان الشرقية، وقد وصلت المساحة المنقبة أثرياً إلى (١٥٠٠)م^٢، وتبين أن القرية الأثرية تشغل مساحة ثلاثة هكتارات، والموقع يتألف من ثلاث سويات أثرية، إثنان منها يدخلان في نطاق الفترة التي أعطى تحليل الفحم (١٤)(c14) تاريخ (٦٢٥٠ ق.م) للسوية الأولى و(٦١٤٠ ق.م) و(٥٩٥٠ ق.م) للسوية الثانية حسب تحليل فان لير.

وقد عثر في تل الرماد على العديد من الجماجم المشكلة بطبقة الجص، وذلك في السويتين الأولى والثانية. وهذه الجماجم محللة بالكلس مثلما الحال في (بيسمون) في الجليل الأعلى غربي بحيرة الحولة بفلسطين المحتلة ويشمل الطلاء الجصي جزء الفك السفلي الذي كان مجرداً من الأسنان، لكن الطلاء الجصي يمتد حتى الحلق.

تم إبراز معالم العينين بطبقة ناصعة من الكلس، وكان مستودع الجماجم يضم حوالي (١٢) جمجمة مصبوغة باللون الترابي ومجتمعة داخل حفرة بيضوية محددة بألواح اللبن وبآنية خشبية من الجص، وكان مع الجماجم دمي طينية بشرية يبلغ ارتفاع كل منها حوالي (٢٠سم) وفي حالة الجلوس، لكن الرأس مختصر المعالم ويظهر كمجرد انتفاخ وقمته مسطحة، ولا بد أنها كانت توضع فوق الرقبة

(١) كتاب تاتريخ الشرق القديم - عبد الحكيم ذنون، ص ٦٧ - ص ٦٩.

المخصصة للجماجم، ولا بد أن مثل هذه التماثيل كانت قواعد ترتكز عليها الجماجم، وكان هناك مستودع جماجم مع تماثيل صغير القواعد ترتكز عليها الجماجم، في قلب حفرة ونقور في السوية الأولى لمسكن مستدير^(١).



يعتبر قصر زين العابدين الحريري في قرية إنخل بمحافظة درعا، أحد الأمثلة المهمة على الأبنية الريفية التي حافظت على شكلها والذي شغلت من قبل مشايخ القرية حتى عام ١٩٨٥ حيث وضعت مديرية الآثار بمحافظة يدها عليه؛ وقامت ببعض الترميمات ولم تستكمل حتى الآن؛ وكان آخر من شغله الشيخ عبد المحسن

(١) كتاب تاريخ الشرق القديم - عبد الحكيم ذنون ص ٧٣.

زين العابدين الحريري وولده الشيخ عزت والشيخ عز الدين وابناء عمومهم أبناء الشيخ سليمان زين العابدين.

الشؤون المالية في الولاية العربية:

كانت الشؤون المالية تطبق بأساليب حربية يتولاها موظفون أجانب، وفي مناطق الولاية البعيدة عن مركز الوالي كان الحكم المحلي يدار فيها من قبل مفوضين يمثلون الوالي في جميع سلطاته، وتدلنا الكتابات الأثرية على أن الولاية العربية كانت مقسمة إلى مناطق ونواحي، إزرع والمسمية مركزين للقرى المحيطة بهما، وأدخل فيما بعد تعديل نظام سلطات الإدارة فأصبح للولاية حاكمان يرأس أحدهما الإدارة والقضاء والشؤون المالية، ويتولى الثاني قيادة الجيش، وهما على مستوى واحد من الرتبة، وبعد القرن الرابع، عندما أخذ النفوذ البيزنطي بالتلاشي في هذه الولاية، أخذ الحكم شكلاً محلياً يساعد فيه أفراد السكان المحليين الحاكم.

وفي عام (٥٣٦) م ظهر لولاية بصرى لقب جديد للحاكم (دوق) وكان يجمع بين قيادة الجيش ويرأس الإدارة، وفي أيام أسرة سيفر العربية نالت حوران منحة كثيرة واستقلالاً ذاتياً وامتيازات عديدة منها الإعفاء من دفع الضرائب، وعندما تولى الامبراطور فيليب العربي الحكم في روما، أولى مدينة بصرى كثيراً من اهتماماته وعنايته ودعيت في ذلك الحين (متروبوليس) وبلغت في عهده درجة أمهات المدن كما أوردنا في فصل سابق، وعندما احتفلت روما بعيدها الألفي، أتاح الامبراطور فيليب العربي لأهل روما فرصة التمتع بالكرم العربي، فأغدق عليهم من الخيرات والميزات حتى شملت الجميع وأصبحت هذه الأعياد مثلاً يضرب للاستشهاد بالجوهر والكرم.

ويقول أرسطيدس عن الامبراطور فيليب العربي: أنه كان امبراطورًا رائعًا عادلاً مؤمناً بالله، وأنه خير رجل يمكن العثور عليه في حدود الامبراطورية.

شملت الاختراعات الألية في العصر الروماني المحراث المتطور وطاحونة الماء وكان يضرب المثل بخصب منطقة حوران، ولا سيما بإنتاج الحنطة، ولذا سميت بحق (بإهراء روما)، كما كانت تعد من البلاد المنتجة للخمر. وكانت حوران تعتمد على استعمال الصهاريج التي تجمع فيها مياه الأمطار غير المنتظمة والغزيرة أحياناً، وسدود كثيرة بين درعا وبصرى تروي بساتين الزيتون التي انتشرت في تلك المنطقة.

ولما كانت حوران تقع على طريق الصحراء هي وعاصمتها بصرى، فإنها كانت أول منطقة سكنها وزرعها رجال القبائل في الصحراء، وقد توسعت المدينة في عهد الامبراطور تراجان وحصنت، وأطلق عليها اسم نوفاتراجان بصرى^(١)، وكانت ملتقى هاماً لطرق القوافل الذاهبة إلى دمشق والبحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والخليج العربي، وأصبحت زمن (ديوكليسيان). (٢٨٤ - ٣٠٥ م) عاصمة ولاية بلاد العرب ودرجة الازدهار التي بلغت هذه المنطقة لم يبلغها في عهد من العهود السابقة.

ففي عهد ديوكليسيان أصبح القسم الشمالي من شرق الأردن والجزء الجنوبي من سورية يعرف باسم (الولاية العربية السامية). فمن هذا الاسم الذي عثر عليه وثائق فيرونا بإيطاليا، أمكن التحقيق بأن الولاية العربية قسمت في عهد الامبراطور إلى جزئين: الجزء الجنوبي وفيه البتراء وأطلق عليه اسم (العربية) والجزء الشمالي

(١) لأن الامبراطور تراجان وسعها وأشاد فيها كثيراً من الأبنية الرائعة.

وعاصمته بصرى وأطلق عليه اسم (العربية اللبنانية السامية) ومن الطريف أن يصل إسم لبنان إلى بصرى، مع العلم أن حدود الولاية لم تصل إلى أبعد من جبل حرمون. وفي عام (٣٨١) م اختفى هذا الاسم وأطلق عليها (ولاية بصرى). وبعدها وفي جميع هذه الأدوار كان يعتنى بانتقاء الحاكم من الأشخاص ذوي المقامات الرفيعة والمواهب المختارة المشهورة باللباقة والحنكة والدهاء، إذ أنه كان يمارس صلاحيات واسعة ويتولى إدارة شعب مدرك كثيرًا للاصطدام مع النفوذ الروماني، لهذا جمع في بادئ الأمر بين القيادة العليا للجيش ورئاسة موظفي الإدارة، وبعد أربعين عاما من تأسيس الولاية، أدخل تعديل جديد على نظام الإدارة العليا فأسندت قيادة الجيش العليا لقائد ليس له أن يتدخل في شؤون الإدارة التي يتولاها حاكم مدني، وفي زمن الاسكندر سفيروس مؤسس السلالة السورية الحاكمة في روما، فازت بصرى بمنح جديدة بين عامي (٢٠٨ - ٢٣٥) م وحين تولى فيليب العربي عرش روما (٢٤٤) م أغدق عليها النعم ومنحها إمتيازات كثيرة مما زاد في ثروتها العمرانية والاقتصادية حتى بلغت درجة (متروبوليس) أي (من أمهات المدن - بوسترامتروبوليس).

حوران وحقوق الرعوية الرومانية:

لم يكن الحكم الروماني للولايات شديد الوطأة على سكان الولايات، فلم يحاول الرومان أبداً سلب ولاياتهم شخصياتها وأن يذبيوا ويصهروا قوميات الولايات في القومية الرومانية، إنما أبقوا لكل ولاية طابعها القومي، لأنهم لو حاولوا رومنة جميع سكان الولايات، وما أكثرها تلك العناصر، لاعترضتهم عقبات كأداء لم يكن بوسعهم تذليلها، ولكانوا خرجوا بخليطة جنسية لا يمكن أن يتوفر

الانسجام بين مختلف أجزائها، وقد إقتصرت عمل الرومان على نشر اللغة اللاتينية في ربوع ولاياتهم وذلك لتسهيل شؤون إدارة الولايات، ولكنهم مع ذلك أبقوا لسكان كل ولاية لغتهم الخاصة، وهكذا استمر استعمال اللغة اليونانية في الولايات الرومانية الأوروبية الشرقية وفي آسية الصغرى، واستمرت اللغات السامية في الولايات الآسيوية ومصر وبلاد الشام.

وفي عام (٢١٢) م منح الامبراطور كاراكلا حق الرعوية الرومانية لجميع سكان الولايات الأحرار وأصبح منذ ذلك الحين فصاعداً أي سوري مواطناً رومانياً بحكم الواقع ويحق له استلام أعظم وظيفة في الدولة إذا كان أهلاً لذلك، وظهر التأثير الروماني أيضاً عن طريق الخدمة العسكرية، فقد استخدم الرومان منذ البداية غير الإيطاليين كفرق احتياطية، وبالتدريج أصبحت الفرق الرومانية نفسها تتألف من عدد كبير من السكان الأصليين، وكان أفراد الجيش يصبحون بصورة آلية مواطنين رومانيين، وكان الجنود السوريون في الوحدات الرومانية يرابطون في مختلف أقسام الامبراطورية - وقد وصلت عن طريق الجيش إلى العرش الروماني السلالة السورية في روما وكان أولها سيموس سفيروس عام (١٩٣ م) ثم ابنه كاركلا وفاروس أفينتوس ومركيانس والأكابالس واسكندر سفيروس، وأصل هذه السلالة من مدينة حمص، ثم اتيح المجال لشاب من حوران أن يجلس على عرش روما وهو: فيليب العربي في عام (٢٤٤) م.

فيليب العربي:

في عام (٢٤٤) م شهدت روما تتويج فيليب العربي السوري الذي ولد في قرية شهباء في حوران من أعمال بصرى، وكان قائداً للحرس حين اغتيل سلفه وهو يقاتل الفرس، فنادى به الجنود خلفاً له، وقد صادق مجلس الشيوخ على هذا الاختيار في نفس العام السابق، ولم يجعل هذا الامبراطور العربي اسمه مكروها بأي استغلال استبدادي للسلطة، بل على النقيض من ذلك أكسبته حملاته ضد القبائل على الدانوب الأسفل لقب جرمانيكوس مكسيموس، وكان من نصيب هذا العربي السوري أن يرأس عام (٢٤٨) م احتفالات ذكرى مرور ألف سنة على تأسيس روما وقد جرت الألعاب وغيرها من أمور التسلية بروعة عظيمة، وكان الامبراطور يعتبر مؤيداً للمسيحية، ومع ذلك لم يترك أي أثر على الكنيسة، وتعطينا مدينة فيليبوبوليس في جبل حوران مثلاً عن بلوغ إحدى القرى رتبة المدينة، فقد كانت بالأصل قرية قليلة الأهمية، وهي قرية شهباء بجوار بصرى، ثم رفعها فيليب العربي إلى رتبة مدينة عام (٢٤٤) م تاريخ ارتقائه عرش القيصرية.

يقول بعض المؤرخين أن فيليب العربي من مواليد شهباء، والحقيقة أنه ولد في هذه المنطقة، وعاش لفترة قصيرة فيها تحت بيوت الشعر حيث مارس الفروسية وتأدب بأدب العرب، فنشأ ذكياً، ثم تطوع في الجيش الروماني، وحاز بسرعة على الرتب العالية، ويبدو أنه كان يجمع إضافة إلى المزايا العسكرية إحاطة عميقة في الثقافة العامة والفلسفة فلمع بين كبار الضباط حتى تولى منصب رئيس الحرس البرقيوري، وكان عمره آنئذ خمسة وأربعين عاماً عندما قتل الامبراطور غودوريان فنودي به إمبراطوراً عام (٢٤٢م). وبعد أن أمر فيليب بنقل جثمان الامبراطور إلى

روما بكل إجلال واحترام، عقد صلحاً مع الفرس وأعلن عفوًا عامًا عن المحكومين السياسيين ونظم طريقة استئناف الأحكام ووسع صلاحيات الإداريين بالنسبة للمجالس الأهلية، ثم حدد حقوق القضاء ومجلس الشيوخ ونظم جباية الضرائب بتشريع قانون خاص بتحصيلها، ونالت الولاية العربية كثيرًا من عنايته واهتمامه فزاد في عمرانها وبنى مدينة جديدة أطلق عليها اسمه (فيليبوليس) وهي شهباء الحالية.

وقد ازداد سكان المدينة بدخول عنصر جديد إليها وهم المستعمرون الإيطاليون، وأصبحت نفسها مستعمرة رومانية.

مفكرون في حوران في العصر الروماني:

لم تكن مساهمة المفكرين السوريين العرب ضئيلة في مجال الفلسفة، وخاصة ما يتعلق بالأفلاطونية الحديثة. فظهر فلاسفة من صيدا وصور وآفاميا وكذلك، ظهر من حوران فيلسوف أفلاطوني حديث هو بورفيروس^(١).

العهد البيزنطي:

قبل أن يؤسس الامبراطور قسطنطين العاصمة اعترف بديانة رسمية جديدة للدولة هي المسيحية ودفنت القسطنطينية عاصمة للامبراطورية الرومانية عام (٣٣٠) م وبقي الاستمرار النظري للامبراطورية قائمًا بعد تأسيس العاصمة عدة سنوات، ومع ذلك فإن شطري الامبراطورية قد انفصلا أكثر من مرة وحكمها أباطرة مختلفون، وحصل الانقسام النهائي سنة (٣٩٥) م، وكان تيودوسيوس آخر

(١) سيتم الحديث عن المفكرين في بحث الناحية الفكرية في حوران.

امبراطور على الامبراطورية الموحدة، ومنذ ذلك الحين وجدت امبراطورية روما الشرقية، وكان النجاح حليفها، بينما كان الفشل من نصيب شقيقتها في الغرب، وأصاب الفشل روما عام (٤٧٦) م نتيجة هجمات القبائل الجرمانية، وكانت سورية تقسم في نهاية القرن الرابع ميلادي إلى عدة مقاطعات وأصبحت حوران جزء من أجزاء فلسطين إداريا «فلسطين الثالثة»، وكانت البتراء مدينتها الرئيسية، وقد تشكلت في الولاية العربية السابقة، إلا أن الدور الرئيسي، إبان العهد البيزنطي في حوران قد لعبه الأوسيون الغساسنة الذين ينتسب اليهم معظم سكان حوران ويفخرون بهذا الانتساب.

الغساسنة في العهد البيزنطي:

بعد تشكيل الولاية العربية، أخذ الرومان يتقربون من السكان العرب يخطبون ودهم بالمعاهدات المتبادلة وكان أول عرب تحالفوا معهم من قبيلة تنوخ (من قضاة) والتي ذكرت المصادر العربية ثلاثة من ملوكهم وهم النعمان بن عمرو، وعمرو بن النعمان، والحواري بن عمرو، وبعد حين هاجمتهم قبيلة الضجاجة وهي إحدى فروع سليم العدنانية واحتلت مكان تنوخ فاعترف الرومان بسيادة هذه القبيلة، إلا أن ظهور الغساسنة الذي لا يعرف بالتأكيد حتى تاريخ نزولهم في أراضي حوران وشرقي الأردن، عدا بعض المصادر التي تروي قصة هذا النزول بصورة لا يمكن القطع بصحتها، وإنما نرويها كما وردت «لما أوجست بعض القبائل من تهدم سد مأرب في اليمن قال رائدهم من كان منكم يريد الخمر والخمير والأمر والتأثير ويلبس الديباج والحرير فليلق بصرى والحفير، فلما استقرت بهم الأحوال في البلقاء وحوران طالبهم الضجاجة بالخراج على عاداتهم فخالفهم الغساسنة

فاقتتلوا فكان الفوز للضبغام. ودفعت غسان ما طلب منها إلى أن تولى جباية الضرائب سبيط الضبغمي، فتأخروا في دفعها فجاء سبيط إلى زعيمهم ثعلبة و....».

ويقول العالم الألماني نولدكه: «ليس هناك إشارة إلى أن الغساسنة كانوا يمتلكون الشام» وحدث الواقدي بأن شرحبيل بن عمرو الغساني قتل رسول النبي العربي محمد ﷺ، إلى بصرى. ويقول نولدكه: أن هذا الملك لم يكن سوى قائد بصرى التي كان الروم قد استردوها حديثاً.

إن هذا التناقض في الروايات أدى إلى الكثير من الاضطراب التاريخي عن هذه القبيلة العربية التي يقال أن سبب هجرتها من اليمن تصدع قديم في سد مأرب، ويقال أن مؤسس سلالتهم جفنة بن عمرو مزيقياء، والصحيح أن الغموض يحيط بتاريخ أبناء جفنة وعدد ملوكهم الذي يتراوح وفقاً للتواريخ العربية بين (إحدى عشر) و (اثنين وثلاثين).

أما الروايات البيزنطية فلا تشير إلا إلى علاقاتهم بالقسطنطينية.

وفي عام (١٩٣٣) م أصدر المستشرق فرانسوانو بحثاً عن العرب المسيحيين في العراق وسورية في القرنين السابع والثامن الميلادي معتمداً في مؤلفه على نصوص جديدة لم يتعرض لها المؤرخون إلا بإيجاز كلي، وهي نصوص تعود إلى المصادر السريانية التي كانت مهمة في السابق فلم يستخرج منها فولدكه كبير أمر.

ونعرف من هذا البحث أن سكان بصرى قد تنصر معظمهم قبل الإسلام، وتعلموا الصلاة وتصدقوا على الفقراء وساعدوا المساكين، وصاموا في منازلهم

ومناسكهم، وكان هؤلاء السكان يحسنون الكتابة النبطية ويقرأون بالسريانية الصلوات والطقوس ويتراسلون بواسطتها، لا سيما في الجدل الديني الذي نشأ بينهم بعد ظهور المذاهب الجديدة القائلة بالطبيعتين والطبيعة الواحدة، وكان سكان بصرى والولاية العربية من المؤمنين بالمذهب الثاني الذي أطلق عليه إسم اليعاقبة، وكانوا يدونون مراحل الجدل بينهم وبين خصومهم الخلقدونيين وينسبون إليهم كل ما يمكن من التهم والمخازي ويسجلون في تاريخهم بحماس وتوسع ويبدو أن يوحنا كان عربياً غير أنه يكتب باللغة السريانية فذكر شيئاً عن تاريخ الكنيسة والاضطهادات والانشقاقات.

كما أشار إلى الغساسنة ومن عاصره من ملوكها وهم الحارث بن جبلة والنعمان بن المنذر واقتبس منه المستشرق فرانسوانو ما أمكنه من اقتباسه ورغم الرجوع إلى السفرين السريانين للمؤرخين رحمانى برسو، وميخائيل السوري، وإلى الكثير من المراجع الأجنبية والنصوص التاريخية وكتاب العالم نولدكه الذي ترجمه إلى العربية قسطنطين زريق وبندلي جوزي عن أمراء غسان تبين أنه لا يمكن الأخذ بجميع هذه الروايات إلا بحذر شديد لأن التعصب الديني والعنصري غلب على بعضهم فأغفلوا أشياء وأثبتوا أشياء أخرى، ويختلف عدد ملوك الغساسنة المعروفين فهو يتراوح بين أحد عشر واثنتين وثلاثين ملكاً، وتذكر التواريخ البيزنطية بعض الملوك الذين عاشوا في الفترة التي سبقت ظهور الإسلام وأولهم الحارث بن جبلة (٥٢٩ - ٥٦٩م) الذي حارب المنذر الثالث اللخمي ملك الحيرة وتغلب عليه مما دفع بالامبراطور جوستنيان إلى منحه لقب (فيلارك) أي رئيس قبيلة وبطريق،

وترجم الغساسنة هذا اللقب بمعنى ملك، وأصبح هذا الملك موالياً للبيزنطيين وحارب تحت قيادتهم دولة فارس واللخمين العرب الذين كانوا موالين للفرس.

خلف الحارث ولده المنذر (٥٦٩ - ٥٨١) م فتابع حروب والده ضد اللخمين، غير أنه كما يبدو كان أقل ولاء للبيزنطيين من والده فنازعهم السلطة وخالفهم في المذاهب لأنه ناصر الكنيسة الموثوفيزية بحماسة مخالفاً بذلك مذهب الدولة الرسمي فاعتقل مع عائلته وأبعد إلى جزيرة صقلية في عام (٥٨٢) م، وعلى إثر ذلك وقعت اشتباكات بين العرب والحاميات البيزنطية التي كانت معسكره في المدن ويقودها حنا الأفس.

وأرغمت كثير من الحاميات على التخلي عن ذخائرها الحربية، وبعد حروب هرقل مع الفرس منذ عام (٦٢٢ - ٦٢٩) م وهزيمة الفرس، أخذ الغساسنة باستعادة نفوذهم وعلاقاتهم مع البيزنطيين، بينما كانت جيوش المسلمين تتأهب لتحرير المنطقة نصب هرقل جبلة بن الأيهم ملكاً على الغساسنة الذي عاش حياة مترفة وزود بلاطه بأفخم وسائل الزينة وأسباب الراحة والبذخ مما جعله قبلة الشعراء الذين كانوا يتبارون في الحصول على منحه وعطاياه، ومن هؤلاء الشعراء حسان بن ثابت الذي مدحه بقصائد عصماء، ويعطينا الحديث المنسوب إليه في كتاب الأغاني شيئاً عن حياة ملوك الغساسنة وقد جاء فيه: لقد رأيت عَشْرَ قِيَان، خمس روميات يغنين بالرومية بالرباط، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة.

وكان يغدو إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها، وكان إذا جلس للشراب فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين وضرب له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب وأتى بالمسك الصحيح، وأوقد له العود المندى إن كان

شاتيّا، وإن كان صائفاً بطن بالثلج، وأتى هو وأصحابه بها في الصيف، وفي الشتاء الفراء الفنك وما أشبهه، ولا والله ماجلست معه يوماً قط إلا خلع علي ثيابه في ذلك اليوم.

كانت حوران والجولان وشرقي الأردن، من مساكن الغساسنة التي امتدت في أيام الحارث حتى شملت سائر أراضي البادية الواقعة شمال شرقي وجنوب طريق ديوكليسيان الذي يصل بين دمشق وتدمر حتى الفرات وضمت قصر الحير والضمير وجلق والكسوة وتل الجابية في أيام الحارث والمنذر.

ويبدو أن جلق (وهي مدينة حرستا) كانت المقر أو بعارة أصحاب المعسكر الرئيسي الذي تتمركز فيه قوى المملكة فتكون ظهورهم محمية بجبال القلمون، مع أن بصرى كانت عاصمة الولاية التي يسكنها الغساسنة إلا أن وجود معسكر أجنبي جعل الغساسنة يتعدون عن سكنها كي لا يبقوا تحت رحمة القوى البيزنطية بالنظر لما كان يعترى علاقاتهم مع حكام هذه القرى من تصدع وما يقع بينهم من منازعات وحروب، لذا كانوا يفضلون حياة المعسكرات المحصنة حيث تمكنهم الحياة فيها بصورة تتفق مع نزعتهم الى الفروسية والانطلاق بين أحضان الطبيعة.

ولا مجال للشك في أن الغساسنة أثبتوا وجودهم كقوة لها شأنها في تقرير مصير القطر السوري خلال المرحلة التاريخية التي مرت بها البلاد بين عام (٥٢٨ - ٥٨٢) م وفي هذه الأثناء أصبحت بصرى أسقفية لبلاد العرب واحتلت الدرجة الثالثة بين الأسقفيات، ومكانة دينية هامة ويمكن الاستدلال من بقايا الأبنية الدينية التي مازالت تكتظ بها المدينة، وقد اشتهر الكثر من أساقفتها الذين ساهموا في

المجتمع الإنطاكي والقسطنطيني والأفسي والخلكيديوني، وكانوا على صلة مع روما في بعض الأحيان.

ويظهر في الكتابات الأثرية أن المسيحية دخلت إلى بصرى والولاية العربية ببطء، ففي مطلع القرن الرابع قبل الميلاد كان معظم أهالي بصرى يمارسون الشعائر الوثنية، وإذا أخذنا بما يقال عن اعتناق الامبراطور فيليب العربي للديانة المسيحية، فإن عبادة الأوثان بقيت شائعة في بلده في مطلع القرن الخامس الميلادي، حيث كانت الطقوس الوثنية لا تزال سائدة بين سكان بصرى مما دفع الامبراطور جوستنيان لأن يطلب من حاكم الولاية العربية مراقبة الاحتفالات الوثنية التي تقام في المدينة وفرض النظام خلال مواسمها.

وجاء في نصوص بيزنطية أن الحارث الغساني طلب من الامبراطور تيودور خلال زيارته للقسطنطينية في عام (٥٤٣م) للتوسط برسم أسقف عربي لمدينة بصرى بعد أن شرد أساقفة الولاية وأقفلت ديارهم لقولهم بالطبيعة الواحدة. وتمكن الحارث الغساني من الوصول إلى رسم أسقف عربي يدعى تيودر يتولى رعاية الكنائس اليعقوبية ويقيم في بصرى.

في أوائل الدعوة الإسلامية أخذ سكان بصرى يتناقلون فيما بينهم الأنباء التي تحملها قوافل الحجاز عن رسالة النبي محمد ﷺ، وأخباره وصموده في وجه الوثنيين، فأصبحوا ينظرون إليه كرسول إلهي لتخليصهم من شرور الروم وطغيانهم، وعند نزول القرآن الكريم، أخذت آياته تنتشر فأحدثت انقلاباً فكرياً وروحياً في نفوس السكان لأنهم كانوا ينظرون إلى عرب الجزيرة كأخوان لهم فشعروا بأن الإسلام هو دين فطرتهم.

يقول المطران فرانسوانو: «إن العرب المسيحيين قادوا الحملة الإسلامية إلى فتح بصرى، فكان البيزنطيون إذا ما استعادوا مدينة أو قرية ساعدت الجيوش العربية، ينتقمون من السكان»، ويقول أحد مؤرخي ذلك العهد، إن اللسان ليعجز عن وصف ما فعله الروم من الشرور عند انهزامهم.

كانت الرياسة قد انتهت إلى عمرو بن عمر مزيقيا، وهو عامر بن عامر بن ماء السماء ابن حارثة الغطريف بن امرئ القيس بن مازن بن الأزد بن الغوث بن كهلان بن سبأ وهي البلاد التي ذكرت في (القرآن الكريم) وقد ذكر أن عمرو بن عامر حين خرج من مأرب لم يزل مقيماً على هذا الماء إلى أن أدركه الموت وكان عمره ثمانمائة سنة.

الغساسنة: «نسبهم - ملوكهم - حضارتهم»

ينتسب الغساسنة إلى (مازن) الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يعرب بن قحطان ولد مازن، وإلى مازن ترجع جميع قبائل غسان.^(١)

وغسان ماء شربوا منه فسموا بذلك وهو ما بين (زبيد ورمع) وادي الآشوريين المسمى بارض يمن.

وفي ذلك يقول حسان بن ثابت الانصاري:

أما سألتَ فإننا معشرٌ نجبٌ الأزد نسبنا والماء غسان
شُم الأنوف لهم مجدٌ ومكرمةٌ كانت لهم كجبال الطود أركان

(١) المسعودي - مروج الذهب.

قدم الغساسنة إلى بلاد الشام بعد انهيار سد مأرب العظيم الذي بناه نعمان الأكبر العادي.^(١) جاء الخلف فأهملوا السد والعناية به، وغلب عليهم الترف والدعة، ففاجأهم السيل العرم وانهار السد، فخرّب كل شيء، وأتى على كل شيء، فتنفرت القبائل في البلاد، وسارت غسان إلى الشام، ويسمى الغساسنة أيضاً بآل جفنة أو أولاد جفنة لأن أول ملوكهم هو جفنة بن عمر مزيقياء بن عامر، ويفسر الأخباريون سبب تسمية عمر بن عامر ب (مزيقيا) بتفاسير عديدة، منها قول حمزة الأصفهاني: وتزعم الأزدي أن عمر إنما سمي مزيقياء لأنه كان يمزق كل يوم من سني ملكه حلتين لثلا يلبسهما غيره، فسمي مزيقياء، وسمى ولده المزاقيّة فهذا قول، وقيل (إنما سمي مزيقياء لأن الأزدي تمزقت في عهده كل ممزق عند هروبهم من سيل العرم، ويعتقد فولدكه بأن التفسير الأخير هو الأصوب، فهو يرى أنه مأخوذ من الآية الكريمة ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩].

حضارة الغساسنة:

لم يتخذ الغساسنة عاصمة ثابتة لهم بل كان مقرهم في أول الأمر عبارة عن معسكر متنقل، ثم اتخذوا (الجابية) قرب مرج الصفر شمال حوران عاصمة لهم، واتخذوا دمشق عاصمة لملكهم، وكان مقر اصطيافهم في (جلق - حرستا) ثم اتخذوا من بصرى الشام مقراً دائماً وعاصمة لملكهم.

(١) نعمان الأكبر العادي هو نعمان بن عاد بن عادية الذي عمر عمر النصور في ارض سبأ وهذا هو الذي كان يرد عنهم السيل فيما سلف من دهرهم ويستفيدون من مياهه في سقاية اشجارهم ومزروعاتهم حتى اصبحت تلك البلاد جنات وغيطانا ومروجا وبنيانا وشجر مصفوف.

وأقام الغساسنة حضارة نمت وترعرعت، واستفادوا من الحضارات الآرامية والرومانية والساسانية وغيرها في إنشاء المباني والقصور والمسارح، وحفلت قصورهم بالجواري الروميات والمغنين من مكين وبابليين ويونان وبالموسيقين من كلا الجنسين،^(١) ولم يهمل الغساسنة الزراعة، فكانت أراضيهم خصبة متوفرة فيها المياه التي استغلوها أحسن استغلال، فعمرروا القرى والضياع، واعتنوا بزراعة الحبوب في الدرجة الأولى، وأقاموا العمائر على السفوح الشرقية والجنوبية بحوران، على حد قول الأصفهاني - فكانت القصور والكنائس والأبراج والأديرة والقناطر التي لم يبق منها إلا الأطلال القليلة، مثل قصر المشتى وكنيسة الرصافة التي تحمل كتابة ذكر فيها اسم المنذر بن الحارث (٥٦٨-٥٨٢ م) مما يدل على أنه هو الذي بناها، وهي مبنية على الطراز السوري الصرف، وتشبه قواعد أعمدتها أعمدة جبل سمعان، ومنها برج حجري في قرية الضمير الحالية، وهي برج جانبي لبناء زال ولم يبق له أثر، ومنزل في منحدرات حوران الشمالية جاء في نقش فيه أنه بني في عهد المنذر بن الحارث، وكذلك الدير ذي البرج الموجود في قصر الحير الغربي، وهو بناء الحارث بن جبلة (٥٩٩ م).

(١) يصف شاهد عيان مجلس جبلة بن الایم بقوله: فلما دخلت عليه إذا هو في بهو عظيم وفيه من التصاوير مالا أحسن وصفه. وإذا هو جالس على سرير من قواريق قوائمه أربعة أسد من ذهب، وإذا هو برجل أصهب ذو سبال وعثنون، وقد أمر بمجلسه فاستقبل به وجه الشمس فيما بين يديه آنية الذهب والفضة ثم يصف شرابه وجواريه وإطلاق الطائر الأبيض الممرغ بالمسك والعنبر بين يديه، ووصف غناء الجواري بشتى أنواع الغناء والطرب.

ويمكن أن يكون البناء الموجود في قلعة عمان، وقلعة القسطل من بناء الغساسنة، وقصر حارب وقصر السويداء، أما لغة الغساسنة فهي العربية الشمالية، وكانت كتاباتهم بالآرامية (السريانية) في المعاملات والمراسلات، وكان بلاطهم يعج بالشعراء والأدباء وكانوا يغدقون عليهم بالعطايا والهبات، وهناك الكثير من الكتابات عن حياة وقصور الأمراء والملوك الغساسنة المتأخرين في أشعار الشعراء العرب في الفترة السابقة لظهور الإسلام كالنابغة الذبياني وحسان بن ثابت وغيرهما، وكان الغساسنة يدينون بالنصرانية على مذهب الطبيعة الواحدة.

ويذكر أحمد أمين في موسوعته الإسلامية أن الغساسنة كانوا أرقى عقلية من عرب الحيرة لأنهم كانوا أقرب اتصالاً بالثقافة اليونانية والمدنية الرومانية، وكان شعراء العرب يفدون إليهم فيحسنون وفادتهم وقد وفد عليهم النابغة الذبياني والأعشى والمرقش الأكبر وعلقمة الفحل وفيهم يقول حسان بن ثابت:

لله دُرٌّ عَصَابَةٌ نَادِمَتُهُمْ	يَوْمًا بَجَلَقٍ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ
يُغْشَوْنَ حَتَّى مَاتَهُمْ كَلَابُهُمْ	لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبَلِ
الضَّارِبُونَ الْكَبْشِيغَ بِيضَهُ	ضَرَبَ بَايَطِيحَ لَهُ بَنَانُ الْمَفْصَلِ
الْخَالِطُونَ فَقِيرَهُمْ بَغْنِيَهُمْ	وَالْمُنْعَمُونَ عَلَى الْفَقِيرِ الْمَرْمَلِ
أَبْنَاءُ جَفْنَةٍ عِنْدَ قَبْرِ أَبِيهِمْ	قَبْرِ مَارِيَةَ الْجَوَادِ الْمَفْضَلِ
يُغْشَوْنَ حَتَّى مَاتَهُمْ كَلَابُهُمْ	لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبَلِ
بِيضُ الْوَجْهِ كَرِيمَةٌ أَحْسَابُهُمْ	شُمُّ الْأَنْوَفِ مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ

وهناك القصص والأساطير والأمثال التي قيلت في الغساسنة، كالذي ذكر من حكاية امرئ القيس وإيداعه مائة درع عند السموع فطلبها ملك من ملوك الغساسنة فأبى أن يعطيها إياه فذبح ابنه، أمام عينيه، ولكنه لم يخفر ذمته ولم يُضغ أمانته.

وللنابغة الذبياني دُررٌ قالها في الغساسنة، ومنها ما قاله في النعمان بعد موته:

فلا يهنأ الأعداء مصرع ملكهم وما عتقت منهم تميم ووائل
وكانت لهم ربيعة يحذرونها إذا خضخضت ماء السماء القبائل
يسير بها النعمان تغلي قدوره تجيش بأسباب المنايا المراحل

إلى أن قال:

فأب مصلّوه بعين حلية وغودر بالجولان حزم ونائل
سقى الغيث قبراً بين بصرى وجاسم بغيث في الوسمي قطر ووابل
ولا زال ريحان مسك وعنبر على منتهاه ديمة ثم هاطل
بكى حارث الجولان من فقد ربه وهوران منه موحش متضائل

حوران في عهد الغساسنة:

ينتسب معظم سكان حوران اليوم إلى الغساسنة ويفخرون بهذا الانتساب، ففي الوقت الذي كانت فيه الدولة التدمرية آخذة بالزوال في أواخر القرن الثالث الميلادي، كانت إحدى القبائل العربية الجنوبية تشق طريقها إلى حوران، هؤلاء هم بنوا غسان من الأزد، الذين يعود سبب رحيلهم إلى تصدع قديم في سد مأرب وقد قاد خروجهم من اليمن عمرو المعروف بميزيقاء من الأزد، وسمي الغساسنة

بآل جفنة وبأولاد جفنة لانتسابهم إلى جفنة بن عمرو وميزيقياء، وسمو بآل غسان لنزولهم على نبع ماء اسمه غسان كما أسلفنا.

وفي حوران صادفوا سكاناً عرباً أتوا قبلهم هم الضجاعم من قبيلة سليم، وقد فرضت الضجاعم على الغساسنة الأتاوة وقرر هؤلاء التخلص من دفعها، فلما جاءهم سبيط ممثل الضجاعم يطلب الأتاوة أحالوه إلى جذع بن عمرو وكان بطاشاً، فأعطاه سيفه رهناً ريثما تجمع له الضريبة وسلمه السيف فأخذه سبيط من غمده في حين أن جذع سل النصل من الغمد وقتله، فصارت مثلاً «خذ من جذع ما أعطاك»، وقد تنصر الغساسنة خلال القرن الرابع الميلادي، وفي التواريخ العربية يختلف عدد الملوك بين إحدى عشر واثنين وثلاثين، فيما تهتم التواريخ البيزنطية بصورة رئيسية بعلاقاتهم مع القسطنطينية ولا يعرف بشكل كامل سوى تاريخ الملوك الخمسة الذين شمل حكمهم القرن السادس الميلادي وأشهرهم:

- الحارث بن جبلة (٥٢٩-٥٦٩م) الذي يظهر لأول مرة وهو يحارب المنذر الثالث اللخمي ملك الحيرة، واعترافاً بخدمات الحارث الثالث عند الامبراطور جستنيان عينه في العام التالي سيّداً على كل القبائل العربية في سورية، ومنحه لقب رئيس قبيلة وبطريق وترجم العرب هذه الألقاب بمعنى (ملك) أو ربما اعتبر ملوك الغساسنة أنفسهم خلفاء ملوك الأنباط.

- المنذر بن الحارث (٥٦٩ - ٥٨٠م) الذي خلف أباه وسار على خطاه، ولكن مناصرة الغساسنة لمذهب الطبيعة الواحدة اليعقوبي أثارت فترة من الجفاء بينه وبين الامبراطور، ولكن سويت الأمور بعدها وقام المنذر مع ولديه بزيارة للعاصمة البيزنطية حيث استقبله طييريوس وأحسن وفادته وخلع التاج على رأسه، ولكن

بعد سنين نفي المنذر مع أسرته إلى صقلية وانتهت جميع العلاقات الودية مع البيزنطيين، وسادت فترة حكمهم الفوضى، وقام النعمان بن المنذر خلالها بعدة غزوات من البادية على سورية البيزنطية ليثأر لأبيه ولكن البيزنطيين أبعده إلى القسطنطينية، وتجزأت المملكة إلى أقسام، يرأس كلًا منها أمير، وتحالف بعض الأمراء مع الدولة الفارسية، وحافظ البعض الآخر على استقلاله، فيما بقي قسم منهم بجانب بيزنطة، وبقيت الفوضى حتى احتلت الدولة الفارسية سورية (٦١١-٦١٤م) ويحتمل أن يكون هرقل قد أعاد السلالة القديمة حين طرد الفرس، وكان جبلة بن الأيهم آخر أمرائهم، جبلة بن الأيهم: لقد اعتنق الإسلام فيما بعد وارتد عنه، ويروى أنه أثناء حجه الأول وطى بدوي من فزارة على أزاره فصفعه فشكاه هذا إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فحكم بدوره على الأمير بالقود (أي بالقصاص) أو أن يرضي الرجل فما كان من جبلة إلا أن انسحب إلى بيزنطة مرتدًا.

أبهة بلاط الغساسنة:

لقد خلدت فخامة بلاط آل جفنة في دواوين شعر الجاهلية الذين وجدوا في أمرائه حماة أسخياء وكان أحد هؤلاء الشعراء النابغة الذبياني الذي نال عطف الغساسنة، وأغدقوا عليه الكثير من نعمهم وكان يرد على ذلك بالتغني بمجدهم ومدحهم كما يمجّد إقدامهم في الحرب.

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم	بهن فلول من قراع الكتائب
لهم شيم لم يعطها الله غيرهم	من الجود والأحلام غير عواذب
حبوت لها غسان إذ كنت لاحقًا	بقومي إذ أعيت علي مذهب

وذكر صاحب العقد الفريد:

قال العجيلي: حدثني أبو الحسن علي بن أحمد بن عمرو بن الأجدع الكوفي (بهيت) قال: حدثني مولى بني هاشم قال: حدثنا ثقات شيوخنا: «وأعظم هرقل قدوم جبلة وسر بذلك، وأقطعه الأموال والأرضين، فلما بعث عمر بن الخطاب رسولاً إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام وقبل أن يكتب جواب عمر، قال للرسول: ألقيت ابن عمه هذا الذي ببلدنا - يعني جبلة - الذي أتانا راغباً في ديننا، قال: ما لقيته، قال: ألقه ثم اثنتيني أعطك جواب كتابك، وذهب الرسول إلى باب جبلة، فإذا عليه من الحجاب كثرة الجمع مثل ما على باب هرقل، قال الرسول: فلم أزل أتلطف في الإذن حتى أذن فدخلت عليه فرأيتَه جالساً على سرير قوائمه أربعة أسود من ذهب، فلما عرفني رفعني معه في السرير، فجعل يسألني عن المسلمين وقد ذكرت خيراً، فقال كيف تركت عمر بن الخطاب؟ قلت: بخير، فرأيت الغم قد تبين فيه لما ذكرت من سلامة عمر، قال: فانهدرت عن السرير، فقال: لم تأبى الكرامة التي أكرمناك بها؟ قلت: إن رسول الله نهى عن هذا. قال نعم ﷺ، ولكن نق قلبك من الدنس، ولا تبال علام قعدت؟ فلما سمعته يقول ﷺ طمعت فيه، فقلت له، ويحك يا جبلة. ألا تسلم وقد عرفت الإسلام وفضله؟ قال: أبعد ما كان مني، قلت نعم، قد فعل رجل من بني فزارة أكثر مما فعلت، ارتد عن الإسلام وضرب وجوه المسلمين بالسيف ثم رجع إلى الإسلام وقبل منه ذلك، وخلفته بالمدينة مسلماً، قال ذرني من هذا، إن كنت تضمن لي أن يزوجني عمر ابنته ويولينني الأمر من بعده رجعت إلى الإسلام، قال ضمنت لك التزويج، ولم أضمن لك الأمر، قال: فاوماً إلى خادم بين يديه فذهب مسرعاً، فإذا خدم قد جاؤوا يحملون الصناديق فيها الطعام، فوضعت

ونصبت موائد الذهب وصحاف الفضة وقال لي كُلْ: فقبضت يدي وقلت إن رسول الله نهى عن الأكل بآنية الذهب والفضة، وأكلت في الخليج الجفنة فلما رفع الطعام فإذا خدم معهن الكراسي مرصعة بالجواهر فوضعت عشرة عن يمينه وعشرة عن يساره، ثم سمعت حسًا فإذا عشر جوار قد أقبلن مطمومات الشعر (مجزآت الشعر ومقصوصات) متكسرات في الحلي عليهن ثياب الديباج فلم أر وجوها قط أحسن منهن، فإقعدن على الكراسي عن يساره، ثم سمعت حسًا، فإذا جارية كأنها الشمس حسنا، وعلى رأسها تاج، وعلى ذلك التاج طائر لم أر أحسن منه، وفي يدها اليسرى جام فيه ماء ورد، فاضطرب فيه ثم أومأت إليه، وقال فصبرت به، فطار حتى نزل على صليب في تاج جبلة، فلم يزل يرفرف حتى نفص ما في ريشه عليه، وضحك جبلة من شدة السرور حتى بدت أنيابه، ثم التفت إلى الجواري اللواتي عن يمينه فقال: بالله أطربنني، فاندفعن يتغنين ويخفقن بعيدهن، وتابع يقول: ثم سألني عن حسان أحبي هو؟ قلت: نعم تركته حيًا، فأمر لي بكسوة ومال ونوق ثم قال لي: إن وجدته حيًا فادفع له هذه الهدية وأقرئه سلامي، وإن وجدته ميتًا فادفعها إلى أهله وانحر الجمال على قبره، فلما قدمت على عمر أخبرته عن جبلة وما دعوته إليه من الإسلام والشرط الذي شرطه، وإني ضمننت له التزويج، ولم أضمن له الأمرة، فقال: هلا ضمننت له الأمرة، فإذا أفاء الله به الإسلام قضى عليه بحلمه ﷺ، ثم ذكرت له الهدية إلى حسان بن ثابت، فبعث إليه، وقد كف بصره فأتى به وقائد يقوده، فلما دخل قال: يا أمير المؤمنين إني لأرى رياح آل جفنة عندك، قال نعم، هذا رجل أقبل من عنده، قال هات يا ابن أخي، إنه كريم من كرام مدحتهم في الجاهلية فحلف أن لا يلقي أحدًا يعرفني إلا أهدي إلي شيئًا فدفعت إليه الهدية المال والثياب، وأخبرته

بما كان أمر به في الإبل إن وجد ميتا فقال: وددت أني كنت ميتا فنحرت على قبري، وانصرف حسان يقول:

إن ابن جفنة من بقية معشر لم يغذهم أبأؤهم باللوم
لم ينسني بالشام إذ هو بها ملكا ولا متنصرا بالروم
يعطي الجزيل ولا يراه عنده إلا كبعض عطية المذموم

فقال له رجل في مجلس عمر: أتذكر ملوكا كفرة أبادهم الله وأفناهم: قال: من الرجل؟ قال: مني قال: أما والله لولا سوابق قومك مع رسول الله ﷺ لطوقتك طوق الجماعة، قال: ثم جهزني عمر إلى قيصر وأمرني أن أضمن لجيلة ما اشترط به، ثم قدمت القسطنطينية وجدت الناس منصرفين من جنازته.

ملوك غسان على الشام:

يذكر المؤرخون أن الضجاجة لم يقض عليهم نهائيا بل ظلوا مقيمين في مواضع أخرى من حوران، وأن جماعة منهم كانوا قد حاربوا خالد بن الوليد في قضيم ودومة الجندل.

بعد انتصار الغساسنة وتسلمهم السلطة، كان أول ملوكهم هو جفنة بن عمر بن مزقياء. قال المسعودي إن أول ملوك الغساسنة هو الحارث بن عمر بن عامر، ويذكر الأصبغي عن جفنة بن عمر بأنه أقبل على بنيه فقال لهم: (يا بني تنافسوا في المكارم وتجنبوا ما يبعدكم عنها، فإني أخالكم دون الناس ملوكا، ولا يكون الملك ملكا حتى يكون منصفاً وعادلاً للأموال باذلاً، ويكون شجاعاً مقاتلاً، عليها حكيماً لبيباً حليماً رؤوفاً رحيماً. لا غشوماً ولا ظلوماً، لقد رأيت فيكم

هذه الخصال التي عدتها ثم إني وآيم الله، أعرفكم بها دون الناس ولقد سرت بملككم قبل أن تولدوا، فياليت من أشهدني يومئذ من أعمامي وأخوالي، كان شاهداً لي في يومي هذا، ثم قال شعراً:

ياليت ثعلبة بن عمرو لم يمت	بل ليت ثعلبة بن عمرو ينشر
ظني - بني - بكم وظني ظن من	يعطيكم النبأ الصحيح ويخبر
إن سوقا يحوى الشام منكم تسعة	بهم الأسرة والمنابر تصحر
وإليهم تجبى الأتاوات التي	من قبل كانت تجنيها حير

ثم ملك ولده عمرو بن جفنة بعده، وأصبح ثاني ملوك الغساسنة، وحكم خمس سنين وبنى أديرة (دير حالي - دير ايوب - دير هناد) ثم خلفه ثعلبة بن عمرو، ثالث ملوك الغساسنة، وهو الذي بنى عقة، وصرح الغدير في أطراف حوران مما يلي البلقاء، وحكم سبع عشرة سنة، وجاء بعده ولده الحارث بن ثعلبة، وحكم عشرين سنة، ثم خلفه ولده جبله بن الحارث الذي بنى القناطر وأدراج القسطل، وخلفه ابنه الحارث بن جبلة، وكان عاملاً للروم، حكم من (٥٦٩-٥٢٩) م وأنه من أول ملوك أو أمراء الغساسنة العظام، وقالوا: أنه ابن مارية ذات القرطين بنت عمر بن جفنة، وكان مسكنه بالبلقاء، وبنى فيها الحفير، وموضعه - بين دعجان وقصر أبير ومعان، وكان ملكه عشر سنين.

حارب الحارث المنذر بن ماء السماء، ملك الحيرة، وانتصر عليه سنة (٥٢٨) م، وكان معاصراً للامبراطور جوستنيان، الذي حكم من (٥٢٧-٥٦٥) م، وقد منح الامبراطور جوستنيان الحارث لقب الملك وعد بذلك أول من منح هذا اللقب، وقد بسط سلطته على عدة قبائل عربية، وكان هدف جوستنيان أن يجعل من

الحارث بن جبلة خصمًا قويًا قادرًا على مجابهة المنذر ملك الحيرة، ولا شك أن المؤرخين المستشرقين مثل فولدكه وغيره يحاولون التشكيك في لقب الملك وتعظيم شأن الامبراطور جوستنيان.

لكن المؤرخين العرب يعدونه ملك عرب الغساسنة. وهذا هو الأصوب.

بعد أن انتصر الحارث بن جبلة على المنذر بن ماء السماء، قام الفرس بغزو شمال سورية، واستولوا على الرها ومنبج وقنسرين وإنطاكيا، واستمر النزاع بين الغساسنة والمناذرة، وخاصة على الأراضي الواقعة جنوب تدمر، فقد ادعى أمير الحيرة، أن القبائل العربية النازلة في تلك الأراضي خاضعة لسلطته، وهي تدفع له الجزية، وادعى الملك الغساني مثل ذلك، ونشب القتال بينهم، وقد حارب الحارث في العراق إلى جانب الروم ضد الفرس تحت قيادة بليزارسوس، وقد ارتد الحارث بعد عبوره دجلة، اثر خلاف بينه وبين القائد البيزنطي، وفي سنة (٥٤٤ م) حارب الحارث المنذر بن النعمان بن ماء السماء، وهزم وأسر ابنه في يد المنذر، فقدمه المنذر أضحية للآلهة، بعد هذه الهزيمة جمع الحارث قواته واشتبك مع المنذر في موقعة انتهت بهزيمة المنذر وفراره من المعركة وأسر ولديه.

لقد استمر النزاع بين أبناء العمومة - الغساسنة والمناذرة - رغم الهدنة التي عقدت بين الروم والفرس عام (٥٤٦) م وانتهى النزاع بين الغساسنة والمناذرة بانتصار الحارث بن جبلة على خصمه في حزيران (٥٥٤) م في معركة قرب قنسرين،

وقتل فيها المنذر نفسه وخسر الحارث ابنه،^(١) وقرر بعدها الحارث أن يذهب إلى القسطنطينية ليقرر مع السلطة الرومانية كيفية مواجهة ملك المناذرة عمرو بن المنذر، وتحقق له ذلك، بعد مقابلة الامبرطورة (تيودورة) حيث عينت يعقوب البرادعي مؤسس الكنيسة اليعقوبية القائلة بالطبيعة الواحدة، ورفيقه تيودوروس، أساقفة في المقاطعات السورية، وبذلك ظل الحارث طيلة مدة حكمه حاميا للكنيسة المنوفيزية (اليعقوبية) وتوفي سنة (٥٦٩) م بعد ان حكم حوالي اربعين سنة، وكان للحارث منزلة عند العرب وكان أشهر ملوك بني جفنة، ثم خلف الحارث ابنه المنذر، ودام ملكه ثلاث سنين، وهو بطل موقعة (عين أباغ) التي ذكرها المؤرخون خطأ أنها وقعت في سورية^(٢)، إذ أن موقعة (عين أباغ) حدثت في موضع بعيد عن سورية سنة (٥٧٠ م) في أوائل حكم المنذر بن الحارث، انهزم فيها جيش المناذرة اللخميون هزيمة نكراء وقد قتل المنذر ملك الحيرة في هذه الموقعة (والذي قتل في موقعة مرج حليمة هو المنذر بن ماء السماء، وعمر بن المنذر هو عمر بن هند، وهو نفسه عمرو بن كلثوم التغلبي)^(٣).

وعلاقة المنذر بن الحارث لم تكن حسنة مع الامبراطور البيزنطي جستين (٥٦٥ - ٥٧٨) م بل كانت سيئة حيث يذكر أن الامبراطور الروماني كان قد أوعز إلى البطريك (مرقيانوس) بأن يعمل على قتل المنذر بن الحارث، في الوقت الذي كان

(١) قيل إن هذه المعركة كانت قد حدثت بالقرب من الحيار. ويعتقد ان الحيار وحليمة موقعة واحدة وهي الموقعة التي قتل فيها المنذر بن النعمان ملك الحيرة، وليست معركة أباغ التي وقعت قرب الحيرة ويؤكد ذلك قول النابغة.

(٢) احمد اسماعيل علي - تاريخ بلاد الشام القديم.

(٣) ابن الاثير.

فيه المنذر على حذر من خصمه، وسبب الخلاف كان في تعصب المنذر للمذهب اليعقوبي، ففر إلى البادية وشق عصا الطاعة مدة ثلاث سنوات، وقد انتهز المناذرة الفرصة وأخذوا يشنون الغارات على سورية، لذلك كان لابد للروم من استرضاء المنذر بن الحارث ومصالحته، وقد تم ذلك في بلدة الرصافة.^(١)

بعد ذلك قام المنذر بن الحارث بزيارة الامبراطور (طيباريوس الثاني) الذي حكم في الثامن من آذار (٥٨٠) م وبرفقته ولديه واستقبل استقبالاً حافلاً، وأنعم عليه الامبراطور بالتاج بدلاً من الإكليل، ولكن الخلافات عادت من جديد بين المنذر والروم، واشتدت عندما عزم الروم على غزو بلاد فارس بالاشتراك مع المنذر (٥٨٠م) فوجدوا الجسر الكبير المقام على الفرات مهدماً مما اضطرهم للعودة، وقد اعتبروا أن هناك تواطؤ، غير أن المنذر أراد أن يثبت براءته، فقاد قواته وأغار على اللخمين المناذرة وأحرق الحيرة، فأطلق عليه لقب المحرق، لكن الروم عدوا هذا العمل تحدياً لهم فقرروا الانتقام منه، وصدرت الأوامر إلى حاكم سورية الروماني (ماجوس) بالقبض على المنذر مع ولديه وزوجته وأرسلوا إلى القسطنطينية.

وعندما تولى موريق السلطة الرومانية عام (٥٨٢ _ ٦٠٢) م، وكان على خلاف مع المنذر فأمر بنفي المنذر إلى جزيرة صقلية، وأمر بقطع المعونة السنوية التي كانت ترسل إلى ملوك الغساسنة. وقد أثار هذا التصرف غضب الغساسنة وخرج ملوكهم وأمراؤهم عن سلطة الرومان وتركوا ديارهم وتحصنوا بالبادية واتخذوها مركزاً لشن الغارات على الروم، وقد تعرضت بصرى لغاراتهم، فاشتد غضب

(١) ابن الاثير.

(موريق) وأعد حملة غايتها تأديب الغساسنة، وجعل قيادتها لحاكم سورية (ماجينوس) ومعه أحد أبناء المنذر لكن هذه الحملة فشلت.

وقد خلف المنذر النعمان بن الحارث الذي ملك بعد أخيه الحارث ثم هلك وكان ملكه خمس عشرة سنة^(١)، والمنذر قبض عليه الروم بالخدعة وأرسل إلى القسطنطينية، وقد تفرق الغساسنة وانقسموا إلى خمس عشرة فرقة بعد اعتقال المنذر (٥٨٣) م،^(٢) وقد اختلف المؤرخون في أسماء حكام دولة الغساسنة بعد المنذر، وأدى دخول الفرس إلى بلاد الشام إلى القضاء على ملوك الغساسنة وتفرقهم،^(٣) بينما يؤكد الأصفهاني يقول: أن الحارث بن جبلة كان مسكنه بالبلقاء، أما جبلة بن النعمان فممنزله كان بحارب، ومنزل عمر بن الحارث هو الدير، وجبلة بن النعمان فممنزله بصفين.

يَوْمًا حَلِيمَةً كَانَ مِنْ قَدِيمَةٍ وَعَيْنَ بَاغٍ فَكَانَ الْأَمْرُ مَا إِمْتَرَا
يَا قَوْمِ إِذْ بَنَى هُنْدٌ غَيْرَ تَارِكِكُمْ فَلَا تَكُونُوا الْأَدْنَى وَقَعَةً جُزْرَا

ومنزل الحارث بن جبلة في باب الجابية، وأيهم بن جبلة هو صاحب تدمر وقصر بركة، وبهذا يتبين أن الغساسنة تشتتوا وتفرقوا وضاع ملكهم.

ويتابع الأصفهاني في سرد بقية ملوك الغساسنة، فيذكر الملك المنذر بن الحارث أو المنذر الأصغر أبا شمر بن الحارث الذي مات بعد أن حكم ثلاث عشرة سنة، وحكم بعد جبلة بن الحارث حيث كان منزله بحارب وقد بنى قصر حارب،

(١) الاصفهاني.

(٢) كما يذكر نولدكه.

(٣) حسب رأي احمد اسماعيل على.

وحكم أربعاً وثلاثين سنة، ثم خلفه الأيهم بن الحارث وبعده أخوه عمر بن الحارث ابن مارية، حيث نزل الدير وبنى قصر منار وقصوراً أخرى، ثم مات بعد أن حكم ستاً وعشرين سنة وشهرين. ثم خلفه جفنة الأصغر بن المنذر بن الحارث، وهو من أحرق الحيرة وبه سمو آل محرق، وقد حكم ثلاثين سنة، خلفه النعمان بن المنذر الأصغر ابن المنذر الأكبر، وبقي سنة واحدة في الحكم، وحكم بعده النعمان بن عمرو بن المنذر وهو من بنى قصر السويداء، وقصر حارم، وحكم سبعاً وعشرين سنة، وحكم بعده جبلة بن النعمان وكان منزله بصفين وهو صاحب عين أباغ، وقاتل المنذر بن ماء السماء ودام حكمه ست عشرة سنة، وخلفه النعمان بن الأيهم بن الحارث إحدى وعشرين سنة ثم الحارث بن الأيهم حكم اثنتين وعشرين سنة وخمسة أشهر، وتولى الحكم من بعد النعمان بن الحارث الذي حكم ثماني عشرة سنة وهو الذي أصلح صهاريج الرصافة.

ويتابع الأصفهاني فيقول: حكم بعد المنذر النعمان مدة تسع عشرة سنة ثم أخوه عمر بن النعمان ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر، ومن بعده أخوه حجر بن النعمان مدة اثنتي عشر سنة، وبعده حكم الحارث بن حجر ستاً وعشرين سنة، وبعده جبلة بن الحارث سبع عشرة سنة وشهراً، ومن بعده الحارث بن أبي شمر (الحارث بن جبلة) وهو من أوقع ببني كنانة وكان يسكن الجابية وحكم إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر، وحكم بعده النعمان بن الحارث، وكنيته أبو كرب مدة سبع وثلاثين سنة وشهرين، ومن بعده المنذر بن جبلة ثلاث عشرة سنة، وبعده أخوه شراحيل بن جبلة خمس وعشرين سنة وثلاثة أشهر، وخلفه أخوه عمر بن جبلة مدة عشر سنين وشهرين، ثم جبلة بن الحارث أربع سنين، ومن بعده جبلة بن الأيهم بن مارية وهو الذي حارب الفرس إلى جانب الامبراطور (هيراكليس) لاسترداد

الأراضي التي اغتصبها الفرس في بلاد الشام وغيرها ولإعادة نصب الصليب المقدس الذي نهبه الفرس من القدس في إحدى حملاتهم السابقة.

ولما جاء الإسلام واندفع المسلمون يدعون عروش القياصرة والأكاسرة لينشروا الدين الجديد وتعاليمه السمحة، وليستعيدوا أرض العرب وقيموا دولتهم الجديدة، وقف الغساسنة إلى جانب الروم في حروبهم ضد المسلمين.

وفي سنة (٦٣٦ م) انتهت دولة الغساسنة على يد سيف الله المسلول خالد بن الوليد في معركة اليرموك ومرج الصفر ودومة الجندل، وقد انضم جيلة بعد ذلك إلى المسلمين وأعلن إسلامه وزار المدينة المنورة، ثم ما لبث أن ارتد عن الإسلام بعد الحادثة المشهورة مع الخليفة عمر بن الخطاب، خوف العار والقود من اللطمة^(١).

حوران في العصر الجاهلي:

لعبت حوران دورًا اقتصاديًا فهي سوق كبيرة ترتادها القوافل من كافة أنحاء الجزيرة العربية، بعد الانتهاء من أسواق الحجاز، وكانت أشهر الأسواق:

(١) سبب ردة جيلة انه ذهب ليؤدي فريضة الحج ومعه جمع غفير من قومه، وبينما هو في الطواف إذ وطئ رجل فزاري طرف أزاره فانحل، فغضب جيلة ولطم الفزاري لطمة شديدة هشم بها أنفه. فتعلق الرجل به وقاده الى عمر وشكاه اليه، فقال له عمر: إما ان يلطمك كما لطمته واما ان تفتدي منه بالمال، فقال جيلة كيف هذا وانا ملك وهو سوقة؟ فقال عمر: الاسلام سوى بينكما. فقال له انتصر. فقال عمر إن تنصرت ضربت عنقك. فقال انظرني ليلتي فاجاب طلبه. فلما كان الليل هرب هو ومن معه وتنصر. ويقال انه ندم على ما فرط منه وانه انشد ابياتا منها (فياليت امي لم تلدني وليتني رجعت إلى القول الذي قاله عمر.

سوق دير أيوب: (دير أيوب قرية بحوران يزعمون أنها كانت سكن النبي أيوب عليه السلام، وأن الله ابتلاه فيها، كما يزعمون أيضا أن العين فيها هي التي ركضها برجله.^(١) أما القرية فهي إلى شمال غرب بصرى وأذرعات، وتعرف اليوم باسم الشيخ سعد، ولا يزال فيها إلى اليوم مقام النبي أيوب، وفيها العين التي أشار إليها ياقوت الحموي، وهي من القرى الصغيرة في حوران قليلة النفوس والشأن، ويظهر أن لها شأنًا كبيرًا في القديم يقارب ما لبصرى، فقد هبطتها بعثة أثرية تشيكية عام (١٩٣٤) م، ونقبت في تربتها فعثرت على آثار رومانية قديمة حملت إلى بلادها قسمًا مهمًا، وكان من جملة ما عثرت عليه آثارًا حثية ومصرية، وأبقت بضعة منها دار العظم بدمشق.

يذكر الطبري (لما انصرف مروان (الجعدي)^(٢) - المعروف بمروان الحمار - منهزمًا، جمع قومه وجنده، ومضى إليه أبو الورد فهزمه ثانية وتفرق من معه وأسر ثلاثة رجال من ولده، وهم نعيم وبكر وعمران فبعث بهم إلى مروان وهو بدير أيوب فأمر بمداواة جراحاتهم.^(٣)

وفي موضع آخر ذكر الطبري: أن مروان جعلها قاعدة حربية لتجهيز جنده وتبعهم إلى الأطراف المنتقضة).^(٤) ويتابع الطبري قوله في موضع آخر: (فأقبل نحو عشرة آلاف ممن كان مروان قطع عليهم البعث بدير أيوب لغزو العراق مع قوادهم

(١) ياقوت الحموي - معجم البلدان.

(٢) نسبة لمعلمه ومؤدبه جعد بن درهم.

(٣) جزء ٢، ٣، ٤ من تاريخ الطبري.

(٤) تاريخ الطبري.

حتى حلوا بالرصافة، وهذه السوق أو الأسواق في الشام قيامًا، فكان العرب وقريش إذا انتهوا من أسواقهم الموسمية في عكاظ ومجنة وذو المجاز وأنهوا حجهم ورجعت وفود البلدان، نظموا غيرهم وتهيئوا للسفر إلى الشام فأقاموا تجارتهم فيها وبدؤوا بسوق دير أيوب هذه، ومتى انتهت وانقضت اعتدوا سبعين يومًا ثم أقاموا.

سوق بصرى: وهي مشارف الشام وعاصمة حوران، من كبار مدن هذا الزمن الأطول قبل الإسلام حتى أن اسمها ليردد في كثير من أشعار العرب، وكان أهل الشام على علاقات عامة متواصلة مع سكان الحجاز لكثرة أسفار هؤلاء وتفاهمهم معًا باللغة العربية، وكانت بصرى كما ذكرنا في سطور سابقة أنها أول ما ضمت إلى الدولة العربية الإسلامية صلحًا بعد حصار قليل لما سار خالد بن الوليد من العراق لمدد أهل الشام وهم النزول ببصرى وضايقوا أهلها فصالحوهم عام (١٣٥م) على أن يؤدوا عن كل رجل دينارًا أو جريب حنطة ثم افتتح المسلمون حوران جميعها في نفس العام، ولم ينقطع قيام سوق بصرى بعد الإسلام بل زاد أمد قيامه، وكان العرب في الجاهلية إذا انتهوا في سوق دير أيوب أقاموا سوق بصرى الذي كان يشرف عليه الرومان، وتطول مدة هذه السوق طولًا يتناسب وما قطعوا في سفرهم إليها من زمن.

في القرن الخامس الهجري، ذكرها المزدقي فقال: (أدركتها تقوم خمسا وعشرون ليلة، وكانت تقوم بولاية بني أمية من ثلاثين إلى أربعين ليلة، وهي مدة طويلة ليس للعرب مثلها في عامة أسواقهم).

اشتهرت بصرى بنوعين من البضاعة اختصت بهما:

١- الخمر لأنها كانت من مدن الشام التي يحمل منها الخمر، ويكثر العرب من ذكرها قال ابو ذؤيب الهذلي يذكر خمرة بصرى:

سلافة راح ضمنتها أداة مقيرة ردف لمؤخرة الرحل

تزودها من أهل بصرى وغزة على جسة مرفوعة الذيل والكفل

قوافي بها عسفان ثم اتى بها مجنة تصفو في القلال ولا تعلي

٢- السيوف وقد اشتهرت بصرى بصنعها كما اشتهر كثير غيرها من قرى الشام التي تدنو من الريف حتى قيل للسيف (مشرقي) نسبة إلى مشارف الشام، وبصرى أحدها فتنسب إليها السيوف البصرية:

يعلون بالقلع والبصري هامهم ويخرج الفسو من تحت الدقارير

وكان أمر سوق بصرى من إشراف ومكس، يعود إلى عمال روما، وكثيرًا ما يكونون عربًا من غسان، وكان النبط كثيرًا ما يحملون تجارتهم بين الحجاز والشام وينقلون الأخبار بين البلدين ونجد لبصرى شهرة في الجاهلية ومثل هذه الشهرة لا نجدها في دمشق نفسها لأن بصرى كانت محط الرحال للتجار العرب من بلاد الشام، يقدمون إليها بحاصلات الحبشة والهند واليمن فكانت هذه العلائق سببًا في جريان الألسنة بذكرها دون دمشق، التي لا نكاد نعثر على ذكرها في الأشعار القديمة، ونظرًا لمركزها التجاري المهم كونها سوقًا عامة للقوافل، وتوسطها بين أماكن قبائل النبط والبدو وغيرهم، حصّنها الرومان وعنوا بها عناية فائقة، فهي قلعة الرومان في وجه البادية والصحراء ومقلهم يصدون منها ما قد تتعرض له من هجمات القبائل.

لقد انتظم سير القوافل العربية إلى بصرى قبل الإسلام بزمان طويل، وقد رحل إلى الشام عرب اليمن فسكنوها وما حولها بعد حادث سيل العرم، وكانت تُزعم لها الشهرة قبل هذا الحادث أيضًا.

جاء في كتاب الأغاني (لما أرسل الله سيل العرم على أهل مأرب قام رائدهم فقال من كان يريد الخمر والخمير والأمر والتأمر والدياج والحرير فليلحق ببصرى والخمير وهي ارض من الشام فكان الذين سكنوه غسان^(١)، ولما عظم أمر قريش صارت غيرهم تُردُّ بصرى في مقدمة ما ترد من مدن الشام وتعددت أسفارهم إليها، وليس في قريش تاجر رحل في تجارته إلا مرَّ إليها مرارًا وعرفها حق المعرفة، كما عرف أغلب مدن الشام فاستفادوا من خبرتهم بهذه الديار فوائد جلي عند بدء الفتوحات الإسلامية وفيها يذكر رواة الأخبار (احتفال العرب ببصرى وسوقها) وتدل كتب السيرة أن رسول الله ﷺ سافر إليها مرتين، مرة وهو طفل ومرة وهو تاجرا، ابن خمس وعشرين سنة، وتذكر الكتب اجتماعه بأحد الرهبان في دير هناك وأن الراهب دعا إلى وليمته من العير، وكان من زارها قبل البعثة بقليل الخليفة عثمان بن عفان لكي يقيم صلات تجارية مع تجارها، ويؤكد الأب رافس أنه عقدت مرارًا اتفاقات تجارية بين تجار مكة والموظفين الإداريين بمدينة بصرى، وكل ما ذكر يدل على وجود العلائق بين الفريقين وتفاهمهم باللغة العربية بحيث يجوز لنا أن نعد كورة بصرى قطرًا عربيًا في الجاهلية.

(١) الأغاني ناقة كبيرة الراس - ناقة صلبة - صخرة ملساء - ماء قلى.

- سوق أذرعات: أمرها قريب من أمر بصرى، تليها في الشأن، وعلاقة العرب التجارية بها في الجاهلية كعلائقهم ببصرى واستفاضتها على ألسن شعرائهم تشبه ما لبصرى.

ويقول أبو ذؤيب الهذلي:

فما أن رحيق سببها التجار من أذرعات فوادي جدر

وقوله في قصيدة أخرى:

فما فضله من أذرعات هوت بها مذكرة عنس كهادية الضحل

وقد فتحت درعا صلحًا. ونال أهلها عهدًا لأنفسهم وبلدhem عام (١٣) هـ فلما كانت جيئة عمر إلى الشام استقبلوه.

قال عبد الله بن قيس: كنت ممن لقي مقدمة عمر إلى الشام، فبينما عمر يسير إذ لقيه المقلسون من أهل أذرعات بالسيوف والريحان (١)، فقال عمر (مه) امنعوههم، فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين هذه سنتهم وإنك إن منعتهمن منها يروا أن في نفسك نقضًا لعهدهم: فقال عمر: دعوههم.

تقوم سوق أذرعات بعد سوق بصرى بسبعين ليلة، ويطول أمدها، والغالب أنهم يقيمونها مدى الصيف، وبقيت هذه السوق قائمة بعد الإسلام مدة طويلة من الزمن: فقد أدركها المرزوقي ووصف طول قيامها بقوله: وسوق أذرعات اليوم أطولها قيامًا، وربما لقيت الناس صادرين منها وأنا وارد.

(١) كان المقلسون أي الذين القلانس على رؤوسهم، يقومون بطقوس (كرنفالية) تشبه العرابة.

الفتح الإسلامي

١- فتح بصرى ومعركة اليرموك:

كانت بصرى من المدن التي حررها العرب بعد معركة أجنادين، وذكر الواقدي حديثاً طويلاً وحصار المسلمين لها بقيادة شرحبيل بن حسنة، ويدلنا حديث الواقدي على أن بصرى كانت في ذلك الحين مدينة محصنة تحصيناً قوياً، وفيها حامية كثيرة العدد، وخيراتها وافرة وأسواقها غنية، وكانت محجاً للناس وملقى القوافل، ويبدو أنها استعصت على جيوش العرب المسلمين التي أحاطت بها في عام ٦٣٥م حتى قدم خالد بن الوليد من العراق واستلم إمرة الجيش، فضيق الحصار على حاميتها حتى أجبرها على دخول المعركة مع جيوش العرب خارج أسوار المدينة فلم تستطع الصمود أمامها فعادت إلى داخل المدينة المحصنة.

ويحدثنا الواقدي عن اجتماع عُقد في مدرج بصرى لبحث تسليم المدينة، وكيف كانت قلوب السكان المسيحيين تميل إلى نصره إخوانهم العرب المسلمين، مما أضعف موقف الحامية وجعل التخاذل والخوف يدب في صفوفها، وفي مقابلة تمت بين خالد بن الوليد وحاكم المدينة جرى نقاش حول الغاية من الفتح وطرده الأجنبي المحتل، وما يحمله الدين الإسلامي من روح العدالة والمثل الإنسانية العليا، وأسفر ذلك النقاش عن إيمان الحاكم برسالة العرب واعتنق الدين الإسلامي مع عدد من جنده، فافتتحت المدينة صلحاً بشروط منها تأدية الجزية في حول، على أن يدفعوا عن كل بالغ دينار وجريب حنطة في حول آخر، ولم تتعرض أموال الأهالي وممتلكاتهم لأي نوع من أنواع التعديات، واشترك رومانوس مع الجيوش العربية في المعارك التي تلت فتح بصرى، وكان مخلصاً في إيمانه وجهاده، حتى أصبح من القادة الذين

تميزوا بالتفاني والتضحية والاستبسال في سائر المواقف والحروب (رضي الله عنه)، وكان لاستسلام حامية بصرى دويًا كبيرًا تردد صدهاء في جميع الانحاء، وظهرت نتائجه من بعد من خلال المعارك التي تتابعتها الجيوش العربية وتبدلت نظرة الجندي البيزنطي إلى المحارب العربي الذي كان ينظر باستخفاف وهزاء إلى السلاح العربي وقوة العربي كمحارب، وأخذ الرعب ينال من نفسه قبل ملاقاته في ساحة القتال، كما أن البيزنطيين فقدوا ثقتهم بسكان البلاد العرب.

ومن بصرى توجهت الجيوش العربية نحو اليرموك، وكان البيزنطيون يحشدون قواتهم بين قرية الشيخ سعد واليرموك، فنزلت جيوش العرب من وراء نهر اليرموك وجعلوا درعا من خلفهم كقاعدة تموين تمدهم بالمؤن والمدد الذي يصلها من المدينة.

كان هرقل قد حشد جيشًا بلغ عدده مائة ألف محارب، في بعض الروايات، مائتين وأربعين ألف محارب، في مصادر تاريخية أخرى، وتولى قيادة هذه القوات تيودوروس، أخو الامبراطور نفسه، أما جيوش العرب فعددها يتراوح بين خمسة وعشرين ألف محارب وبين أربعين ألفًا. ومرت شهور كانت المناوشات فبقيت تدور بين الفريقين إلى أن نشبت المعركة الفاصلة في (٢٠ اب) عام (٦٣٦ م) في يوم شديد الحرارة، فأحاطت الهزيمة بجيوش البيزنطيين، وتراجعت مع المدد الذي وصلها إلى موقع الياقوصة بين نهر اليرموك ووادي الرقاد حيث لم يسلم منها إلا القليل، وفي هذه المعركة قتل تيودوروس قائد جيوش البيزنطيين.

فمعركة اليرموك هي المعركة الفاصلة بين العرب والروم وبها استقرت الأوضاع في منطقة حوران، وكانت في الخامس من رجب للسنة الخامسة عشرة

للهجرة،^(١) وقالوا أنها كانت قبل فتح دمشق وقالوا بعدها، وكتب التاريخ مليئة بتفاصيل المعركة.

ومعركة اليرموك مفادها أن الروم قد فزعوا وخافوا خوفاً شديداً عندما علموا بتوجه جيوش العرب المسلمين نحو الشام، وكتبوا إلى هرقل يعلمونه بذلك، وكان يومئذ بحمص، وبعد التداول مع قاداته، أمرهم بمقاتلة جيوش المسلمين (فنحن نزيدهم عددًا وعدة) وقالت الروم: والله لنشغلن أبا بكر عن أن يورد الخيول إلى الأرض التي نحن عليها، وكان عدد جيوش المسلمين إحدى وعشرين ألفاً سوى الجيش الذي مع عكرمة بن أبي جهل، وكان واقفاً على أطراف الشام ردءاً للناس في ستة آلاف، بينما كانت جيوش الروم مائتي ألف، وكتب الأمراء إلى أبي بكر يعلمونه بما علموا من الخبر، فكتب اليهم أن اجتمعوا وكونوا جنداً واحداً فأنتم أنصار الله، والله ناصر من نصره وخاذل من كفره ولن يؤتى مثلكم عن قلة، ولكن من تلقاء الذنوب فاحترسوا منها، وليصل كل رجل منكم بأصحابه، وقال والله لأشغلن الروم عن وساوس الشيطان بخالد بن الوليد، وبعث إليه وهو بالعراق ليكون أميراً على الجيوش في الشام، كان المسلمين أربعة وعشرين ألفاً، عليهم أبو عبيدة بن الجراح. والروم كانوا عشرين ومائة ألف، عليهم ماهان وسقلاب، وعلى المقدمة جرجة من إرمينية في اثني عشر ألفاً، ومن العرب الغساسنة إثني عشر ألفاً عليهم جبلة بن الأيهم، ثم يقول: فسارت الروم الواقوصة قريباً من اليرموك وصار الوادي خندقاً عليهم. وسار خالد مسرعاً في تسعة آلاف وخمسمائة، ودليله رافع بن عميرة

(١) البداية والنهاية - الحافظ ابن كثير، نقلاً عن أبي جعفر بن جرير والحافظ ابن عساكر والليث وأبي

معشر وابن الكلبي وغيرهم.

الطائي، وسلك به أراضٍ لم يسلكها قبله أحد في صحراء لا ماء فيها ولا كلاً، وقام خالد بذبح الإبل وأورد الخيل من الماء التي في بطونها وأطعم الجند من لحمها، ووصل في خمسة أيام فخرج على الروم من ناحية تدمر فصالح أهل تدمر وأركة، ولما مرّ بعذراء أباحها وغنم للغساسنة أموالاً عظيمة وخرج من شرق دمشق، ثم سار حتى وصل إلى قناة بصرى فوجد الصحابة تحاربها، فصالحه صاحبها وسلمها إليه فكانت أول مدينة فتحت في الشام.

وذكر ابن كثير عن الوليد بن صفوان عن عبد الرحمن بن جبير أن الروم نزلوا بين دير أيوب واليرموك ونزل المسلمون من وراء النهر من الجانب الآخر، وأذرعات خلفهم ليصل إليهم المدد من المدينة وقد تكاملت جيوش الروم في مائتين وأربعين ألفاً، ثمانون ألفاً منهم مسلسل بالحديد والجمال وثمانون ألفاً راجل، وتكامل جيش المسلمين ستة وثلاثين ألفاً إلى الأربعين ألفاً.

وقال ابن كثير عن ابن إسحاق المدائني، أن وقعة أجنادين قبل وقعة اليرموك سنة ثلاث عشرة للهجرة وفيها هزم الروم.

وقال أنه تراءى الجمعان بعد أن قام خالد بن الوليد بتعبئة جيشه بطريقة لم تعهدها العرب من قبل فخرج في ستة وثلاثين كردوساً إلى الأربعين، كل كردوس ألف رجل عليهم أمير، وجعل أبا عبيدة في القلب، وعلى الميمنة عمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن حسنة، وعلى الميسرة يزيد بن أبي سفيان وعلى الطلائع قباب بن أشيم، وعلى الأقباض عبد الله بن مسعود والقاضي أبو الدرداء، وكان من عادة القادة تعيين قاضي للجيش وقاصٍ يحضهم ويحثهم على القتال، عين أبوسفيان والمقداد بن الأسود قارئاً يقرأ سورة الأنفال وآيات الجهاد.

وذكر اسحاق بن يسار بإسناده كما يقول ابن كثير: أن إمراء الأرباع يومئذ كانوا أربعة، أبو عبيدة وعمرو بن العاص وشرحيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان، وعلى الميمنة معاذ بن جبل، وعلى الميسرة نفاعة بن أسامة الكنانى، وعلى الرجالة هاشم بن عتبة ابن أبي وقاص، والخيالة خالد بن الوليد وهو المشير في الحرب، وأقبلت الروم في خيلائها وفخرها، وقد سدت أقطار تلك البقعة، وبدأت المعركة وتبارز الفريقان ودارت بينهما حرب ضروس استخدم فيها خالد بن الوليد فنونا من القتال، وساهم قاداته في الخطط، وبرزت الصناديد من كلا الطرفين وأسلم جرجة الأرمني على يد خالد - حسب الروايات - وحارب إلى جانب خالد حتى استشهد وفرت جيوش الروم أمام جيوش المسلمين إلى الواقوصة، وتساقط المقيدون بالسلاسل في الوادي، ويقول ابن كثير عن ابن جرير وغيره، أن قتل الروم أكثر من مائة ألف سوى من قتل بالمعركة، وقتل من المسلمين ثلاثة آلاف، وقد اتبع خالد من انهزم من الروم حتى وصل إلى دمشق ثم إلى ثنية العقاب ثم إلى حمص. ثم خرج هرقل من حمص وجعلها بينه وبين المسلمين، ومما قيل من الأشعار في يوم اليرموك قول القعقاع بن عمرو:

ألم ترنا على اليرموك فزنا	كما فزنا بأيام العراق
وعذراء المدائن قد فتحنا	ومرج الصفرة على العتاق
فتحنا قبلها بصرى وكانت	محرمة الجنب لدى النعاق
قتلنا من أقام لنا وفينا	نهابهم بأسيا في رفاق
قتلنا الروم حتى ماتساوى	على اليرموك معروف الوراق
فضضنا جمعهم لما استجابو	على الواقوص بالبر الرقاق

غداة تهافتوا فيها فصاروا إلى أمر يهضل بالذواق

على أرض حوران عقد لواء النصر للعرب المسلمين في قتالهم البيزنطيين، إذ سار خالد بن الوليد بعد تلقيه أوامر أبي بكر من العراق لمساعدة جيوش العرب في الشام حتى وصل إلى بصرى. وكان أبو عبيدة قد أنفذ شرحبيل إليها، فلم يقوَ على هزيمة الروم، وبوصول خالد بن الوليد إلى بصرى، سقطت بيده إحدى عواصم الغساسنة دون كبير مقاومة، وتابع سيره لفتح دمشق بينما كان هرقل يعد الجيوش للوقفة الحاسمة مع العرب، وأعطى قيادة الجيش لأخيه تيودوس، فجاء يوم الواقعة (وهي قرية موجودة الآن على ضفة اليرموك) وقد أحسنت القيادة العربية تخيرها دون نزاع ولم تجد جهود الرومان تساعد أناسيد الكهنة وصلواتهم أمام الهجوم المركب لأبناء الصحراء المتدفقين بالإيمان، فأما من أفلت من ساحة الوغى سقط في النهر ووادي الرقاد، وأما الذين حاولوا الهرب عبر النهر فإنهم استؤصلوا وقد خرّ تيودوس نفسه صريعاً. لقد قررت اليرموك مصير سورية، وضاعت إلى الأبد من الامبراطورية الشرقية واحدة من أجمل مقاطعاتها (كما قال مؤرخيهم) وكانت آخر كلمات هرقل:

سلاماً يا سورية ونعم البلد هذا العدو

بعد اليرموك، بقيت أخبار حوران قليلة ونادرة، وقد زار الخليفة عمر بن الخطاب المنطقة قبل سقوط مدينة القدس، واقامته في الجابية، حيث اجتمع بقيادة الجيوش العربية لمدة ثلاثة أسابيع، وربما بوشر ببناء المسجد العمري في تلك الفترة.

العهد الاموي:

لما عقد الخليفة أبو بكر الصديق سنة (٦٣٣ م) لأبي عبيدة بن الجراح الراية لقيادة الجيوش لفتح بلاد الشام وأنجده خالد بن الوليد، فتحت المدن والبلدان حتى انتهى خالد إلى بصرى في حوران ومعه تسعة آلاف مقاتل، وكانت جيوش الروم محتشدة فيها وقائدهم رومانيوس، وبعد حصار لم يدم طويلاً دخلها صلحاً سنة (١٣هـ)/(٦٣٥م) وصالح أهلها على أن يؤدوا عن كل بالغ ديناراً وجراباً من الخنطة.

وقد قال الشاعر:

لغسان أنفأ فوق تلك المناخر	بدأنا بجمع الصفرين فلم ندع
سوى نفر نجتذهم بالبواتر	صيحة صاح الحارثان ومن به
فألحقت الينا الحش والمعاذر	وجئنا إلى بصرى وبصرى مقيمة
العيس في اليرموك جمع العشائر	قضضنا بها أبوابها ثم قابلت بنا

وكانت الجابية زمن الفتوحات الإسلامية قاعدة عسكرية ومقرًا للقيادة العربية احتفظت بأهميتها العسكرية حتى عهد الأمويين، وقد خرج عمر بن الخطاب إلى الجابية ومعه ثلة من الصحابة لتوطيد الأمن في الأراضي المفتوحة، ومن الجابية وجه عمر من يفتح بيت المقدس، وبعد العهد الراشدي انتهت الخلافة إلى الفرع السفيفاني فكان عهد معاوية ثم ابنه يزيد، وخلفه معاوية الثاني وكان حدثاً حكم أربعين يوماً، ثم ترك السلطة متنازلاً عنها فحدثت بتخليه عن الحكم أزمة في الدولة، وقد استشرى الصراع بين القيسيين واليهمانيين وسيطر عبد الله بن الزبير على العراق، وثار قيس ضد واليها في قنسرين وطردته وهو من قبيلة كلب اليمانية، كما بايع أمير

حمص ابن الزبير، وانقلب الضحاك بن قيس على الأمويين وحارب ابن الزبير، وأظهر مروان بن الحكم رأس البيت الأموي في حينه، وقد نزل دمشق بعد وفاة يزيد، ميلاً إلى التنازل عن حقوقه للخليفة المقيم في مكة (ابن الزبير) ولكن الأمويين لجؤوا إلى عقد مؤتمرهم في الجابية وقرروا مبايعة مروان بن الحكم للتخلص من الفوضى واستعادة السلطة للفرع المرواني من بني أمية، وتابع مروان مع حسان بن بحدل مسيره إلى دمشق وهزم القيسيين في موقعة مرج راهط (سهل عدرا - شرق دوما) ثم تلقى البيعة في دمشق واستتب بذلك الأمر للأمويين.

يقول بعض المؤرخين: بعد أن انهزمت الروم في معركة اليرموك وانتصر المسلمون دخلت حوران في مرحلة جديدة، ودخل القسم الأعظم من سكانها في دين الفاتحين وأصبحوا مسلمين، إلا عددًا قليلًا منهم بقي على دينه ولم يجبروا على الدخول في الدين الجديد، حيث أصبح الأخ مسلمًا والآخر بقي على دينه. وعاشت حوران في زمن الخلفاء الراشدين، كبقية المناطق، آمنة مطمئنة، وانتشرت فيها المساجد، في زمن الخليفة عمر بن الخطاب، وساد فيها العدل، ولا زالت المساجد العمرية تشهد على ذلك حتى الآن.

بدأ العهد الأموي بتولي معاوية بن أبي سفيان مقاليد الحكم، فقام بتنظيم الدواوين ووضع لها أختامًا ورتبها على الطريقة الرومية، ووضع على كل ديوان مسؤولاً يدعى صاحب الديوان، وجعل على رأس الدواوين سرجون بن منصور المسيحي، ونظم البريد وجعله يسير بقوافل مرتبة، تصل القافلة إلى مركز، فتجد الأخرى بانتظارها، وأنشأ آبار المياه على الطرقات، وشدد الحراسة، وأصبح للدولة الجديدة شكل مختلف عن المرحلة الراشدية وبني السفن والاساطيل.

واصبح النظام جديداً في العهد الأموي، لأن معاوية بن أبي سفيان اعتبر مهمة الخلافة هي صيانة الأمة وإدارتها وتوطيد الحكم فيها أكثر من كون مهمتها توثيق الأحكام الفقهية، والدين في نظر معاوية مبجل ومعظم، لكنه يقدم مصلحة الدولة على تفاصيل الأحكام الفقهية وعلى مصلحة الأفراد، يرافقه تساهل في التفاصيل الشرعية، بينما كان الحكم في العهد الراشدي يهيمن فيه الدين على حياة الناس جميعاً، أفراداً وجماعات، وكان الخليفة الراشدي حارساً للشرع أكثر منه سياسي، والدين في حكم الراشدين يهيمن على كل شئ وهو الميزان في كل شئ.

وقد لخص الدكتور يوسف العش موازنة بين السلطة الراشدية والأموية بعبارتين فقال:

١- الخليفة الراشدي قاضٍ ينفذ الأحكام، والخليفة الأموي ملك يسوس الناس.

٢- السلطة الشرعية في الخلافة الراشدية لها الكلمة العليا، والحكم في الدولة السفينانية هو المقدم على كل شئ^(١).

يتبين لنا من خلال السياق العام للأحداث في زمن الأمويين أن حوران كانت تابعة لدمشق في كل شئ وأنها جزء من التكوين العام الدمشقي ولا تبتعد عنه في شئ، لقربها من مركز الخلافة وتواصلها معها وتحت بصرها.

كما يتبين لنا، من خلال قراءة التاريخ في عهد معاوية بن أبي سفيان أنه كان يقطاً في كل وقت في حكمه، وكان يراقب كل شئ وتأتية الأخبار من كل مكان، ويعرف ما يحدث في مملكته، من أقصاها إلى أقصاها، فكان يترك عماله يعملون

(١) كتاب الدولة الأموية - د. يوسف العش.

بحرية، ولا يتدخل في أمورهم، وكان يوجههم إلى ما يريد بحرفية بالغة، ويوافقهم على ما يفعلون، حتى لو رأى منهم إشتطاً عليه إذا كان في مصلحة الدولة، وكان يمسك بيده الخطوط الكبيرة فيوجهها ويشدها حيث يريد، ولا زالت مقولته الشهيرة يتداولها الناس - شعرة معاوية، حيث قال: «لو كان بيني وبين الناس شعرة لما انقطعت، إن شدوها أرختها وإن أرخوها شددتها.

تتابعت الفتوحات في زمن الأمويين، واتسعت رقعة الدولة حتى وصلت أوجها في عصر هشام بن عبد الملك، ولما وصل أمر بني أمية إلى معاوية بن يزيد بن معاوية، واستخلف على الناس، فلبث شهرين محجوباً لا يراه أحد، ثم خرج فجمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إني نظرت فيما صار إليّ من أمركم وما قلده من إمارتكم، فوجدت ذلك لا يسعني فيما بيني وبين ربي أن أتقدم على قوم وفيهم من هو خير مني وأحقهم بذلك وأقوى على ما قلده، فاختاروا مني إحدى الخصلتين، إما أن أخرج منها وأستخلف عليكم من أراه لكم رضاً ومقنعاً، ولكم الله عليّ لا ألوكم نصحاً في الدين والدنيا، وإما أن تختاروا لأنفسكم وتخرجوني منها» وتغيب حتى مات.

وقدم مروان بن الحكم، وأمر الشام مضطرب، ومعظم أجنادها مبايع لابن الزبير في مكة، فدعا مروان إلى نفسه، وهو من أعظم رجال بني أمية عقلاً ودهاءً وسياسةً وحنكة، كما وصفه المؤرخون، واجتمع الناس في الجابية (في حوران) وتناظروا في ابن الزبير وفي خالد بن يزيد بن معاوية، وفي عمرو بن سعيد بن العاص، وكان روح بن زنباع الجعفري، يميل مع مروان، فقام خطيباً فقال:

يا أهل الشام، هذا مروان بن الحكم شيخ قريش، والمطالب بدم عثمان، وقال كلامًا كثيرًا أقنع الناس به فبايعوا مروان بن الحكم، ثم خرج مروان بمن معه إلى دمشق والتقى الضحاك بن قيس، الذي كان قد استولى على دمشق، ودارت بين الطرفين معركة على أرض (مرج راهط في حرستا) وقتل الضحاك وانهزم جيشه، وأقام مروان بالشام واجتمعت إليه بنو أمية بعد موقعة مرج راهط، وقد انقسمت الشام نتيجة المعركة إلى فريقين (قيسية - ويمانية) وتم الانتصار لليمانية، وكانت لهم اليد عند مروان، وأقام مروان بن الحكم في الشام في أيام عبد الله بن الزبير.

كانت موقعة مرج راهط سبب رد ملك بني أمية، ولما بايعوا مروان بن الحكم اشترط عليهم حسان بن مالك وكان رئيس قحطان وسيدهم بالشام على مروان ما كان منهم من الشروط على معاوية وابنه يزيد ومنها:

١ - أن يفرض لهم لألفي رجل ألفين ألفين، وإن مات قام ابنه أو ابن عمه مكانه، وعلى أن يكون الأمر والنهي وصدر المجلس لهم، وكل ما كان من حل وعقد فعن رأي منهم ومشورة، فرضي مروان بذلك. وكان أول قانون عربي وضع للتشريعات (بروتوكول) وكانوا قد اصطالحوا على ذلك منذ عهد معاوية وأرضاهم بها فدخل مصطلحهم في بنود الدساتير المعمول بها.^(١)

ولما استتب الأمر بالشام لمروان، وجه جيشًا إلى الحجاز لمحاربة عبد الله بن الزبير، ولم تمهله المنية وتوفي في الطاعون وخلفه ابنه عبد الملك، بعد أن أخذت الدولة الأموية في عهد أبيه اتجاهًا خاصًا واتصفت بصفات متميزة، وكان رجالًا منظمًا واضح الرأي.

(١) المسعودي.

وكانت الشام وما حولها، بما فيها حوران، قد انقسمت إلى قسمين كما أسلفنا، قيسية أصلها حجازي، ويمانية أوكلية أصلها غساني، وأصبحت القيسية على عدا مع الأمويين وموالية لعبد الله بن الزبير، واليمانية مع الأمويين الجدد الذين حصلوا على الخلافة بحد السيف، أما في العراق فكانت حركات كثيرة.

استتب الحكم إلى عبد الملك بن مروان بعد أن انتصر الحجاج بن يوسف على عبد الله بن الزبير، وعادت دمشق عاصمة للدولة الأموية بعد القضاء، وقد دامت خلافة عبد الله بن الزبير سبعة أعوام وامتدت لتشمل الحجاز واليمن والعراق ومصر وتوابعها^(١)، وازينت الدولة الأموية وأخذت زخرفها وساد العدل والحق والأمان في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي أعطى كل ذي حق حقه، ودخل الناس في الإسلام أفواجا طوعا من غير إكراه، وقد رضي الناس عن عصره الذي تميز بالتقى والعدل - حتى الخوارج انضوا تحت لوائه ولم يخالفوه وهم أكبر المخالفين لهم - وكان يؤتى بالزكاة إلى الناس فيقرع على أبوابهم لتقدم إليهم فيمتنعون عن أخذها ويقولون كفانا الله من فضله «وتلك هي الغاية القصوى التي يبتغيها الاسلام»، وكانت حياة عمر بن عبد العزيز كشعلة تنوير وتقد مدة عامين ونصف، حيث وافاه الأجل وهو في ريعان شبابه وقد أَرْضَى ربه وأَرْضَى ضميره وبات مثالا يحتذى.

(١) الدولة لأموية د. يوسف العش.

أ - في أوائل العهد العباسي: حصلت في حوران اضطرابات بسبب ثورة السكان على العباسيين بقيادة حبيب بن مرة المري، وقد قام عبد الله بن علي العباسي وهو الخليفة أبو العباس السفاح، بقمع الثورة، وقضى على المتمردين في عام ٧٥٠م وبقيت بصرى ممراً لقوافل الحجاج والتجار، غير أن أهميتها التجارية تقلصت كثيراً في الفترات اللاحقة، وذلك نتيجة التطور وازدهار الكثير من المدن الداخلية. مما أدى إلى تحول القوافل التجارية عن بصرى.

ب - في أيام الرشيد: تجددت الاضطرابات أثناء الفتنة التي وقعت بين القيسيين واليمانيين - وقد ذكر ابن عساكر في خبر أبي الهيند أم أحد فرسان العرب القيسيين حيث قال: ركب هو وغلّامه وكان في بصرى، وخرجوا على الناس وهم منهزمون حتى انتهوا إلى ملعب الروم وهو حصن في مدينة بصرى . وتسامعت خيل أبي الهيند فجاؤوا من كل وجه.

ومع بقاء المدينة كمركز تمر بها القوافل المتجهة نحو الحجاز فإن أهميتها التجارية لم تبقى على حالها لأن الفتح الجديد ساعد على تطور المدن الداخلية بسرعة فتحوّلت القوافل التجارية نحوها بعد زوال الحدود المصطنعة، وتعرضت بصرى عام (٩٠٦ م) للهدم والدمار عندما هاجم القرامطة منطقة حوران بقيادة أبو الغنائم عبد الله بن سعيد (لعنه الله) الذي عرض أهلها وسكان سائر المنطقة إلى القتل والتشريد وما أن انتهى العصر العباسي الأول بمقتل المتوكل حتى انتهت هيمنة العرب على السلطة، فانتقلت إلى الغزاة الذين حافظوا على مظهر الخلافة امتصاصاً لنقمة الجماهير العربية ولكن تصرفوا بالسلطات كما أرادوا، وهكذا توالى العصور العباسية وسميت باسماء الدخلاء.

العصر العباسي الثاني:

(التركي) و(البويهى) و(السلجوقي) (وانفصلت الأندلس عن جسم الامبراطورية وتوالت عمليات الانفصال والانقسام حتى غدا في رضى العروبة ثلاث خلافات في القاهرة ظهر الفاطميون الذين اقاموا دولتهم (الخلافة الفاطمية) التي وحدت افريقيا العربية - من مراكش الى مصر ووصلوا الى سورية الجنوبية، ومن ضمنها حوران - واستمر النزاع بين السلاجقة والفاطمين على سورية الجنوبية، فحوران تصبح تارة فاطمية وتارة سلجوقية، وقد عانى السلاجقة الأتابكة الزنكيون يقودهم عماد الدين زنكي الذي حررها عام (١١٤٤م) ممن تسلط الصليبيين الذين عانت حوران الكثير إبان حكمهم، وفي عهد نور الدين زنكي ضم حوران ودمشق والموصل لحكمه، وكان ظهور نور الدين زنكي على المسرح السياسي سبباً هاماً في تغيير الخريطة السياسية لسورية تجاه الخطر الأوروبي، وقدر لحوران أن تظهر ثانية في زمن صلاح الدين الأيوبي الذي حول بصرى إلى قاعدة عسكرية انطلق منها إلى النصر في حطين عام (١١٨٧م) غربي طبريا، وحرر القدس من الصليبيين، وأضعف قوة الغزو الأوروبي، و كانت بصرى مكاناً هاماً أثناء الحروب الصليبية، كمركز عسكري هام منع الصليبيين من قطع المواصلات بين دمشق والقاهرة، فمنطقة حوران الزراعية كانت تمون دمشق وغيرها من المدن بالحبوب والمؤن، وتدلنا الكتابات التي عثر عليها أثناء أعمال الحفريات والترميم في قلعة بصرى على مابلغ من أهميتها الدفاعية في ذلك حين، والدور الهام الذي قامت به حاميتها في دفع الصليبيين عن احتلال المنطقة حتى أصبحت داراً للملك لبني أيوب في بعض فترات هذا العهد.

في مطلع الحروب الصليبية لم يفت ولاتها السلاجقة مدى أهمية مركزها الاستراتيجي، فباشروا بتجديد تحصيناتها القديمة، وعدلوها بشكل يتفق مع تطور أساليب القتال ووسائل الدفاع، وتعطينا كتابة عثر عليها أثناء أعمال الحفريات في قلعة بصرى، مؤرخاً في جمادى الأولى عام (٤٨١هـ) على أن أبا منصور «كمشتكين» كان والياً على المدينة وأبو منصور من القادة الأتابكة المعروفين، وكان قائداً لجيوش دمشق ووالياً على بصرى وصلخد.

جاء في تاريخ القلانسي عن حوادث عام (٤٩٧هـ) ما يلي:

«أيتكين الحلبي صاحب بصرى خرج إليها هارباً وعاث فساداً بناحية حوران بعدما اتفق مع رتاش ابن تاج الدولة على محالفة الصليبيين ضد والي دمشق، فراسلاً بودان واستنجدانه، ثم توجهها إلى عنده حيث أقاما برهة من الزمن، ويبدو أن بودوان لم يتجاسر على مهاجمة دمشق، فتركاه وأقاما في الرحبة ثم تفرقا وطلبا الأمان من ظهير الدين فأجابها وأمنهما، فسلما بصرى إليه وخرجا منها، ووفى لهما ظهير الدين بوعده وما أقطعهما من أملاك وزاد في ذلك الحين.

وكان كمشتكين خلال هذه الفترة والياً على بعلبك فعاد إلى ولاية بصرى بعد طرد أيتكين الحلبي، ويذكر لنا القلانسي أيضاً فيقول: «أنه في عام (٥٣٤هـ) أصبح أتابك زنكي والد نورالدين زنكي والياً على بصرى.

وتذكرنا كتابة ثانية ظهرت في قلعة بصرى، أن معين الدين أنر كان والياً على مدينة بصرى عام (٥٤٢هـ) وأوقف فيها أرضاً وطاحوناً يصرف ريعهما على فكاك الأسرى الذين يقعون في أيدي الصليبيين، وهذا الوالي أصبح فيما بعد والياً لدمشق، وفي عام (٥٤٥هـ) اتفق منكورس مع جماعة من التركمان والأتراك مع الأمير

سرجال والي بصرى على مضايقة الفلاحين ومنعهم من الزرع، فتوجه إليها نور الدين مصطحبا معه آلات الحرب والمنجنيق لمحاربة واليها سرجال الذي حارب الصليبيين في أول الأمر ثم هادئهم فيما بعد، ولكن الصلح ما لبث أن تم بين هذا الوالي وبين نور الدين في عام (٥٤٧هـ) وعاد نور الدين إلى دمشق، وبعد ذلك اغتيل هذا الوالي في قلعة بصرى بنتيجة مؤامرة تمت بين أحد أمراء القلعة المدعو علي، وبين زوج ابنته جولة، وبعض الأعيان من المقربين إليه، وتظهر الكتابة أن درعا وبصرى كانتا هدفا لأطماع الصليبيين في هذه المدة بالنظر لحاجتهم الماسة لمحصولاتها الزراعية، ففي عام (١١١٩هـ) هاجم بودان الثاني مدينة درعا ولم يتمكن من احتلال بصرى وأنه اضطر للتراجع عنها بعدما نهبت جيوشه مواشي عربان بني خالد وبنو ربيعة التي كانت مخيمة في عجلون وهدمت قلعة جرش، وما لبث بودوان الثاني أن أعاد الكرة متجهاً نحو دمشق خلال عام (١١٢٦م) وعام (١١٤٧م) فارتد فاشلاً.

وفي عام (١١٤٦م) كان بودوان الثاني قد قام بمهاجمة بعض المدن في المنطقة فاحتلها، مما شجعه على التقدم نحو بصرى، وأطلق عليها اسم «توتناش» غير أن جيوشه لم تصل إلى بصرى، لما أصابها من خسائر في الأرواح نتيجة لمقاومة سكانها وأهل المدن والقرى التي هاجمها أثنا مسيرهم نحو بصرى.

وأعاد بودوان الثالث مهاجمة بصرى ففشل أيضاً في احتلالها. وفي عام (١١٨٢م) قام بودوان الرابع بقيادة حملة نحو بصرى، فوصلت إلى حول المدينة، وحاصرتها، غير أنهم ما لبثوا أن نكسوا عنها مدبرين.

وأما آخر حملة صليبية على حوران فكانت عام (١٢١٧م) وهي الحملة الصليبية الخامسة، حيث تم احتلال مدينة نوى من قبل الصليبيين، ثم تقدموا نحو جبل حوران، عن طريق إزرع، غير أنهم انسحبوا بعد عجزهم عن متابعة القتال.

الغزو المغولي والعهد الأيوبي:

تعرضت المنطقة لغزو المغول، وعانت الكثير من هجماتهم، وكان يقودهم (كتبغا) عام (١٢٩٦م) وقد أمر بتهديم قرى ومدن حوران وطمر الينابيع ووضع على كل نبع تلاً من التراب وقام بإحراق الأشجار، حتى أصبحت حوران ياباً، ثم هاجمها للمرة الثانية في العام (١٣٠٠م) و(١٣٠٣م) إلا أنهم لم يمكثوا فيها طويلاً.

العهد الأيوبي:

في عهد الملك الصالح إسماعيل من ملوك الأيوبيين بعد صلاح الدين، قدم الخوارزمية، الذين استولوا على بيت المقدس عام (١٢٤٢م)، واعتدوا على رموز المسيحية والذين قضى عليهم الملك الصالح في هضاب بعلبك عام (١٢٤٧م)، بعد محاولتهم التآمر عليه.^(١)

وحكم ضغتكين دمشق وكان يتاخم أرض فلسطين، فكان همه أن يقاتل الأعداء في الغرب والجنوب، وذلك بعد احتلال الفرنجة للقدس في السابع من حزيران عام (١٠٩٩م)، واستولى ضغتكين على طبريا ودافع عن حوران وشد أزر طرابلس، وأوقع هزيمة كبرى بالفرنجة وغرق في طبريا عدد كبير منهم وسقطت طبرية بيده.^(٢)

(١) الحكم الأيوبي في الشرق - الدكتور صلاح الدين الشريف.

(٢) الحكم الأيوبي في الشرق، ص ١١٧ د. صلاح الدين الشريف.

في الحكم الأيوبي، حكم الوالي (سنقر الطرلنكي) وكان من أشهر الولاة، بنى أول برج من أبراج قلعة بصرى. والوالي (ركن الدين منكورس) الذي كان من خيرة الأمراء وأنقاهم، وله صدقات كثيرة، وقد بنى المدرسة الركنية بسفح جبل قاسيون في دمشق، وأوقف كثيرًا من الأبنية، وشيد أربعة أبراج في قلعة بصرى. (والأمير بدر الدين داوود بن أيديكين) و(شمس الدين سنقر) و(شهاب غازي) و(شجاع الدين عنبر الصالحي).

عهد المماليك:

وقعت حوران تحت حكم المماليك الذين ورثوا سلطة الأيوبيين، في مصر وسورية عام (١٢٥٠م)، وأعادوا الهدوء إلى حوران، وبنوا جامع فاطمة في بصرى في زمن الملك الناصر (محمد بن قلاوون عام ٧٠٥هـ) وفي عهدهم أهملت التحصينات الخارجية العسكرية للمدن وأهتموا كثيرًا ببناء المباني الاجتماعية والدينية، وأشهر من مواليد بصرى في هذا العهد (فخر الدين البصراوي) الذي تولى الحسبة في دمشق، ومحمد بن الشيخ فخر الدين عثمان البصراوي الحنفي الذي تولى الوزارة في دمشق عام (٧٣٢هـ)، وفي عام (٧٦٠هـ)، قام على ولاية بصرى والي الولاة (شنكل منكل) الذي اشتهر بقساوته وبطشه. وفي عام (٧٦٦هـ) عين أحد أبناء بصرى واليا على مدينة دمشق وهو (علم الدين سليمان البصراوي).

ويجمع سائر المؤلفون والجغرافيون الذين كتبوا عن أحوال حوران في القرون الوسطى، مثل: ابن الفقيه - الإدريسي - الاصطخري - ابن حوقل - ياقوت الحموي - القلقشندي - القلانسي - وابن كثير - وغيرهم، على أن حوران كانت تتبع دمشق في سائر أحوالها.

يقول ياقوت الحموي في القرن الثالث عشر: «إن حوران كورة واسعة من أعمال دمشق من القبله ذات قرى كثيرة ومزارع قصبتها بصرى ومنها أذرعات وإزرع وغيرهما».

وفي فترة لاحقة تم تقسيم حوران إلى ولايات أصبحت مركزاً بولاية جبل حوران، أما سائر منطقة حوران فكانت تنظيماًها الإدارية كما يلي:

- ١ - ولاية جبل حوران ومركزها بصرى الشام وأهم مدنها صلخد التي خضعت لإقامة نائب الوالي.
- ٢ - ولاية سهل حوران ويطلق عليها اسم البثنية ومركزها درعا.
- ٣ - ولاية الجولان وكانت مؤلفة من منطقتين أولاهما مركزها بانياس وثانيهما مركزها مدينة القنيطرة.
- ٤ - ولاية عجلون وكان يدير شؤونها نائب مقره عجلون.
- ٥ - الجيدور ومركزها مدينة نوى.
- ٦ - ولاية إزرع ومركزها مدينة إزرع.

وكانت العلاقات في ذلك الحين تصل مختلف مناطق حوران التي تربط مع أجزاء البلاد الشمالية والجنوبية بطرق رئيسية تدعى بطريق البريد الذي يمتد من دمشق الى القاهرة ماراً بالكسوة، غباغب، الصنمين، طفس، درعا، إربد حتى غزة. أما طريق الحج فكان يمر من بصرى ونوى.^(١)

(١) محمود مصطفى وهشام عبد العزيز - الموسوعة الحورانية.

سيطر المماليك على تجارة المرور عهدًا طويلاً، وامتدت سلطتهم حتى بلغ رأس الرجاء الصالح عام (١٤٨٧م)، فامتلأت خزينتهم وأعفوا الشعب من دفع الضرائب، وعمرت الدولة المدارس والمشافي والمساجد، وبنوا مئذنة جامع فاطمة في بصرى.

العهد العثماني:

في عام (١٥١٦م)، حصلت معركة مرج دابق شمال حلب بين العثمانيين الأتراك والمماليك، انحسر بنتيجتها الحكم المملوكي وخضعت حوران وكافة بلاد الشام للعثمانيين.

وفي العهد العثماني دخلت عرب عنزة إلى حوران قادمين من قلب الجزيرة العربية، ورافق دخولهم اضطرابات أقلقّت الأمن ردحاً من الزمن مما حول طريق الحج من بصرى إلى مزيريب، ثم هجرة الدروز من لبنان إلى جبل حوران.

الهجرة الأولى: بدأت عام (١٧١١م) بعد معركة عين دارا بين القيسيين واليمنيين.

الهجرة الثانية: أعقبت النزاع الطائفي الدموي (١٨٦٠م) الذي حركه المستعمرون الأوروبيون، وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر تحولت حوران إدارياً إلى متصرفية مقرها الشيخ سعد مؤلفة من حوران الحالية واللجاة وجبل حوران وعجلون.

نضال الشعب العربي في حوران

١- في العهد النبطي.

٢- في العهد البيزنطي.

٣- في عهد الاحتلال الأوروبي.

٤- الثورة السورية الكبرى.

٥- ثورة حوران.

٦- أهم المعارك.

١- النضال في العهد النبطي:

لا غرابة في أن نرى حوران اليوم تلعب دور المواجهة المباشرة ومع إيماننا المطلق بأن التاريخ لا يعيد نفسه، وإنما تتشابه الحوادث وتتماثل فيه فقط، بالإضافة إلى مراعاة الزمان والتطور واختلاف المفاهيم.

لقد استمر الصراع بين اليهود المكابيين الذين تابعوا عدوانهم على أهل البلاد الأصليين منذ العهد الآرامي، وقد اشتد هذا العدوان كل مرة تتفرق فيها صفوف العرب وتتمزق وحدتهم نتيجة أطماع الزعماء وخلافاتهم المحلية:

- في عام (١٠٣) ق.م، تنازع الأمراء الحاكمون لمدن حوران فيما بينهم مما أغرى العدو على مهاجمة مدن حوران (باشان) وقرها فدمروا تحصيناتها واحتلوها ونهبوا خيراتها.

- حين خضع الأمراء للاحتلال العبراني وأخذوا بمهادنة العدو المحتل، ثار فلاح من أبناء القرى الحورانية يدعى (عباد) فحرك أبناء الشعب ونظم صفوفهم، وسرعان ما انتظموا في جيش واحد عسكر على ضفاف اليرموك، ونشبت معركة طاحنة هزموا فيها عدوهم شر هزيمة وحرروا المنطقة، فكانت أول مرة نظمت فيه المقاومة الشعبية في التاريخ القديم لهذه المنطقة.

٢- النضال في العهد البيزنطي:

لم يتح للعرب الغساسنة في حوران أن يواجهوا اليزنطيين وهم تبع لهم مواجهة عسكرية، فالامبراطورية البيزنطية كانت في حينه منيعة الجانب قوية البنيان، فحذوا حذو الزباء (زنوبيا) في تدمير بمحاولة الاستقلال عن روما، ولكن محاولة الغساسنة غلقت بالغلاف الديني المذهبي، إلا أن هذه المحاولات كانت متنفساً ووسيلة للاستقلال وتعبيراً عن الشعور القومي في زمنهم.

-لقب الحارث بن جبلة بطريقاً من البطارقة على يد الامبراطور جستنيان، ومن ثم نال عطف الامبراطورة تيودوره الشيء الكثير كما أسلفنا، ودامت سيادته حتى وفاته (٥٦٩) م.

قد اهتم المنذر بن الحارث لمشاكل النصرانية وعقد مجمعا محليا تحت رعايته للنظر في البدع المحلية، الأمر الذي لم يرض به الامبراطور يوستينيوس عن المنذر فقطع عنه المال السنوي وأوعز بقتله، فانتهز عرب الحيرة اللخميون هذا الظرف وأغاروا على سورية الشمالية وعاثوا فيها ما شاءوا ثم اجتمع المنذر بالطريق يوستانيوس في الرصافة وتفاهما فعادت الحياة إلى مجاريها.

- في عام (٥٨٠م)، عقد المنذر الغساني مجمعا برعايته واتصل بغريغوريوس بطريرك إنطاكية الأرثوذكسي وفاوضه في المهمة الموكلة إليه وأصبح المنذر الغساني ملكا محليا.

في عام (٥٨١م)، أصدر الامبراطور طياريوس أمرا بالقبض على المنذر فأرسل ماغنوس حاكم سورية إلى المنذر يدعوه إلى قرية حوارين (بين تدمر ودمشق) للإشتراك في حفلة تدشين الكنيسة فما كاد المنذر يبلغ حوارين حتى ألقى القبض عليه وأرسل مخفورا إلى القسطنطينية، ولم يقتصر طياريوس على نفي المنذر، وإنما عمد إلى قطع الإعانة السنوية عنه، فقام أبناء المنذر الأربعة، وشقوا عصا الطاعة وأوغلوا في البادية وأخذوا يشنون الغارات على أراضي الدولة، فدخلوا بصرى وأخطروا حاميتها التخلي لهم عن الذخائر والأموال التي صادرتها منهم، ومن بينها تاج المنذر، فجرد طياريوس حملة ضدهم، وقد تمكن القائد البيزنطي بالمكر والخداع أن يلقي القبض على النعمان أكبر أبناء المنذر.

- في عام (٥٨٤م)، حمي وطيس الحرب بين الرومان والفرس فاستحضر موريقيوس خليفة طياريوس النعمان ووعدته بإرجاع والده من المنفى ومن معه. (صقلية) ثم طلب إليه أن يحارب الفرس معه وأن يعتنق الأرثوذكسية فأجابه النعمان قائلا: «إن جميع قبائل طي يعاقبه وأنهم يذبحونه ذبحا إن هو قبل قرار (المجامع)». غضب موريقيوس وأمر بسجن النعمان ثم ألحقه بالده.

بعد اعتقال المنذر وابنه النعمان اضطربت أحوال العرب في سورية، وتفككت عرى وحدتهم فتناطحت القبائل فيما بينها وتنازعت، ولم تنحصر منازعاتهم في البادية، وإنما تعدتها إلى البلدان العامرة وأخذت تسطو على الفلاحين المتحضرين

بلا خوف، مما حمل الروم بالتفكير في تنصيب عامل لهم (رئيس جديد) يقوم مقام المنذر وأرادوا ان يكون هذا العامل من آل جفنه أيضاً، ولما كان هؤلاء في الماضي من الهيبة في القلوب، وأنتهت الحرب بين فارس والروم في مصلحة الروم، وتعددت البنايات والإنشاءات الدينية الأرثوذكسية في الأردن وحوران (في مادبا، ومعان، وجرش، والجولان، والحيزة بين بصرى ودرعا، والطيبة، والغارية الغربية، وفي قسم - غصن، وحياة - بالقرب من شهباء، وهكذا فقد وئدت محاولة التحرر من سلطة البيزنطيين وأغلقت النافذة التي حاول الغساسنة أن ينفذوا منها إلى الاستقلال.

٣- النضال في العهد العثماني:

حاول السلطان عبد الحميد الثاني بعد أن أعلن الدستور في عام (١٨٧٦ م) السيطرة على البلاد، وإبعاد الماسونيين عن مراكز القوة في السلطنة، وتسلب جمعية الاتحاد والترقي على الشعب، التي عملت إنشاء شبكة منظمة من الجاسوسية وعهدا أسود من الإرهاب، وأذكت في نفوس الأتراك النزعة العرقية، لالكنه لم يتمكن من ذلك، وتمكنت من تفجير ثورة عسكرية في (١٠ تموز ١٩٠٨ م).

وأرغمت السلطان عبد الحميد على نشر الدستور المعطل من جديد، واستطاعت تحريك نزعة القومية العربية عند بعض المثقفين العرب، ونشأ ما يسمى في حينه بالليقظة العربية، وجرت الانتخابات لمجلس (المبعوثان) النيابي وكان العرب يشكلون نصف سكان السلطنة ولهم الحق في مائة وأربعين مقعداً، ولكن لم يخصص لهم الاتحاديون سوى ستين مقعداً، ولم يحصلوا إلا على خمسين منها، ومثل حوران في هذا المجلس إسماعيل باشا الحريري شيخ مشايخ حوران، وسعد الدين المقداد من بصرى، وفي الجلسات التي كانت تعقد، نادى الاتحاديون بسيطرة الأمة التركية على

بقية العناصر، فرفض العرب هذا الفعل واعتبروه معاديا للعرب، وإنكاراً لحقوقهم تحت قبة البرلمان، وانطلقت الأصوات بمطالب العرب القومية على لسان النواب العرب مثل إسماعيل باشا الحريري، وسعد الدين المقداد، وعبد الحميد الزهراوي، وشكري العسلي، وقد ألقوا الكثير من الخطب دفعاً عن القضية العربية ورداً على حملات الصحف التركية التي أوجدها (مصطفى كمال) الذي لقب نفسه (أتاتورك) أي أبو الأتراك، عليه من الله ما يستحق.

وفي الحرب العالمية الأولى كانت السلطة قد تحولت نهائياً إلى الاتحاديين وأجبر السلطان عبد الحميد الثاني بالتنازل عن الحكم، وتنكر الاتحاديون للقضية العربية وخانوها بعد مؤتمر باريس (١٩١٣م). وانتهت الحرب العالمية الأولى، وحارب العرب بقيادة الشريف حسين العثمانيين مع الحلفاء، وتمكنوا من إخراجهم من البلاد العربية، منتظرين من الحلفاء الوفاء بوعودهم بإقامة دولة عربية موحدة تحت راية الهاشميين، لكن أنى للصليبيين أن يوفوا بوعودهم وهم أمكر وخديعة، وأخس خلق الله أجمعين، أن يفوا بعهد أو وعد، وهم الذين تقاسموا البلاد العربية قبل الحرب بموجب معاهدة (سايكس - بيكو)، وكما ذكرنا سابقاً، فقد قاموا بنفي الشريف حسين حين مطالبته لهم الوفاء بوعودهم.



ثورة حوران

عند دخول الجيش الفرنسي إلى دمشق إثر معركة ميسلون التي قادها الشهيد البطل يوسف العظمة، الذي أبى أن تدخل القوات الفرنسية المستعمرة إلى بلده دون أن يقدم روحه فداءً لأرضه وعرضه، وخرج بعدد من المجاهدين لا يتجاوز عددهم الثلاثة آلاف مجاهد، يحملون البنادق القديمة والسيوف والعصي، ليجابهوا جيشاً جراراً مزوداً بأحدث الأسلحة الحديثة من دبابات وطائرات ومدافع، وبأكثر من إثني عشر ألف جندي، واستشهد ذلك البطل، وروى بدمه ودماء رفاقه الطاهرة أرض ميسلون، فقال فيها أمير الشعراء أحمد شوقي قصيدته الشهيرة التي مطلعها:

سأذكر ما حيت جدار قبر	بظاهر جلق ركب الرمالا
مقيم ما أقامت ميسلون	يذكر مصرع الأسد الشبالا
مشى ومشت فيالق من فرنسا	تجر مطارف الظفر اختيالا
ملأن الجو أسلحة خفافا	ووجه الأرض أسلحة ثقالا

إلى أن قال:

أقام نهاره يلقي ويلقى	فلما زال قرص الشمس زالا
-----------------------	-------------------------

وقد أسر بعض الذين نجوا في معركة ميسلون أن شخصاً من آل الصباغ من دمشق أقدم على إغتيال الشهيد يوسف العظمة أثناء المعركة، رحمه الله تعالى وورقه الفردوس الأعلى من الجنة. هذا والله أعلم



صورة الشيخ اسماعيل باشا الحريري، شيخ مشايخ حوران

خرج الملك فيصل منسحباً إلى درعا متخذاً منها مقراً لخط الدفاع الثاني، واتفق مع الشيخ إسماعيل باشا الحريري زعيم حوران وشيخ مشايخها على تهيئة الدفاع واتخاذ الإجراءات اللازمة لصد هجمات العدو بالإمكانات المتاحة لدى أهل حوران، وكانت الروح الوطنية تتأجج في نفوس الحوارة، وأمام الجموع المحتشدة في سهل حوران ألقى الشيخ إسماعيل باشا كلمته المشهورة التي قال فيها مايلي: يا أهل حوران لقد سمعتم ما تذوب له القلوب أسى على حاضركم، وأن مستقبل أبنائكم لفي أعناقكم فلا تورثوهم الذل والخنوع في أحضان المستعمرين، لقد قامت الثورات في جبال عامل وصهيون والشمال، فاستعدوا يا أبطال حوران فلقاء العدو بات قريباً، وسأقودكم وأكون أنا وأولادي وعشيرتي في الطليعة فداء للحرية والوطن، وكانت معنويات الحوارة عالية جداً، وأظهروا استعدادهم لمقاومة العدو وتقديم أرواحهم وأرواح أبنائهم للذود عن حياض الوطن، وقاموا بتشكيل تجريدة من الشباب المجاهدين ناوشت الفرنسيين طوال شهرين متتالين في منطقة الكسوة

عند جبل الأسود والمانع ووعدة زاكية، قامت الطائرات الفرنسية على إثرها بتدمير القرى وقتلت النساء والأطفال بلا رحمة ولا شفقة، وقاموا بفرض سياسة التجويع وإفقار الناس ونهب الخيرات ليتمكنوا من إخضاع المجاهدين، لكن خططهم باءت بالفشل الذريع وتابع أهل حوران نضالهم ضد المستعمر وخاضوا معه معارك عديدة سنأتي على ذكرها.

وفي آب سنة (١٩٢٥) م طلب وكيل المندوب السامي في دمشق «شيفلر» وصبحي بركات، رئيس حكومة سورية سابقاً زعماء حوران بالاجتماع، فحضر منهم الوفد الآتي أسماؤهم:

الشيخ اسماعيل باشا الحريري (شيخ مشايخ حوران) - (الشيخ أحمد الرفاعي (نصيب) - الشيخ منصور الحلقي (جاسم) - الشيخ عبد المجيد الفيصل الحريري (داعل) - الشيخ عقيل الياسين الحريري (بسر الحرير) الشيخ عبد الرحمن الرفاعة (أم ولد) - الشيخ محمد الزعل (المسيفرة) - الشيخ مصطفى المقداد (بصرى الشام) - الشيخ فندي الحشيش العباس (تل شهاب) الشيخ فاضل المحاميد (درعا).

وبعد أن التأم شمل المدعويين، جرى الحديث التالي:

قال شيفلر: أنتم تعلمون، ما لفرنسا عليكم من الأيادي البيضاء، وأعمال البر، التي لا تقدر، إلا من الأم الشفوقة، والآن نسعى لا ستتباب الأمن بينكم، وتهدة الخواطر حتى لا يلتفت الفلاح إلا لحقله، فتخصب أرضكم بعد المحل، ولذا قرر فخامة الجنرال ساراي ما يأتي:

١ - إعفاء حوران من دفع ضريبة الأعشار عن هذا العام (١٩٢٥م).

٢ - بالنظر لاحتياجكم لدفع الثوار عن أراضيكم، ومن يقصدكم ويقصد الحكومة بسوء، قد أجازت لكم السلطة حمل السلاح، وهي تقدم لكم الآن ألفي بندقية، مع كامل ذخيرتها، لتحاربوا العدو المغتصب بلادكم.

٣ - وستعلن الحكومة المنتدبة استقلال حوران، كما أعلنت سابقا استقلال جبل الدروز، إزاء خدماتكم التي ستؤدونها لبلادكم، وللحكومة الفرنسية.

تحدث بعدها الشيخ إسماعيل باشا الحريري فقال:

أما بخصوص المنحة الأولى، فنحن نشكر السلطة الفرنسية عليها، وأما بخصوص حمل السلاح، لمحاربة الدروز، فنحن قررنا عدم محاربتهم، مهما كان بيننا وبينهم من العدا، لما لهم من حق الجوار والوطنية، وأما حمل السلاح فهو لازم لدفع الطوائر العادية، وأما مسألة استقلال حوران، فلا أوافق عليها، لأن حوران جزء من أجزاء سورية الكلية، فضلاً عن أن حوران الحالية، بعد تمزيقها، لا تستحق أن تكون دويلة ولا إمارة، ولا حتى قضاء (ويقصد بعد سلخ نصف حوران وضمها إلى إمارة شرق الأردن، وهي مناطق عجلون وجرش وإربد)، فلسنا جاهلين أنفسنا، ولا طالبين غير استعدادنا، وما تقتضيه مصلحة بلادنا من توحيد الوطن وعدم التفريق، ثم تكلم كثيراً غيره، بآراء مختلفة، ورجع الوفد إلى حوران، ممتشقين السلاح مصممين على محاربة العدو الفرنسي المحتل، واتهمت السلطة الفرنسية الشيخ إسماعيل بالخيانة، وألقت القبض عليه، وبقي مسجوناً حتى هاج الشعب الحوراني مطالباً بإطلاق سراحه، وهددوا في حال عدم إطلاق سراح الشيخ إسماعيل سيقومون بالثورة المسلحة مما اضطرهم لإطلاق سراحه رغبة في أن يساعد ذلك على

إنحداد روح الثورة عندهم، وبعد إطلاق سراح الشيخ إسماعيل غادر إلى شرق الأردن، حيث أنه رأى أن ذلك يمكنه من قيادة الثورة، لكنه وبعد أن نظم المجاهدين وأعد الخطط للثورة، عاد ليقود الثوار في المعارك الدامية التي خاضها أهل حوران، ولو أن الشيخ إسماعيل طلب من الفرنسيين أن يكون ملكاً أو أميراً أو رئيساً على حوران مقابل سكوتهم، لوافقوا على طلبه دون تردد، لكن شيمه العربية وأصالته وإيمانه منعه من قبول أي منصب أو أي إغراء مادي على حساب أهله في حوران، ورفض مطالب المستعمر وآثر السجن على مجازتهم وقاد الثورة ضدهم.

هيئة زعماء حوران:

وهم: الشيخ إسماعيل الحريري - الشيخ منصور الحلقي - الشيخ عبد المجيد الفيصل - الشيخ محمد مفلح الزعبي - الشيخ عقيل الياسين - الشيخ عبد المحسن زين العابدين - الشيخ فاضل المحاميد - الشيخ فندي الحشيش - الشيخ مصطفى المقداد - الشيخ محمد الزعل - الشيخ حسن العبدو الحريري - الشيخ احمد الرفاعة - الشيخ مطلق المذيب - الشيخ حسن الشقران - الشيخ سلامة الطالب - الشيخ عبد الرحمن زين العابدين - الشيخ احمد المثقال الحريري - الشيخ عقيل الفروان الحريري - الشيخ نجم البلخي - الشيخ محمد المسالمة - الشيخ قاسم الجهامي - الشيخ احمد أبو نبوت - الشيخ حسن الحوشان المقداد - الشيخ سليم البطحة - الشيخ محمود المحاميد - الشيخ إبراهيم الشرع - الشيخ محمد ابو رومية - الشيخ عطا بيازيد - الشيخ رشيد الشناعات - الشيخ إبراهيم البدين - الشيخ نجيب الحاتم - الشيخ حسن فلوح - الشيخ زعل العبد الغني - الشيخ عبد الكريم

المحمد الحسن الحريري - الشيخ باير العمارين - الشيخ مطر الحبي - الشيخ هولو
الاحمد الحريري - وهم الذين ذكروا في كتب المؤرخين لتلك الحقبة مثل أدهم
الجندي وحنّا أبي راشد وعبدالرحمن الشهبندر وغيرهم.

معارك المجاهدين الحواريّة:

١ - معركة خربة غزالة:

بعد معركة ميسلون (٢٠) تموز (١٩٢٠م) هاجت حوران من أقصاها إلى
أقصاها، ورفعت رايات الثورة والجهاد ضد المستعمر الفرنسي، على إثرها جاء وفد
إلى حوران لثني الثوار عن مواصلة الثورة، على رأسه علاء الدين الدروبي الذي عين
رئيساً للوزارة من قبل الفرنسيين بصحبة عبد الرحمن اليوسف والأيوبي وآخرين،
ولدى وصولهم محطة خربة غزالة، قادمين بالقطار من دمشق هاجمهم بعض الثوار
من شباب حوران، وقتلوا الدروبي واليوسف، وهذا الأمر أغضب الفرنسيين
وأرسلوا قوة لقمع الثورة، لكن الثوار تمكنوا من صدها وتراجعت القوة إلى محطة
الكسوة وقتل من الفرنسيين عدد كبير واستشهد عدد من المجاهدين الثوار، مما دفع
الفرنسيين بعد هذه الهزيمة إلى إرسال قوات كبيرة معززة بالدبابات والمصفحات،
وتمركزت القيادة في درعا، ثم قاموا باحتلال مناطق من حوران منها: تبنة - جباب
- المسمية - دير علي - الكسوة - غباغب - الشيخ مسكين، وقاموا بتمشيط أراضي
حوران وقراها، فخربوا البيوت وقتلوا النساء والأطفال والشيوخ وأحرقوا الزروع،
وقد أبدى الثوار ضروياً من الاستبسال والشجاعة حيرت عقول الفرنسيين، وساند
أهالي حوران عشائر بني نعيم بزعامة الشيخ صالح الطحان، وعشائر الفضل بزعامة
الأمير محمود الفاعور، وعشائر السلوط بزعامة الشيخ أحمد العياض، وقام

الفرنسيون بتاريخ (٢٠ أيلول ١٩٢٠م) في منطقة المرج الأخضر بإعدام كل من الشهيد محمد يوسف الحريري والشهيد طالب عيسى الحريري من قرية علمه وفرّ قاسم الداغر واثنان من أبناء عمه وفرضوا ضريبة قدرها مائة ألف جنيه عثماني وستة وثلاثون ألف جنيه دية الوزراء والمقتولين في تلك الحادثة وجردوا الأهالي من كل ممتلكاتهم.

٢- معركة مزيريب:

في شهر نيسان من عام (١٩٢٤م) بعد الظهر كمن المجاهدون في موقع بين درعا ومزيريب بقيادة مصطفى الخليلي وصادق حمزة وسعيد الأظن وفندي الحشيش ومنصور المقداد وقاسم الجهماني، ياسين محمد الحشيش وعدد كبير من مشايخ آل الحريري ورجالهم وعدد من رجال ومجاهدي حوران من آل الزعبي والمحاميد والشرع وآل أبونبوت والبيازيد والمقداد، على إثر معلومات تؤكد أن مستشار درعا ومعه قوة فرنسية متجهة من درعا إلى مزيريب، وعند وصول القوة اشتبك المجاهدون معها وتمكنوا من قتل خمسة جنود وأصيب المستشار برجله وأصيبت زوجته بيدها وتعطلت السيارة وقتل سائقها وتمكن من الفرار هو وزوجته إلى دمشق وقام المجاهدون بقطع أسلاك الهاتف.

وقد ذكر أدهم الجندي أن قطاعاً للطرق بقيادة ابن سمير الملقب زوراً (بشيخ العرب) تعرضوا للثوار بعد هذه المعركة، عند وصولهم إلى قرية نبع الصخر، وحاول اللصوص سلب الثوار أسلحتهم ودارت بينهم معركة واستشهد فيها البطل المجاهد صادق حمزة وتمكن ابن سُمير من أسر الشيخ مصطفى الخليلي ورفاقه وسلمهم للسلطات الفرنسية، وأودعوا سجن القلعة بدمشق، وقد حكم عليهم بالإعدام،

وقبل موعد التنفيذ بيوم واحد قام المجاهد البطل زكريا الداغستاني، وكان ضابطاً في سجن القلعة من تهريب المجاهدين من السجن والقصة معروفة.

٣- معركة بصر الحرير:

زحفت حملة فرنسية مؤلفة من لواء المشاة بقيادة (لونه) وكتيبة (غابل) التابعة لفيلق الرماة الإفريقيين الحادي والعشرين وكتيبة سنغالية وكتيبة بقيادة (لوغال) وكتيبة الرشاشات الثانية التابعة لفيلق الرماة الإفريقي الحادي والعشرين بقيادة الكابتان (عزاردي) في صباح (٣٠ تموز ١٩٢٥) واتجهت إلى بسر الحرير، معززة بمفرزة سيارات مصفحة بقيادة الليوتنان (غاسكة) على أن يحتل جسراً كان قائماً في الطريق المتجهة إلى السويداء عند مدخل بسر الحرير، وقد تمكنت هذه القوات من الوصول إلى الجسر عند هبوط الليل، وأخذت في تركزها على شكل المربع، لكن أهالي بسر الحرير والقرى المجاورة كانوا لهم بالمرصاد فقاموا قبل منتصف الليل بمواجهة القوات واحتدم القتال طوال الليل واستبسل الأهالي بهجومهم وحاصروا كتيبة (غابل) في الجانبين الشمالي والشرقي وتمكنوا من السيطرة على سريتي الرشاشات اللتين كان يتولى قيادتهما «جو سيكالدي» وعند الصباح كانت قوات المجاهدين من بني معروف قد وصلت الى مكان المعركة لمساندة المجاهدين المتواجدين على أرض المعركة وتمكنوا من قتل كافة أفراد سرية الرشاشات، ولم يبق إلا قائد السرية الذي بقي يدافع حتى قتل، فقامت قوات المدفعية الفرنسية بدك جموع المهاجمين.



الشيخ محمد خير بيك بن إسماعيل الحريري الرفاعي
شيخ مشايخ حوران

واستشهد عدد كبير منهم لكن المجاهدين تمكنوا من اختراق دفاعات العدو والالتحام معه في معركة دامية بالسلاح الأبيض، تجلت فيها ضروب من الشجاعة والاستبسال قل نظيرها فانسحبت القوات الفرنسية تجر أذيال الخيبة والهزيمة.

قامت مجموعة من أهالي القرية بالهجوم على معسكر الفرنسيين واستطاعوا أن يستولوا على قطع كثيرة من السلاح ويأخذوها غنيمة، وقد قامت القوات الفرنسية في اليوم التالي بجمع جميع الأهالي في ساحة البلد تحت الشمس الحارقة، أطفال ونساء وشيوخ، وقالوا لهم لن نفرج عنكم حتى يأتي السلاح.

وتوفي عدد من الأهالي في هذه الحادثة، وسبقته معركة اشترك فيها البدو مع أهالي بسر الحرير والقرى المجاورة.

وعند ذكر بسر الحرير لابد لنا من ذكر قامة شائخة ومجاهد من أبنائها وهو الشيخ محمد فرحان الحريري الذي شارك في معركة حرش جباتا الخشب مع المجاهد الشهيد أحمد مريود وقام بنصب كمين للجيش الفرنسي لمنعه من التقدم من لبنان إلى سورية، وقام بتلغيم جسر الليطاني القريب من رياق، وقد حكم عليه بالإعدام، وفر منهم إلى شرق الأردن حتى فرّجها الله عليه، وهو صاحب كتاب (اصقاع حوران في ما يسمى بالدير أو الخان) وله ديوان شعر فصيح وآخر نبطي.

ولا بد لنا أيضا من ذكر جده الشيخ العلامة عبد الباقي الحريري الأستاذ في الأزهر الشريف وهو أول من اجتمعت له نقابة الأشراف في مصر والشام. وهو صاحب كتاب أسماء الله الحسنى (مخطوط) وهو الآن بحوزة حفيده الشيخ الدكتور محمد فتحي راشد الحريري حفظه الله ابن الشيخ الفقيه راشد الحريري رحمه الله.

معركة المزرعة بقيادة سلطان باشا الأطرش:

وهي التي حشدت فيها فرنسا كامل قواتها المتواجدة في سورية ولبنان بقيادة الجنرال ميشو وتتألف من ستة آلاف جندي مدججين بالسلاح والعتاد والمدافع والمصفحات والسيارات، تساندها الطائرات الحربية واحتلوا موقع (تل الخاروف) وبدأت المعركة بهجوم الثوار الذين يتسلحون بالإيمان وحب الوطن وبنادق وسيوف راجلين وخيالة، وكان القائد الفرنسي قد رسم خطة للقتال في تلك المنطقة، وتظاهر بالتراجع أمام الثوار حتى إذا ما أوصلهم إلى المكان الذي يريد، أطبق عليهم وأمطرهم بوابل من نيران المدافع والرشاشات والدبابات وغيرها من صنوف الأسلحة المتطورة في ذلك الوقت، واستشهد عدد كبير من فرسان بني معروف ممن كان يعتمد عليهم قائد الثورة سلطان باشا الأطرش، وشاء الله أن لا يهنأ ميشو بفرحة النصر، فقد وصلت سرية مجاهدي المقرن الشمالي من طريق مختصر إلى المكان الذي جرت فيه معركة الصباح دون أن تعلم ماذا حل بإخوانها مجاهدي السويداء، واشتبكت مع مؤخرة الحملة الفرنسية في قتال عنيف ومباغت وذلك في موقع بسر الحرير، وقد ساهم كل أهالي المنطقة وخاصة قرية بسر الحرير في مساعدة الثوار وتوجيههم إلى أمكنة الفرنسيين، فأسفرت هذه المعركة عن قتل أعداداً كبيرة في صفوف العدو، ودبت الفوضى وفروا من أرض المعركة إلى جهات أخرى واستولى الثوار على السيارات والعتاد والذخائر، وحطموا المدافع لتعذر نقلها من مكانها، وعادوا إلى قرية سليم، حيث كان القائد سلطان باشا الأطرش يجمع قواته، واتخذ قراره في خوض معركة فاصلة مع العدو الفرنسي ولم ينبلج الصباح حتى كانت قوات المجاهدين قد طوقت القوات الفرنسية في موقع المزرعة ولم ينتبه الفرنسيون

إلا وسيوف المجاهدين من بني معروف في أعناقهم، وبدأ القتال بالسلاح الأبيض وكان النصر حليف المجاهدين وقتل من العدو عدداً كبيراً وفرّ الباقون ومن بينهم قائد الحملة (ميشو) وستظل معركة المزرعة مفخرة يعتز بها كل أبناء حوران، السهل والجبل وأبناء سورية والعرب جميعاً.

معركة المسيفرة:

إثر الهزائم التي مني فيها المستعمر الفرنسي في معركة المزرعة والمعارك السابقة، قررت القوات الفرنسية إنشاء قاعدة إضافية لحشد قواتها في محيط قرية المسيفرة، قوامها اللواء الخامس من الفيلق الرابع وقائده (كراتزر) والكتيبة الثانية عشرة وقائدها الكابتان (غروبوز) والليوتنان (آخر) الكتيبة التاسعة عشرة وقائدها الكابتان (مامي) والملازمان بروليه وديزاهم) والكتيبة التاسعة والعشرين بقيادة الملازمين (فرنون وبواسيه) وكتيبة الرشاشات الخامسة يقودها الكابتان (بران) والملازم (لاكور) وكوكبة الفرسان الرابعة يقودها الكابتان (لاندرسو) والملازمان (روبيركاستانمدرانو - وويتي) وقرية المسيفرة قرية صغيرة كان يقطنها حوالي ألف نسمة من السكان وتقع على مرتفع من الأرض وعرة المسلك.

ولدى وصول القوات الفرنسية إلى القرية واتخاذ مواقع لها في محيطها خرج عدد من رجال القرية إلى القرى المجاورة للالتحاق بصفوف المجاهدين، وكان العدو مشغولاً بالتحضير للهجوم على السويداء التي تقع إلى الشرق من المسيفرة، وعند بزوغ فجر الخامس عشر من أيلول (١٩٢٥م) كانت جحافل الثوار من السهل والجبل تصطدم مع مقدمة قوات العدو المؤلفة من كوكبة من الفرسان وكتيبة مشاة وتلحق بها خسائر كبيرة في الأرواح والعتاد.

وفي ليلة السبت الثامن عشر من ايلول (١٩٢٥م) زحفت قوات من جبل حوران وباغتوا العدو في معاقله وكانت ملحمة بطولية بين شباب مجاهدين لا يملكون إلا بعض البنادق والسيوف والخنجر وإيمانهم بأوطانهم وبين جيش مدجج بأحدث الأسلحة من المدفعية والدبابات والرشاشات سطر فيها المجاهدون أروع صفحات البطولة والفداء، وتمكنوا من اختراق دفاعات العدو واشتبكوا معه بالسلح الأبيض، وكان النصر حليفهم وانكشفت المعركة عن عدد كبير من القتلى في صفوف العدو واستشهد (٢٥٠) مجاهد وجرح (٥٥٠) منهم وغنموا كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر.



آثار قلعة بسر الحرير

كانت محفوظة لدى العقيد الطيار ياسين الحريري حفظه الله

معركة عرى:

في الثالث من شهر تشرين الأول (١٩٢٥م) تقدمت قوات العدو الفرنسي باتجاه قرية عرى في جبل حوران فتصدت لها مجموعة من المجاهدين قادمة من قرية المجيمر واستعمل العدو فيها كل صنوف الأسلحة الثقيلة، ورغم كل ذلك فقد تكبد خسائر فادحة في الأرواح والعتاد واستشهد في تلك المعركة الشهيد البطل المرحوم نسيب الأطرش، والشهيد البطل سعيد العاص، اللذان كانا يقودان المعركة برفقة الأمير حسن الأطرش وآخرين، وكانت معركة من المعارك التي أدمت قلوب الفرنسيين وحيرت عقولهم لما أبدى فيها المجاهدون من ضروب الشجاعة والإقدام، وإن ما ذكرناه بإيجاز عن بعض المعارك التي خاضها أهالي حوران في سهل الخير وجبله الأشم، هو غيض من فيض من ملحمة الرجولة والبطولة والتضحية في سبيل الوطن وقد سجلت كتب التاريخ تلك المعارك بالتفصيل ويمكن للقارئ الكريم الرجوع إلى مراجع الكتاب للاستزادة في معرفة تفاصيلها (وإن مالا يدرك جله لا يترك كله كما يقال).

معركة الدلي:

عند موقع الدلي وهو مرتفع من الأرض غرب طريق درعا وفي يوم السبت العاشر من تشرين الأول عام (١٩٢٦م)، وبناء على علم سابق للثوار بأن قوة فرنسية ستتم من ذلك المكان متجهة إلى الشيخ مسكين، فقد كمن الثوار هناك وعند وصول القوة الفرنسية المجهزة بالمعدات الثقيلة والخفيفة تصدوا لها وأمطروها ببوابل من نيران بنادقهم وكانت مفاجأة كبيرة للقوات الفرنسية، فقدوا فيها صوابهم وقتل منهم ثلاثون جندياً وأسر إثنان وعشرون وفّر الباقون، واستولى الثوار المجاهدون

على الخيول والأسلحة والمعدات الحربية لهذه القوات ثم سارت فرقة من المجاهدين بقيادة زكي الحلبي وشوكت العائدي والشيخ اسماعيل باشا الحريري وعدد كبير من مجاهدي حوران الذين فاق عددهم في تلك المعركة على ستائة مجاهد كان سلاحهم العزيمة والإيمان بالله والوطن، وبنادق كانوا قد استولوا عليها من القوات الفرنسية الغازية.

وتمكنت تلك القوات من المجاهدين من السيطرة على حدود اللجاة القريبة والمطله على محطة سكة حديد درعا - دمشق وقاموا بنسف جسر عرار ولم تتمكن القوات الفرنسية من صد هجمات المجاهدين لجهلهم بطرقات منطقة اللجاة الوعرة، ولم تنفعهم طائراتهم التي ألقت حممها على الثوار لمنعهم من الإغارة عليهم وتكبيدهم خسائر فادحة في الأرواح والمعدات، وتقهقرت قواتهم واضطرت إلى الانسحاب تجر أذيال الخيبة والهزيمة، وكان لهذه المعركة الأثر الكبير في مجريات الأحداث وكانت درسًا قاسيًا تلقته القوات الغازية، ومفخرة لأبناء هذا الجزء الغالي من الوطن الحبيب، وقام الثوار بعد ذلك باحتلال مخفر بصرى الشام ومخفر الشيخ مسكين، وأسروا جنودهما واستولوا على موجوداتهما من السلاح والذخائر.



صورة الشيخ محمد عبد المحسن زين العابدين الحريري وولده عزت

ردّ على أباطيل الشهبندر:

يقول الدكتور عبد الرحمن الشهبندر في مذكراته ما يلي: ^(١)

«ولكننا وبالأسف علمنا بعد حين من السادة ضبيان إخوان أن هذا الشاب ربما كان جاسوساً، نقل منهم بعض المناشير التي وزعت في المدينة، وظهرت مثل هذه الصورة في الدعوى التي أقيمت عليهم في الديوان العرفي، وكذلك كان حريصاً جداً أن يأخذ منهم رسالة بخط يدهم للملك فيصل والأمير عبد الله فامتنعاً».

ويقصد بذلك بديع خضر الديري، ثم يتابع فيقول:

«وعلى ذكر بديع خضر الديري أرى أن أذكر رجلاً حامت التهمة حوله كثيراً وهو الشيخ عبد المحسن زين العابدين الحوراني شيخ قرية إنخل، فإن هذا الرجل ليس بالعر ولا بالنفير، ولا يدل حديثه على أنه يعرف شيئاً من أمور السياسة التي نحن بصدددها، ولما سألناه عن سبب الحشرة التي حشرها معنا أجاب بأنه كان له بعض العلاقات في شرق الاردن، وأنه سيق إلى السجن بسبب هذه العلاقات، وقد صادق الأخ حسن بك، على أن الرجل كان في شرق الأردن حقاً وأنه تعرف به هناك بواسطة الأستاذ الشيخ كامل القصاب، الذي كان يسلم عليه ويؤانسه بالحديث كلما رآه، ولكن الأخ حسن بك وسعيد بك كانا بمقدمة المتشائمين، وقد دلت الحوادث فيما بعد على أنه ربما كان جاسوساً أيضاً، لأنه ما كاد يطلق سراحه من سجننا حتى أعيد إلى السجن مع السادة ضبيان أخوان وأعضاء حزب الحديدي، حيث بقي نحو شهرين كاملين يسترق أخبارهم، وذكروا لي أنهم كانوا آخذين منه تمام الحيلة» انتهى كلام الشهبندر.

(١) الدكتور عبد الرحمن الشهبندر هو أحد أعلام الثورة السورية وهو صاحب مذكرات الشهبندر.

من خلال ما تقدم وما ورد على لسان عبد الرحمن الشهبندر نستطيع أن نستخلص الحقائق التالية:

١- أن الدكتور عبد الرحمن الشهبندر كان رجلاً سطحياً لم يساعده تفكيره في أن يصل إلى حقائق بسيطة يمكن معرفتها من قبل العامة في ذلك الوقت، بالرغم من الجهل الذي كان سائداً في تلك الحقبة من الزمن، لأن الرجل الرشيد إذا أراد أن يتهم انساناً، فلا يتهمه إلا بعد أن يمتلك الدليل المادي الذي يؤكد صحة دعواه وهو لم يفعل ذلك. (إن بعض الظن إثم) وهو آثم لاشك، وعند الله تجتمع الخصوم، وسيقف بين يدي الله ويسأل عما اتهم به رجل بريء.

٢- ألم يصل إلى مسامع الدكتور شهبندر مقولة (المتهم بريء حتى يدان) وهي مقولة معروفة حتى في قوانين المتخلفين من الأمم؟.

٣- يقول الدكتور الشهبندر أن الشيخ عبد المحسن زين العابدين الحريري لم يكن بالغير ولا بالنفير، وهذا تناقض واضح في كلامه، فكيف يكون لرجل ليس له بالغير ولا بالنفير أن يكون جاسوساً؟؟؟، ثم هل يعقل أن تقوم سلطة ما باستعمال جاسوساً لصالحها لا علم له بالغير ولا بالنفير؟؟؟. وهذا دليل مغالطة وبطلان ادعائه.

٤- المعروف حتى عند قبائل البدو أنهم إذا أرادوا استعمال شخصٍ ما لاستطلاع أي أمر، اتخذوه من نفس البيئة ومن تتوفر لديهم الخبرة والحكمة والمعرفة، ولا يرسلون رجلاً من المدينة ليستطلع أخبار أهل البادية، فما بالك برجال الحكم والسياسة، فمن باب أولى أن يرسلوا شخصاً دمشقياً لا يثير الشبهة وخاصة إذا أرسل إلى أشخاص أطباء وعلماء وسياسيين.

٥- لم يورد الدكتور شهبندر أي فعل قام به الشيخ عبد المحسن يستوجب الاتهام سوى أن الشيخ محمد عبد المحسن لم ينضو عند دخوله السجن تحت عباءة الدكتور شهبندر التي كانت فضفاضة عليه، فعباءة الشيخ عبد المحسن أكبر وأوسع، ولا يستطيع شخص مثل عبد المحسن زين العابدين أن يتذلل لأحد سوى الله، فلم يكن بحاجة إلى عبد الرحمن الشهبندر ولا إلى غيره، فهو شيخ ابن شيخ وابن عائلة يطفح سجلها بالعزة والكرامة، إضافة إلى أنه كان قاضياً بين العشائر في النزاعات التي كانت تحصل فيما بينهم، ونساب للقبائل وللعشائر العربية، وهو ابن عم الشيخ إسماعيل باشا الحريري زعيم حوران وقائد ثورتها، وأخوه من الرضاعة وصديقه، والذي لو علم على الشيخ عبد المحسن أية شائبة لما سكت عنها، خاصة أن هذا يضر بسمعته وسمعة عائلة الحريري، ثم ماهي تلك العلائق للشيخ عبد المحسن في شرق الأردن خاصة في تلك الفترة التي خرج فيها الملك فيصل من سورية؟، واشتعلت نيران الثورة في حوران، فهو لم يكن موظفاً ولا تاجراً، وإنما كان ذلك بسبب ملاحقة المستعمر الفرنسي له كونه أتهم بالاشتراك في محاولة قتل الجنرال غورو.

٦- إن الشيخ عبد المحسن زين العابدين تعلم العلم الشرعي في مدارس ومساجد دمشق وتزوج بالسيدة رقية بنت جمعة نصري، وهي من عائلة دمشقية عريقة، وهي أم أولاده وكان يقيم في منزله في حي ساروجة الذي كان يقطنه عليه القوم في ذاك الزمن.

٧- إن الشيخ عبد المحسن قد حكم من قبل السلطات الفرنسية بتهمة الاشتراك في مقتل الجنرال غورو، وقد أرسلت صورته إلى باريس لتتعرف عليه زوجة غورو، لكنها لم تتعرف عليه بسبب تغيير معالمه قبل التصوير، وجميع أهله وأهل قريته يعلمون ذلك.

٨ - لا يسعنا أمام هذا الاتهام الباطل الذي يدحضه العقل والمنطق، وبعد كل ماتقدم إلا أن أقول أن هذا الافتراء من قبل الدكتور شهبندر، إما أن يكون متعمداً كونه كان الطبيب الخاص لجمال باشا السفاح وصديقه، وكان أحد أعضاء المحفل الماسوني في سورية، وقد ذكر ذلك حنا أبي راشد في كتابه حوران الدامية ص (٤٥٧) حيث قال: ما مجمله أنه هو ماسوني وأن الجنرال ساراي ما سوني والكابتن رينو ماسوني، وأورد على لسان القومندان (كوسيلير قائد درعا أن الدكتور شهبندر هو رجل فرمسون لا دين له) والشيخ عبد المحسن كان ينكر أفكار الماسونية، أو أن الدكتور كان مغترّاً بنفسه وبشهادته التي حالفه الحظ بالحصول عليها، فأراد أن يرفع من قامته أمام فحول الرجال ليبنى لنفسه مجداً على حساب الآخرين، فاختار ضحاياه من الفلاحين لزعمه أنهم لا يقرؤون ولا يستطيعون إيذاءه، ولم يتهم أحد من أبناء دمشق، كونه يعيش بينهم ويخاف من سطوتهم، ثم هل كان كل سكان دمشق وكل السجناء من سكان دمشق وطنيين مخلصين ؟ ولم يكن بينهم رجل واحد مخبر أو جاسوس ؟ وجميعنا يعلم أن مجتمع المدينة في ذاك الزمن مؤهل لوجود رجال مخبرين ومتعاملين مع السلطات الفرنسية أكثر بكثير من أهل الأرياف الذين يعيشون على سجيّتهم بعاداتهم وتقاليدهم النبيلة، ونسي أن يتحدث عن الدمشقي الذي اغتال الشهيد يوسف العظمة من آل الصباغ أثناء معركة ميسلون، والذي فرّ إلى الأردن خوفاً من انتقام آل العظمة، ولا زال أحفاده هناك، وقصته مشهورة ومدونة في كتب التاريخ.

٩ - لقد غادر الشيخ عبد المحسن إلى الأردن إثر ملاحقته من قبل السلطات الفرنسية، واستقبله الأمير عبد الله في قصره وأكرم وفادته وبقي بالأردن أكثر من خمس سنوات، ثم عاد متخفياً إلى حوران حيث حلّ ضيفاً على الشيخ إبراهيم اللكود^(١) من قرية الحارة فقدم له واجب الضيافة وأرسل من يخبر السلطات عنه، حيث أُلقي القبض عليه وأودع سجن القلعة، وذلك حسب ماسمعه من والدي وأقربائي حسب ما كانوا يظنون، أو أنهم سمعوا ذلك من الشيخ عبد المحسن نفسه الله أعلم، وربما كان الأمر عن طريق المصادفة، أو أن أحداً من أهالي القرية أخبر عنه دون علم الشيخ إبراهيم، والعلم عند الله، ثم أخلي سبيله بعد توسط أقربائه وأصهاره من آل نصري، وما لبث أن أعيد للسجن بتهمة الانتماء إلى الثورة، ثم أخلي سبيله بعد أن بيعت أرضه من أجل رشوة المسؤولين الفرنسيين، حتى تم الإفراج عنه، وقد مات رحمه الله عام (١٩٤٨م)، بعد أن رأى راية الاستقلال ترفرف في سماء الوطن، وعلى كل مفترى من الله ما يستحق، ورحم الله الشيخ الجليل محمد عبد المحسن زين العابدين الحريري.

(أبو عزت) رحمة واسعة، ورزقه مرافقة سيد المرسلين في أعلى عليين، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

(١) إبراهيم اللكود هو شقيق زوجة الشيخ على زين العابدين ابن عم الشيخ عبد المحسن.



سلطان باشا الأطرش قائد الثورة السورية

ثورة حوران عام ١٩٢٠ م:

بعد معركة ميسلون الدامية استشهد فيها البطل يوسف العظمة والشهداء الأبرار كما أسلفنا، غادر الملك فيصل متجها الى الكسوة مع بعض وزرائه وكان متوقعا أن يلحق بهم رئيس الوزراء علاء الدين الدروبي ولكنه تخلف عنهم، وكان تخلفه دلالة واضحة على تفاهمه مع الفرنسيين وبقائه رئيسا للوزارة، وكان مفروضا من الحكومة السورية التي تشكلت قبل ميسلون أن تستقيل من الحكم، وتعمل على توسيع نطاق الثورة التي امتدت من حوران إلى محافظة حلب، وبدلاً من أن تستقيل لجأ الدروبي لإذاعة بيان في (١٥ آب ١٩٢٠ م) ينذر فيه الأهليين والموظفين بالويل والثبور إن لم يذعنوا للمحتلين، ويبرر أعمال الجنرال غورو ويخلق له الأعذار، يمهد للفرنسيين فرض الأمر الواقع، ثم أقام للقائد الفرنسي مأدبة تكريمية ألقى فيها خطاباً أثنى فيه على تقاليد فرنسة المجيدة في تحرير الشعوب، الأمر الذي أثار نقمة الأوساط الشعبية وازدراءها، وكان هذا بعد مغادرة فيصل إلى درعا التي كانت بالنسبة إليه مفترق الطرق، واتخذ القطار مقراً له وللوفد المرافق، ونصبت له خيمة بالقرب من القطار ليستقبل الملك فيها شيوخ العشائر ويتذاكر معهم شؤون البلاد، إلا أنه غادر درعا، إثر برقية أرسلها الدروبي لصنيعة الفرنسيين الذين أوعزوا إلى إليه إبلاغ الملك بوجوب المغادرة خلال عشر ساعات، وإلا ستقصف المنطقة بكاملها بالطائرات.

تجريدة حوران أو العميشية:

انطلق حوالي أربعة آلاف مقاتل صاحبهم مقاتلون من حوران الأردني، ومعهم النائب سعد الدين مقداد. وانتشروا بين جبلي الكسوة والأسود، والمانع ووعدة زاكية، وبدؤوا صدامًا مسلحًا مع الفرنسيين استمر طوال شهرين، وكان قتالًا شعبيًا غير نظامي، استند إلى التسليح الفردي (كل مقاتل يحمل زاده وسلاحه) واستخدم المقاتلون المشاة الصخور والوعر مساتر لهم، وقام قطار درعا - دمشق بنقلهم مرغمًا، فقد الثوار خلالها أربعين شهيدًا، وجرح محمد رجا المسالمة في فخذه، وبعد أن عجزت فرنسا عن تفريق المقاومين لجأت إلى المفاوضة وحاولت الرشوة.

في (٢١ آب) غادر وفد من دمشق يؤم حوران ينقل اليه الرضوخ والذل للدخيل وليجني من حوران الغرامة التي فرضتها السلطة الفرنسية عقيب ميسلون. وقد حمل هذا الوفد معه شيئًا من الذهب لتوزيعها على ضعاف النفوس، وتألف هذا الوفد من رئيس الوزارة علاء الدين الدروبي وعبد الرحمن اليوسف ورئيس مجلس الشورى وعطا الأيوبي وزير الداخلية، والشيخ عبد القادر الخطيب والشيخ عبد الجليل الدرّه.

استقل الوفد القطار إلى درعا، وفي محطة خربة غزالة (ونترك الحديث إلى ماورد في كتاب معارك الحرية في سورية للكاتب فارس زرزور، الذي يسرد جزءًا من قصة الكفاح الشعبي من أجل جلاء القوات الأجنبية).

لم تشأ السلطات الفرنسية أن تتكبد نفقات الاحتلال والقمع والتدمير من خزائن وزارة المالية الفرنسية، رغم أن هذه الخزائن أُلقت على كاهلها أعباء الصرف على عشرات الألوف من الموظفين غير الأكفاء، العاطلين عن العمل، والصوص

والمرتزقة وغيرهم، هؤلاء الذين استقدموا المحتل إلى سورية، لكي يعيشوا من أموالها وأرزاقها.

كانت حصة محافظة حوران من هذه الغرامات مبلغ عشرين ألفاً من الليرات الذهبية، وبما أن الحوارة لا يعرفون شيئاً اسمه الذهب أو الليرات الذهبية في ذاك الزمن بسبب الفقر المدقع الذي أصابهم في زمن السفر برلك وما تلاه، فقد فغروا أفواههم من الدهشة، ولبثوا في بيوتهم ينتظرون حلاً لهذا اللغز اللعين، وعندما وجد غورو أن الخزانة لم تنزل فارغة، وأن وزارة المالية الفرنسية تستعجل وصول الذهب، فقد أمر أعضاء وزارته أن يسافروا إلى حوران لجمع الذهب المطلوب.

وفي الساعة الثامنة صباحاً من (٢١ اب)، تحرك من محطة البرامكة قطار يحمل في عرباته علاء الدين الدروبي رئيس الوزارة وعبد الرحمن باشا اليوسف ورئيس مجلس الشورى وعطا الأيوبي وزير الداخلية وشيخين من رجال الدين الكبار، مع سرية من الجنود الفرنسيين لحراسة هذا الوفد العتيد، وعندما كان القطار يتوقف في المحطات، كان رجال الوفد يلمحون فيها الفلاحين حفاة عراة معفرين بالتراب، تلوح في أعينهم الرمداء نظرات شبيهة بنظرات الفضول المستطير، وكان أعضاء الوفد مع الجنود يطلون برؤوسهم من النوافذ ويستعرضون المستقبلين بابتسامات من جاء بالبشرى السارة، حتى وصل القطار إلى محطة خربة غزالة (٧٥ كم جنوب دمشق) فتوقف كعادته، وكان منظر الفلاحين في هذه المحطة يختلف بعض الاختلاف عن منظر الفلاحين في المحطات السابقة، لا من حيث اللباس والهيئات العامة، بل من حيث أن هؤلاء كانوا يصرخون ويهتفون هتافات غامضة «لعل الدروبي قد ضحك في سره»، إذ وجد الجنود الفرنسيين يصوبون بنادقهم باتجاه الفلاحين، قائلاً في سره محدثاً نفسه: «إنني في حماية الجند الفرنسيين فهل أخاف من

فلاحين لا يحملون غير مدى مثلومة وسيوف صدئة ومذاري محطمة الاسنان وفؤوس فقدت نصاباتها...».

«ونسي الدروبي أن الذبح بهذه الأدوات البدائية، أشد قسوة من الذبح بموس الخلاقة، فيما كان الفلاحون يصرخون ويجأرون أين الذهب؟ ليس لدينا ما نبيعه غير شرفنا وكرامتنا وهذا لا يباع، وفي تلك اللحظات طاشت رصاصات الجند في أجساد الفلاحين السمرء، ولكن ذلك لم يزد هم إلا حماسا فانقضوا على القطار، وبدأت السيوف الصدئة والمدي المثلومة والمذاري فاقدة الأسنان أعمالها في النحور المتنفخة وضرب غورو كفًا بكف وصرخ مفجعًا: لقد فقدت وزارتي وضاع الذهب وعلى الأثر سارت الحملات العسكرية إلى حوران، فأحرقت الزرع والنسل، ودمرت القرى، ونهبت وشردت النساء والأطفال».

وفي ايلول (١٩٢٢م) أعدم كل من الفلاحين صلاح الدين المصري، وحسين الحاج، ويوسف عيسى، وزعل اليوسف، بتهمة اغتيال الوزراء واقتيد عدد من الفلاحين إلى السجن ومعهم الشيخ عبد المحسن زين العابدين، الذي ذكره عبد الرحمن الشهبندر في مذكراته.

أما الحادثة الثانية، فقد انصبت على رأس الجنرال غورو بالذات وكانت في (٢٣) حزيران (١٩٢١م) كان المندوب السامي لسورية وكيليكيا متوجهًا بسيارته إلى القنيطرة لاسترضاء الأمير محمود الفاعور قائد ثورة الفاعور، وكان في صحبته حقي باشا العظم حاكم دولة دمشق ومرافقان عسكريان، وما إن وصلت السيارة إلى أحد المنعطفات الخطرة المحصورة بين أكوام من الحجارة السوداء، حتى توقفت فجأة، صرخ غورو بعصية (ما هذا)؟ فأجاب السائق، إن الطريق مسدود بالأحجار يا سيدي، وما كاد السائق يتم عبارته حتى انهال الرصاص على السيارة من كل

جانب، وفي تلك اللحظة وصلت سيارة الحرس المرافقة، فتوقفت قبل الوصول إلى المنعطف، وهبط منها رجال الحرس وبدأوا بإطلاق النار على الثائرين، وتراجع الثائرون بعد أن تركوا السيارة مثقبة كالمصفاة، معتقدين بأن ركبها بما فيهم الهدف الحقيقي قد أصبحوا كومة من الجثث، ومن سوء الحظ أن غورو كان نصفه من خشب وكان عسكرياً بارعاً، فقد قذف بنفسه من السيارة بعد أن أصيبت أعضاؤه المستعارة بسيل من الرصاص، أما حقي فكان نصيبه خمس رصاصات في فخذه وذراعه وشفته. وقتل أحد المرافقين، في حين أغمي على المرافق الآخر ثم أفاق فاقداً رشده.

في يوم (٢٣ حزيران) ظهرت على طريق القنيطرة عصابة خطيرة، تبين أن أحد أفرادها اسمه أدهم خنجر يطلب رأسه حياً أو ميتاً لقاء جائزة مالية كبيرة، انسحبت إلى الخلف دون أن تخلف أثراً، وكان من نتائج هذا الحادث، أن زحفت إلى القنيطرة حملة كبيرة بقيادة الكولونيل روكر، فدمرت بأمر المندوب السامي غورو قرى جباتا الخشب - المنشية - العوفاني - الطرنجة - الأحمر - تل الشيخة - وحجزت أموال وممتلكات أهالي هذه القرى، وحكمت على سكان كل قرية بغرامة من (٥٠ = ١٠٠) ليرة ذهبية.

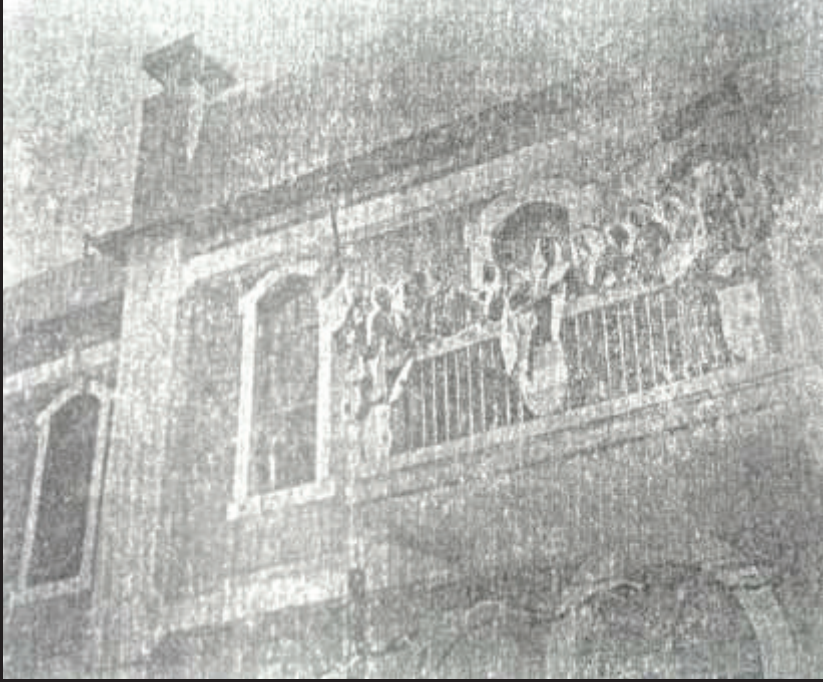
ودمرت الطائرات وأحرقت (١٧) مزرعة في مجدل شمس وجباتا الزيت، وفي (٣٠) حزيران عادت الحملة (المظفرة) إلى دمشق وباعت الممتلكات والمواشي بالمزاد العلني لتمتلى خزانة وزارة المالية الفرنسية. ولم يكتفوا بذلك بل قاموا بتجهيز حملات انتقامية لمقتل وزيرهم، وأمام ضغط الزحف العسكري الفرنسي تراجعت المقاومة منسحبة إلى الكسوة وغباغب والمسمية، وتابع الفرنسيون تقدمهم

إلى حوران تساندتهم الطائرات، تغير على القرى تدمر المنازل وتقتل الأطفال والنساء، ويحرق الجنود البيادر والبيوت، وفرض الفرنسيون آلاف الليرات الذهبية العثمانية تعويضاً عن مقتل الوزيرين العميلين، مما اضطر لجنة الاتحاد السوري في مصر أن ترسل رؤساء وحكومات الحلفاء ومجالسها النيابية ورئيس الولايات المتحدة ومجلس الشيوخ وكبريات الصحف في العالم الاحتجاج التالي:

(ذهل السوريون لقراءة البلاغات الرسمية بتدمير الجيش الفرنسي تدميراً منظماً لمقاطعة حوران الزراعية التي هي جزء من أجزاء سورية - فالطائرات تحرق القرى بأكملها قاتلة النساء والأطفال بلا رحمة - فنحن نستصرخ الأمم المتحدة وفيها الأمة الفرنسية ضد هذه الأعمال الوحشية التي يقصر عنها الوصف وتورث الأحقاد بإطالة زمن النضال) وتفرق المقاومون ودخلت قياداتهم شرقي الأردن، وآخرون منهم غادر إلى تركيا، وماتوا فيها ولم يرجعوا إلى حوران، وآخرون عادوا من شرق الأردن بعد وساطة والتزام الصمت.

مشروع الثأر لفیصل یقوده مصطفى الخلیلی ورفاقه:

في أواخر عام (١٩٢٠م) ظهر على حدود سورية الجنوبية الأمير عبد الله، الأخ الأكبر للملك فيصل على رأس قوة صغيرة من البدو يرفعون علم الثورة العربية، وتجمع حول الأمير الهاشمي رجالات العرب الذين تشتتوا بعد ميسلون، والتحقوا بالأمير عبد الله في معان (مصطفى الخليلي من درعا - ومعه صالح عايد أبا زيد، وخلف مقبل محاميد، ومحمد سعد غزاوي، وخلف عواد جوابرة و عبد الله عقيل سويدان، وعبد المعطي محمود ارشيدات، ومحمد عبد القادر ابا زيد، وعبد الله عبد الرحمن أبا زيد، ومحمد عواد أبو ضعيف).



المجاهد مصطفى الخليلي يطل من شرفة سرايا درعا أثناء الاستقبال الذي أقيم له

عام بعد الإفراج عنه عام ١٩٣٧

مكث هؤلاء المناضلون في معان منتظرين بدء العمليات ضد الفرنسيين. وما أن أطل عام (١٩٢١م) حتى عقد مؤتمر القاهرة برئاسة تشرشل وزير المستعمرات البريطانية وتقرر في المؤتمر تعيين عبد الله أميراً على شرق الأردن، فاقتنع بالمنصب ولكن المناضلين يقودهم مصطفى الخليلي، اتخذوا قرية المغير في الأردن قاعدة لهم، وأخذوا يناوشون الفرنسيين وينصبون الكمائن لدورياتهم ويهاجمون مخافرهم ويوقعون خسائر كبيرة بهم، وقامت السلطة الفرنسية في درعا ببثت عيونها لمراقبة الخليلي والإيقاع به، ونجح كمين فرنسي باعتقاله ونقله ومعه سلطان الطيار شيخ بدو ولد علي إلى دمشق، وأودعا في سجن القلعة، وصدر عليهما الحكم بالإعدام عام (١٩٢٦م) والثورة السورية مشتعلة، وقد رأى رجال الثورة في هذا

الظرف أن من الضروري إطلاق سراح الخليلي كي لا تكون حوران في معزل عن الثورة، لذا لجأوا إلى الملازم أول زكريا الداغستاني الذي تسلم إدارة السجن بالوكالة، وتم الاتفاق على ما يلي:

١- إقصاء الخفراء وموظفي إدارة سجن قلعة دمشق إلى خارج القلعة إبان الشروع بتنفيذ الخطة.

٢- وجوب إبقاء الخليلي ورفاقه في إحدى الدور القريبة من القلعة عقيب خروجهم، وتقرر تبعاً لرأي الضابط أن يكون المسجد الأموي هو المقر.

٣- أن يتم إطلاق سراح المعتقلين في فرصة الطعام حيث لا يكون أحد أمام باب القلعة ولا يتأتى ذلك إلا بين الساعة الثانية عشرة والواحدة ظهراً.

٤- وجوب بقاء الداغستاني في القلعة مدة خمس ساعات بعد إطلاق الخليلي كي لا يثير شكوك موظفي السجن، لأنه سيلحق بالمعتقلين ويتمكن من إيصالهم خارج دمشق، فتشدد الرقابة إذا علم الفرنسيون بفرار مدير السجن.

٥- وجوب مغادرة دمشق بعد الغروب وفي بدء الليل إذ أخذت السلطة على نفسها أن يتولى الفرنسيون تسلم النقاط العسكرية على أبواب دمشق بدلاً من رجال الدرك السوري الفرنسي، والجنود الفرنسيون يجهلون الخليلي ورفاقه.

ثم أُعد كل شيء، وبقي على الضابط الداغستاني التخلص من رقابة الضابط الفرنسي القائم على حراسة السجن إذ لا بد من استئذانه في إخراج الخليلي ورفاقه.

توجه الداغستاني بعد تفكير نحو الضابط الفرنسي (وكانت هذه البرهة أخرج موقف في حياته) وطلب إليه بالفرنسية أن يسمح له بواحد من جنوده كي يساعده على إخراج الخليلي، وأن يسهل له أمر خروجهم لدى الجنود الفرنسيين المولجين

بخفر الباب، وذلك أنه لا يسمح بإخراج أحد وإدخاله إلا بأمر من المدير ذاته، وكانت العادة المتبعة أن يلبي الضابط طلب المدير في الحال، لذلك تقدم الداغستاني من الضابط الفرنسي يطلعه على أنه أمر باطلاق سراح أربعة من المسجونين تقرر براءتهم وهم - مصطفى الخليلي، ضيف الله الصالح، فندي اليافي - من جبل العرب، وأبو يحيى الديراني من داريا - والأربعة محكوم عليهم بالأعدام، أظهر الضابط استعداداه لمرافقة الداغستاني بالذات ونهض فوراً وخرجا معا وجهتهما باب السجن وتقدم معه الداغستاني ينادي رئيس الخفر أن يحضر الخليلي ورفاقه ويقول للضابط الفرنسي أنه تقرر براءتهم، وأما ما قاله لرئيس الخفر السوري أن هؤلاء مهيئون للذهاب كي يمثلوا أمام ديوان الحرب الفرنسي (وهذا الموقف كان من أدق المواقف وأخطرها، سيما وأن الضابط قد جاء خصيصاً من أجلهم لاستلامهم، وأن مدير السجن العسكري الفرنسي يعرف الخليلي ورجاله معرفة شخصية لأنه استجوبهم جميعاً عندما أوقفوا لديه.

جيء بالمعتقلين، وعلامات الجزع ترسم على وجوههم، فقد ظنوا أنهم مساقون إلى ساحة الإعدام وما أن واجههم الداغستاني، حتى توجه إلى الضابط الفرنسي قائلاً: إن هؤلاء هم الذين تقرر براءتهم ثم اقترب من الخليلي يعلمه أنه سيكون حراً طليقاً وأطلعه على وجوب انتظاره بالجامع الأموي، وكان أثناء حديثه جدياً ليوهم الفرنسي أن يلقي عليه النصائح.

أخرجوا من القلعة من الباب الشرقي، بينما كان هناك شخص بانتظارهم ليقودهم إلى المسجد الأموي، وقد خيم على السجناء صمت مخيف ظناً منهم أن رفاقهم قد سيقوا إلى الإعدام، وبعد فترة اجتمع الداغستاني بالخبراء وأبلغهم أن

السلطة الفرنسية تسلمت الخليلي ورفاقه طالباً إليهم أن لا ييؤحوا لأحد بهذا السر مخافة ان ينالهم الثوار في القلعة، وعاد يعمل في غرفته إلى أن غادر القلعة بهدوء إلى الجامع الأموي فالتقى المناضلين هناك، والتفوا حوله وطلعهم أنه عائد إلى القلعة وعليهم أن ينتظروا قدومه ليلاً، وإذا تأخر عن مواعده فليتدبروا أمرهم بأنفسهم، وعاد وقد هياً وصللاً بالفرنسية يشعر بتسليمه الأربعة، ونادى على الكاتب يطلعه أنه حصل على إيصال من الضابط الفرنسي بتسلم السجناء الأربعة ليحفظه في ملف الأوراق لليوم الثاني، وكان الكاتب يجهل ما في الوصل لعدم إلمامه بالفرنسية، وغادر الداغستاني القلعة ليستأجر مركبة تقله مع الخليلي ورفاقه إلى معسكر الثوار في برزة بمثل هذه التضحية والجسارة والمغامرة والوعي من قبل الداغستاني أنقذ الخليلي ورفاقه من الموت، ورجع الخليلي إلى الأردن يتابع النضال من هناك ويقارع المستعمر من جديد:

في تشرين الاول عام (١٩٢٦م) اشترك مصطفى الخليلي ورجاله ومعهم مقاتلون من شرق الأردن يقودهم حسين مدفعي ومحمد الأشمر وأبطاله، وقاسم العنجراري ورفاقه يونس الخنشور وأخوه أحمد، وأبو عمر خيتي ومجاهدوه، وخالد نجيب وجماعته، والبطل زكريا الداغستاني - سجان الأمس - وكل من الضباط صبحي العمري وصادق الداغستاني.

قام هؤلاء الأبطال بتدمير جسر عرار في قرية عتمان واعتقال درك مخفر عرار ثم مروا بقرية داعل في الهزيع الأخير من الليل، وتعرضوا لرصاص الحراس فيها، وانقض الثوار على الحراس الذين ولوا الأدبار، بينما بقي الثوار في القرية حتى الفجر ثم داهموا القرية ودخلوها عنوة، وما أن أشرقت الشمس حتى حلقت طائرة فرنسية في

سواء القرية، وأنذرت السكان بالرحيل وذهبت، ثم حلق سرب من الطائرات من جديد، وأخذ يقصف القرية ويدمرها، ثم زحف فوج من المصفحات والدبابات من الشمال والشرق على القرية، وجرت معركة حامية الوطيس مع الثوار، استمرت حتى غروب الشمس فاستشهد حسين المدفعي وجرح قاسم العنجرابي مع اثنين مع رفاقه وبعد الغروب تجمع الثوار وقرروا فيما بينهم مداومة الجند ليلاً من الجهة الشرقية للقرية ليؤمنوا من حصار الجند لهم ليلاً، وقاموا بتنفيذ الخطة وداهموا الجيش الذي لم ينعم بالراحة بعد، فتفرق الجند أمامهم، في حين تمكن الثوار من شق طريقهم إلى اللجاة، حيث نجوا من مطاردة الفرنسيين وملاحقتهم.

حوران وأحداث (١٩٣٦م) والعدوان الفرنسي في أيار (١٩٤٥م):

قادت الكتلة الوطنية حركة المعارضة، وعمل المناضلان محمد العائدي ومحمد رجا المسالمة وساندهما مفلح المحيسن المحاميد على تأسيس المكتب في مدينة درعا سرّاً. وتمكنوا من جمع المتطوعين وألبسوهم الزي العسكرية وعلى رؤوسهم الفيصلية، ثم رفعوا العلم السوري على مقر المكتب، وتعرض قادة المكتب للاعتقال المؤقت المتقطع، وقد لعب المناضل محمد العائدي دوراً بارعاً في تمويل الكتلة الوطنية في حوران، وكان سبيله إلى ذلك إنشاء جمعية خيرية لجبي المال، وبحجتها تخلص من رقابة السلطة، وأخذ يطوف على القرى فتمكن من جمع ما يعادل مائة ألف ليرة سورية سلمها إلى مالية الكتلة في دمشق مقابل إيصالات من المسؤول المالي آنذاك نبيه العظم.

وكانت الأموال تنفق على مشردي الثورة الفلسطينية وعلى الملاحقين والمعتقلين وأيتام الثوار والمناضلي، وقد أسهمت حوران في دعم الثورة الفلسطينية،

فقد اتصل محمد العائدي بالحاج أمين الحسيني واتفق معه على المشاركة بالثورة ومدها بالرجال والعتاد، وتقرر أن يكون محمد رجا المسالمة مسؤولاً عن أعداد المتطوعين ويكون العائدي همزة وصل مع الثورة، ثم شارك بمعارك قرب نابلس وتابع حتى نهايتها، وبعد أن اندلعت الحرب العالمية الثانية، اتخذت التدابير العسكرية وأصبحت البلاد في حالة حرب، وفرضت الرقابة على البريد والمطبوعات وفتحت أبواب المعتقلات.

وفي درعا داهمت الشرطة الفرنسية بيت محمد العائدي وفتشته تفتيشاً دقيقاً، وصادرت مراسلاته مع الكتلة الوطنية ونقلته إلى سجن مؤقت، ومعه راشد محمد أبا زيد، ومحمد عبد الرزاق الشرع، ومحمد رجا المسالمة، ثم نقلوا إلى سجن في بلدة إزرع، وهو عبارة عن سجن تحت الأرض ينزل إليه بأربعة عشر درجة، والتقوا هناك برجال الكتلة الوطنية من مختلف المحافظات، ثم نقلوا إلى سجن المزة العسكري، وقد تعرض المعتقلون السياسيون لشتى أنواع العذاب والتعذيب من قلع الأسنان والأظافر، إلى الجلد والكهربة والإقامة في الزنزانات، ثم قدموا إلى المحاكمة، فكان نصيب الحوارنة الأربعة الإعدام، ولكنه خفف إلى النفي المؤبد، وفي عام (١٩٤١م) هاجمت الجيوش البريطانية والفرنسية الحرة (الديغولية) سورية وتم احتلالها وإخراج أتباع حكومة (فيشي)، ومثل فرنسا في سورية الجنرال كاترو، وجاء بوزارة خالد العظم وأصدر عفواً شاملاً عن المعتقلين واطلق سراحهم بعد أن أمضوا ستة أشهر في جحيم السجون، وعاد السجناء الأربعة إلى درعا لتستقبلهم الجماهير وتحتفي بهم، وفي أيار (١٩٤٥م). بدأ الصدام المسلح مع الفرنسيين وكان هجومهم على البرلمان، وانتشرت شرارة الثورة إلى جميع المحافظات.

في درعا بدأت إضرابات الطلاب وتحركت الجماهير نحو الثكنة العسكرية - غرب مدينة درعا- وبدأت المعركة. واستمر حصار الثكنة ثلاثة أيام متتالية، ولجأت الطائرات الفرنسية لنقل المدد والمؤن إلى المحاصرين جواً، وفي النهاية اضطر المستشار قائد الحامية العسكرية إلى الانسحاب مع قواته باتجاه دمشق ليلاً، مشعلاً النار بالذخيرة لإيهام الأهالي ببقاء قواته في الثكنة، وقد اصطحبوا معهم رهينة، ثم أطلق سراحه أثناء المسير، وافتضح أمر القوات الهاربة، فأوقف الثوار المستشار كورو وأخذ رهينة لدى الشيخ محمد خير بك الحريري في قرية الشيخ مسكين، وفي السهل الممتد شرق قرية الفقيع ومحجة والكتيبة اصطدم الفرنسيون بمقاومة الفلاحين وقتل (ديت) مدير الأمن العام الفرنسي والعديد من الضباط والجنود، وفي درعا هب الشعب صباحاً لرفع العلم السوري على الثكنة والمشاركة في أحداث الجلاء الرائعة، وقد سقط ثلاثة شهداء أثناء حصار الثكنة، إثنان منهم من بصرى هما: غالب الصباح، ودهش النايف، وإبراهيم البرقاوي من مدينة درعا، عدا الكثيرين الذين جرحوا برصاص المستعمر الفرنسي.

أبطال حوران في السهل والجبل

١- سلطان باشا الأطرش:

بطل من أبطال سورية العربية، ولد عام (١٨٨٧م) وهو من أبناء قرية القرية الأشاوس في جبل حوران - تسلم قيادة الثورة السورية في كل أنحاء البلاد والتف الوطنيون حوله يسندونه ويشدون في أزره، وصدر أول منشور يحمل لقب القائد العام للثورة السورية الكبرى بتاريخ (٢٣ آب ١٩٢٥م) بقيادة سلطان باشا الأطرش، القائد العام للثورة السورية الكبرى.

أخذت الثورة السورية تشتد وتتسع ويمتد لهيبتها إلى كل الأطراف، فكانت المعارك الهائلة والتي عرفت بمعارك المسيفرة والسويداء وعري ورساس وبسر الحرير والدلي، وأظهر الثوار بطولات خارقة ينبو القلم عن تصويرها، وراحوا يكبدون العدو الخسائر البليغة في العتاد والأرواح، رغم توالي النجذات وضخامتها وتنوع صنوفها وعدم التكافؤ بينها وبين قوات الثورة البسيطة بأسلحتها الفردية المختلفة الأنواع، المشتراة بثمان البقرة والبعير وقطعة الأرض، وأحياناً كثيرة تكون مشتراة بالدم الغالي، بالحياة نفسها، وتعدت الثورة ربوع السهل والجبل، وانتشر لهيبتها، وكانت دمشق وغوطتها مسرحاً من مسارحها الفسيحة.

وفي (٢١ أيلول ١٩٢٥م) أذاع القائد العام للثورة السورية، سلطان باشا الأطرش ردّاً على منشور ألقته الطائرات الفرنسية على مناطق الثورة جاء فيه:

«تناولنا اليوم دعوتكم الكريمة إلى السلم مع القنابل المتفجرة المنصبة علينا من الطائرات، فلم يزدنا هذا التناقض الغريب إلا معرفة بنياتكم الصادقة، إن ما جاء في منشوركم من التهديد المشرب بروح العطف يلفت الأنظار إلى أن جيوشكم التي اقتحمتم بها سورية العربية، هي كطائراتكم من عاداتها عند سنوح الفرصة أن تنفذ بصمت خطط الفتح من غير أن تلتفت إلى عويل الأطفال وصراخ الأمهات، انكم تقولون أن الأشخاص من ذوي البصيرة الذين يتركون السلاح، يكونون في مأمن على حياتهم، ألا تعرفون أن بين البصيرة وترك السلاح تناقض ما كنا ندركه لو لم يكن له سابقة في عهد الحكومة الوطنية السورية، لما آمنت بعود أسلافكم فحلت جيشها في (تموز ١٩٢٠م) وحكم على زعمائها بالموت في آب، أي بعد شهر واحد، إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، وقبل الوقوع في مثل هذا الفخ، عليكم أن تبيضوا الصفحات السود، وتعيدوا إلى الشرق حسن السمعة التي كنتم تتمتعون بها قبل أن تطأ أقدامكم هذا الوطن المقدس، إنكم تدعوننا إلى القاء السلاح، وأن نتقلد بدلاً منه المحرّاث، إننا ما حملنا السلاح إلا دفاعاً عن هذا المحرّاث الذي هو فخرنا وحياتنا، إننا نريد أن نحمل المحرّاث لنحصد منه الخير لنا ولأولادنا، ولكن إذا كانت ثمرة أتعابنا ستذهب إلى بطون رجال أمثال كارييه - الذي غرمنّا عشرات الليرات الذهبية ثمناً لقطته المدلّله، وصفعوا أحيارنا وأشرافنا لاستنزاف أموالهم، إذا كان ذلك فإن السلاح يكون خير ضمان لهذا المحرّاث» التوقيع سلطان الأطرش القائد العام للثورة السورية.

من أهم المعارك بقيادة سلطان باشا الأطرش القائد العام للثورة السورية الكبرى:^(١)

١- معركة الكفر بتاريخ (٢٠ تموز ١٩٢٥)م، التي انتهت بفوز الثوار العرب ولم يرجع من الضباط الفرنسيين السبعمئة وسبعة وستين جندياً فرنسياً سوى جنديين برتبة عريف، و(٤٧) بينهم ثلاثون جريحاً، من بينهم معاون ضابط خيال، جندي جريح من الرماة.

٢- معركة المزرعة: المعركة التي باءت بفشل الفرنسيين، وتقسم هذه المعركة إلى ثلاث مراحل - حسب المصادر الفرنسية - أسموها كما يلي:

- معركة بسر الحرير (٣٠ - ٣١ تموز ١٩٢٥ م).

- عراك المصفحات (٢ - ٣ آب ١٩٢٥ م).

- موت السرجان كازانوف.

٣ - معركة المسيفرة (١٤ - ١٥ - ١٦ أيلول ١٩٢٥) م. ومن أراد تأريخ المعارك السورية، وأن يجمل صفحاته بالأعجاد والأعمال البطولية على مر التاريخ، فيمكنه دون تحفظ أن يضع معارك الكفر والمزرعة والمسيفرة وبسر الحرير إكليل غار على رأس هذه المعارك.

٤ - معركة السويداء:^(٢)

كما ذكرها أدهم الجندي حرفياً في كتابه الثورة السورية فقال:

(١) فارس زرزور: معارك الحرية، ص ٢١٢ - ٢١٣.

مقتطف من نص المنشور الذي اذاعه القائد العام للثورة السورية الكبرى ٢١ أيلول ١٩٢٥.

(٢) ادهم الجندي - كتاب الثورة السورية، ص ٢١٩.

في صباح (٢٥ نيسان سنة ١٩٢٦) م، زحف جيش (أندريا) إلى السويداء، وتحلف عنه كوكبتان صباحيتان في تل الحديد لحماية المؤخرات، ومشت الطليعة بقيادة الكولونيل (كوكناس) مشتملة على اللواء الأول من فيلق الرماة الأفريقيين في الميمنة، واللواء الخامس من الفيلق الأجني الرابع في الميسرة وتقدمتها الكوكبة الأجنبية، ومفرزة من السيارات الرشاشة للاستكشاف تدعمها سرية دبابات، وتألف حرس الميمنة من اللواء الأول لفيلق الرماة التونسيين، ومن مفرزة صباحية، وتألف حرس الميسرة من اللواء الثاني ومن مفرزة صباحية، وتألف حرس المؤخرة من اللواء الثالث الإفريقي، ومن مفرزتين صباحيتين، ومفرزة سيارات رشاشة، وبقي اللواء الثالث التونسي على ميسرة قافلة الذخيرة احتياطاً، وكانت المدفعية عبارة عن بطارية وزعت بين الطليعة والمؤخرة، وبطارية أخرى في تصرف القائد.

قطع الجيش ثلاثة أميال دونما قتال، وفي الصباح عندما أصبحت الطليعة على مسافة ١٥٠٠ متر من الأرض الصخرية التي ترقى إلى السويداء، انصبت عليها نيران المجاهدين العنيفة، بينما كانت قطعتان من المدفعية منصوبتان على جنبات القلعة تفتحان فوهات النار على قافلة الجيش الفرنسي، وكان بني معروف قد غنموا هذه المدافع في المعارك السابقة، وقد تعرضت القوات الفرنسية لخسائر فادحة، ثم ساعدت المدفعية الفرنسية في تخفيف وطأة الدروز وإزاحتهم من المتاريس التي تستروا وراءها، بعد أن قاوموا مقاومة عنيفة وبنوع أخص من الميمنة، وحدث في ضحى النهار أن استطاع المجاهدون بهجماتهم الضاربة فتح ثغرة بين ميمنة الطليعة الفرنسية، ومقدمة حرس هذه الميمنة، فأسرع المجاهدون وانسلوا إلى هذه الثغرة بشجاعة وإقدام، فانهزمت كتيبة الميمنة واستدبرت، فسقط قائدها الكابيتان

(هاردي) صريع رصاصتين أصابتا رأسه وصدره، وقد ماجت صفوف الفرنسيين واضطربت لهذا الهجوم العنيف، فتداركت الكتيبة الاحتياطية والمدفعية هزيمة الميمنة، وقامت بهجوم مقابل على الدروز مع مفرزة الصباحيين فاصيب الليوتنان (دي فازية) قائد المفرزة الصباحية بجرح مميت، وتوقف الجيش عن حركاته، وأقبلت مفرزة صباحية بقيادة الملازم (بارتلمي) تنبئ الجنرال اندريا بأن التجربة السريعة مشتبكة مع الدروز اشتباكا شديداً خطراً عند مخرج عرى مما سيعيقها زمناً عن الوصول، وكان لابد للجيش من إعادة تنظيمه وإعداد العدة للهجوم بعد تفكك أوصاله أمام هجمات الدروز القوية.

ثم بدأ الهجوم في الساعة الحادية عشرة، عندما ظهرت طلائع التجربة السريعة في الجنوب الشرقي من السويداء، فالتحم اللواء الخامس الأجنبي بقتال شاق على طول جبهته، فطغى على القرية من الشمال، ثم انحرف إلى تخومها، وأتاها اللواء الأول التونسي فاكتسحها برؤوس الحراب، ثم استقر في مشارف القلعة الغربية، وقد اجتاح اللواء الثاني التونسي القلعة، وانسحب الدروز نحو الشرق والشمال الشرقي، تتفاه المدفعية والطائرات.

وفي ليل (٢٤-٢٥) توافت القوات الدرزية الكثيفة، التي كانت محتشدة في صلخد إلى عرى ومجير، وهاجمت الجيش (بيشو ديكاو) عند انطلاقها من عرى بأقصى مايكون من الشدة والعنف، وكان الجيش منظمًا على النمط الآتي: في المؤخرة قوة ضخمة بقيادة الكولونيل (مارتان) مؤلفة من لواء الرماة التونسي الثاني، ومن كتيبتين من الجند السنغالي، وفي حرس الميمنة اللواء الثاني الإفريقي، وفي حرس الميسرة اللواء الثالث التونسي للرماة، وفي الطليعة اللواء الأول الإفريقي للرماة،

وأفرزت كتيبتان من فيلق السنغاليين احتياطاً، وتعززت المؤخرة ببطارية وخصصت بطارية أخرى بالقيادة.

وقد قام المجاهدون بمهاجمة مؤخرة الجيش بشدة عند تخوم عرى كما ذكرنا، واستطاعت بمشقة التخلص من الهلاك تحت حماية الرشاشات وفي الساعة السابعة طلع المجاهدون من الشرق يلوحون بالرايات، وهاجموا ميمنة اللواء الثاني عن كشب، وحصروا جهودهم عند نقطة اتصال المؤخرة بحرس الميمنة، وتمكنوا من خرق الصفوف في هذه الجبهة، وتسربوا إلى نقاط الجيش فهددوا قافلة الذخيرة، وكان الضباب الكثيف يعيق حركات القتال، فتخرج موقف الجيش فترة من الزمن، واستمات الجيش الفرنسي في الدفاع ليقينه بالهلاك بين أيدي المجاهدين الأسود، فنجى من خطر الإبادة.

ثم طوق المجاهدين اللواء الثاني للرماة التونسيين، فصمد جنوده أمام هجماتهم، ولما تحقق الكابيتان (مورو) قائد الطليعة أن المجال أمامه خال من الدروز، تراجع إلى الورا، ونظم جنوده مجانية بين المؤخرة وحرس المجنبية، وشدد الدروز عليها الهجوم، واستنفر الكابيتان (ميشان) التابع لأركان الحرب قوة الاحتياط، وانطلق على رأسها بالحراب، فدفع الدروز الذين كانوا على جنبات قافلة الذخيرة، ووجه القائد قواته الاحتياطية في هجوم مقابل على نقطة اتصال الجناح بالمؤخرة، وهجم الكابيتان (ليلون) بكتيبي السنغاليين، فأغارتا بالحراب على تلك النقطة المهددة وأنقذتاها، ثم هجمت الكتيبة العاشرة التونسية من حرس الميسرة بالسلاح الأبيض، على نقطة اتصال الطليعة بالجناح التي زحمها المجاهدون عن كشب، فجاء هذا الهجوم الأخير ضربة حماسة، وانسحب المجاهدون نحو الجنوب الشرقي تتفاهم المدفعية والرشاشات.

وقد دبت الفوضى في الجيش الفرنسي، فاختلطت عناصره وتشابكت، فتوقف لتنظيم صفوفه، ورفع القتلى والجرحى قبل مسيره.

ثم واصل الجيش زحفه واتصل بالتجريدة الكبرى، ولقي خلال مسيره مقاومات خفيفة، وفي المساء تم احتلال قلعة السويداء وجنبتها الشرقية.

وخسر الجيشان في يومي (٢٤ - ٢٥ نيسان سنة ١٩٢٦ م) (٨٠) قتيلاً منهم ستة ضباط (٢٨٠) جريحاً فيهم (١٢) ضابطاً، والحقيقة أن الخسائر كانت أضعاف ذلك، وكانت قوات المجاهدين المهاجمة زهاء ستة آلاف مقاتل خسرت (٥٠٠) شهيد كما أشار إلى ذلك بلاغ القوات الفرنسية في حينه.

٢- المجاهد مصطفى الخليلي:

تابع المجاهد مصطفى الخليلي نضاله متنقلاً بين درعا والمغير في الأردن مناوشا الفرنسيين، ومهاجماً مخافرهم مع رفاقه حتى عام (١٩٣٦ م) في حين مال الفرنسيون لتغيير علاقاتهم مع السوريين وأخذوا يمهّدون لعقد المعاهدة، فصدر العفو عن الخليلي، ولكنه بقي في شرق الأردن حتى وفاته بعد بلوغ الخامسة والسبعين رحمه الله تعالى.

وفي نفس العام (١٩٢٦ م) عقد في درعا مؤتمر (أنكلو- فرنسي) الذي اتخذ تدابير معادية للاجئين السياسيين في الأردن، وكان أحد بنوده ينص على تحديد إقامة إسماعيل باشا الحريري في قرية السلط، وكان قد اضطر أمام ضغط الفرنسيين لمغادرة سورية إلى شرق الأردن.

٣- سعد الدين المقداد:

من بصرى ممثّل حوران في مجلس المبعوثان. كان مناضلاً مريراً لنيل الحقوق العربية تحت قبة البرلمان، وأطلق صوت العروبة الداوي ليطالب بمطالب العرب المحقة، بالإضافة إلى عبد الحميد الزهراوي وشكري العسلي، وقد ألقى سعد المقداد الكثير من الخطب مدافعاً عن القضية العربية وراداً على حملات الصحف التركية المعادية للعرب.

بعد الحرب العالمية الأولى، كانت السلطة العثمانية قد تحولت نهائياً إلى الاتحاديين الذين تنكروا للقضية العربية وخانوها بعد مؤتمر باريس (١٩١٣م)، وفرضوا على سعد الدين المقداد الإقامة الجبرية، ولكنه تمكن من مغادرة استانبول والهرب براً عائداً مع سرته إلى سورية.

وإنتهت الحرب العالمية الأولى، وأصبح سعد الدين المقداد عضواً في المؤتمر السوري، وبعد معركة ميسلون كان سعد الدين المقداد من قادة المقاومة في الكسوة بوجه الفرنسيين توفي رحمه الله عام (١٩٢٥) م.



المجاهد الشيخ ياسين بن محمد بن إبراهيم الحشيش شارك في معظم المعارك التي دارت على ربي حوران ضد المحتل الفرنسي الغاصب رحمته الله تعالى وطيب ثراه وجعل الفردوس الأعلى مأواه

آثار حوران ومبانيها:

هناك آثارًا قديمة، تعادل خرائب تدمر، وبالقرب من مدينة عجلون إلى جهة الغرب، قلعة الربض، وتسمى الياعوتة أيضا، أما الأبنية في حوران، فهي خالية من الإتقان، ومعظمها مبني من اللبن، ويوجد في بعض من جبالها معادن الحديد والفحم الحجري، وقيل أن فيها بترول، إلا أنه لم يستخرج شيء من هذه المعادن، كما هي الحال في بقية معادن مناطق سورية، وأهم هذه المعادن في جبال عجلون، وسنذكر آثار الأنباط والغساسنة العثمانيين والفرنسيين.

آثار الأنباط:

هم فئة من العرب المنتصرة كما تحدثنا عنهم، كانوا يقطنون الحجر، المعروف بوادي موسى، وأهم آثارهم فيها: صهاريج لخن المياه، ومغاور شبيهة بالبيوت، وأقنية الماء، ومنها آثار تدمر، ولا تزال إلى الآن تشهد بسابقة مجد هؤلاء العظماء، وقد حارب الأنباط الفرس والرومان، على عهد ملكتهم الحكيمة (زنوبيا) والأثاريون لا ينقطعون عن زيارة تلك الأماكن، وقد اكتشفت فيها حديثا نواقيس كثيرة متعددة الأحجام.

آثار الغساسنة:

من أهم آثار الغساسنة هي قلعة بصرى الشام ومدرجها الشهير الذي لا زال محافظا على رونقه وجماله، وخاصة بعد أن قامت مديرية الآثار والمتاحف بترميمه وإعادة تأهيله، فأصبحت تقام فيه الحفلات والمهرجانات السنوية ويؤمه المئات من الزوار فيرتبط الماضي بالحاضر ويستعيد المكان تألقه، ويزهو بما حققه الآباء والأجداد من أوابد شائحات على مدى الدهر، ويعتبر مدرج بصرى من أروع الآثار

الباقية من عهد الغساسنة، كما أن هندسته مازالت موضع دراسة واهتمام كبار المختصين والمهتمين بشؤون الحضارات القديمة، وهناك أيضا آثار كثيرة لا زالت شاهدة على الحضارة العربية الغسانية منها كاتدرائية بصرى الشام، ودير الراهب بحيرة، والبركة الشرقية والسوق الأرضية، وهناك قصور وكنائس ومباني كثيرة منتشرة في قرى حوران وفي الجبل والبلقاء.

آثار العثمانيين في حوران:

أهمها الثكنات العسكرية، ودور الحكومة الباقية إلى الآن في حوران.

آثار الفرنسيين:

إن أهم ما تركه المحتلين الفرنسيين من الآثار في حوران، هو ما هدمته من القرى، وما دمرته من المساجد، واستعملها ثكنات عسكرية، وسرقها لعدد كبير من الآثار السورية.

المدن القديمة في حوران:

ثمة أطلال باقية في حوران كانت في التاريخ القديم مدناً عرفت أرقى الحضارات، وليست درعا المدينة القديمة الوحيدة في حوران، بل هناك غيرها من المدن القديمة التي توازيها أهمية مثل عشتروت وقرية طيبة وبصرى.

١- درعا: أول من ذكرها الفرعون تحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) وامينوفس الثالث (١٤٠٣ - ١٣٤٦ ق.م) وقد كتب اسمها بالهيريوغليفية (أتارغا)، أما في كتاب العهد القديم فكتبت (ادريعي)، ولا نجد لها ذكراً في النصوص البابلية والآشورية.

أما الجغرافيون العرب فكتبوها (أذرعات) ومن الناس من يلفظ اسمها (ذرعات أو ذرعا) وأصل الاسم كنعاني، ومن العسير القيام بتنقيبات أثرية واسعة في درعا، لأن أطلال المدينة القديمة مطمورة تحت بيوت البلدة الحديثة، ومع ذلك، فهناك شواهد أثرية تدل على أن المدينة كانت عامرة في الألف الثالث قبل الميلاد، حيث تعرضت مرتين للغزو من قبل الجيوش المصرية في عهد الفرعون تحوتمس الثالث والفرعون آمينوفس الثالث، وقد ارتبط تاريخ درعا بتاريخ مملكة باشان وعاصمتها عشتروت في النصف الثاني أي الألف الثاني قبل الميلاد.

تعد مدينة درعا من أقدم المدن المعروفة في سورية، وقد ذُكرت في رسائل تل العمارنة، ويعود تاريخها المعروف إلى عصر البرونز (٢١٠٠ ق.م)، ومن المؤكد أنها كانت عاصمة الملك عوج الشهير بطول قامته، كما أنها كانت من المدن التي عاصرت جميع الحضارات التي مرت على المنطقة، وقد تعرضت للكثير من عوامل الهدم والتخريب لمعظم مبانيها القديمة، وأشهر ما بقي من هذه المباني الكهوف والمساكن الباقية في الحي الجنوبي الغربي من المدينة، وبقايا الحمامات التي يعود تاريخها للعصر الروماني.

وقد أسفرت أعمال التنقيب التي قامت بها المديرية العامة للمتاحف والآثار في المدينة القديمة عن اكتشاف قسم من مدرج واسع ظهر منه تسع درجات بحالة جيدة في الجانب الغربي من المدرج، ويتمتع مسجد درعا القديم بأهمية في تاريخ بناء المساجد في العصر الراشدي والأموي والأيوبي، وكانت مدينة درعا من أسواق العرب الشهيرة، وقد زارها الخليفة عمر بن الخطاب عند حضوره مؤتمر الجابية وخلال الحروب الصليبية احتلها الصليبيون لفترة قصيرة وعند انسحابهم أتلّفوا مواشيهم وأحرقوا أحرّاشها وقضوا على الكثير من معالمها، لما لاقوه من دفاع

مستमित أدى إلى طردهم، ودرعا من المدن التي كانت تضرب العملة باسمها وتصلك فيها النقود، وكانت مركز أسقفية، واشتهرت بصناعتها وتصدير الزيت والخمور.

٢- عشتوت: أصبحت أطلال هذه المدينة الشهيرة في التاريخ على شكل تل كبير يقع إلى الجنوب من مدينة نوى على بعد سبعة كيلومترات واختفت هذه المدينة من الوجود، ولا تزال أطلالها تحمل اسم (تل عشترة).

ذكرت هذه المدينة مرارًا في الوثائق المصرية على النحو التالي:

عشتارتوم، وفي اللغات المسمارية أشرتقي، وفي اللغة العبرية عشتاروت، والاسم في الأصل كنعاني نسبة إلى ما يسمى الربة عشر، وقد ورد أول ذكر لهذه المدينة في (نصوص الاحتقار) المصرية التي تعود إلى عصر السلالة الثالثة عشر (القرن الثامن عشر قبل الميلاد، ولا يوجد في النصوص المصرية ما يدل على أن هذه المدينة قد استسلمت أو دمرت أو دفعت الجزية، كما لم يذكر شئ عن طبيعة العلاقات التي نشأت بعد الغزو الذي تعرضت له.

وتظهر إمارة عشتروت في الحقبة المعروفة باسم عصر (العمارنة) النصف الأول من القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

بالنسبة إلى التاريخ المصري إمارة قوية لها صلات ذات وجوه متعددة مع جيرانها من إمارات بلاد الشام، وكانت علاقتها حسنة مع جارتها الشمالية إمارة أوفة وعاصمتها دمشق حسنة. ويستدل من رسالة موجهة من أيوب إلى فرعون مصر، أن هذه الإمارة قد اعترفت بسلطة الفرعون العليا عليها.

٣ - قرية طيبة: تقع على وادي الزيدي بين درعا وبصرى تقريباً، وقد وجدت فيها بعض الأدوات الحجرية التي تشهد على حضارة العصر الحجري الحديث والتل الذي يتوسط قرية طيبة هو أطلال مدينة كنعانية، يصعب الكشف عن معالمها، لقيام بعض البيوت عليه، ومن الآثار التي تشهد على الحضارة الكنعانية، واكتشف صدفة في ضواحي القرية، قبر وجد فيه مزودة المدفون التي كانت تتألف في معظمها من الأواني الفخارية المتعددة الأشكال والأنواع، وأهمها الأباريق الصغيرة السوداء والسطح الخارجي اللامع والتي كانت تستعمل لحفظ العطور، وتعود مثل هذه الآنية إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد.

وهذا الاكتشاف يوحي أن هذه المدينة كانت مزدهرة في الدور البرونزي الوسيط، ومن خلال احتفاظ القرية باسمها في المصادر المصرية التي تعود إلى عصر الفرعون تحوتمس الثالث، نتعرف عن مدينة اسمها (ط. ب) أو (د. ب) ويجب أن تكون في حوران، لأن رسائل تل العمارنة يستفاد منها أن هناك مدينة شهيرة اسمها دوبو تقع في حوران أيضاً، ويوجد تل أثري اسمه دبه جنوب غرب مدينة شهابا. وكذلك تدل رسائل العمارنة على وجود مدينة في حوران باسم ط. ب ومدينة أخرى باسم دوبو.

٤ - مدينة بصرى الشام: غنية عن التعريف، وأقدم ذكر لبصرى نجده في نصوص احتقار المصرية، حيث سجل اسمها في عداد الإمارات الأجنبية المعادية، وكان أميرها آنذاك يدعى أمور، والذي حكمها عند مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، إذ لا بد أن تكون بصرى قد تأسست قبل هذا التاريخ، ويتفق العلماء على أن معنى بصرى هو (المدينة المنيعَة).

وقد ذكرت هذه المدينة المنيعة مرة أخرى في عداد المدن المنقوشة اسمائها على قاعدة تمثال لفرعون أمينوفس الثالث (١٤٠٣-١٣٤٦) ق.م، وكانت لاتزال في ذلك العهد إمارة صغيرة كغيرها من إمارات بلاد الشام الجنوبية.

وقد لعبت بصرى دورًا بارزًا في عصر تل العمارنة (القرن الرابع عشر قبل الميلاد) ولم تقف مكتوفة الأيدي حيال الأحداث التي كانت جارية، فعندما استولى أمير يانعمو (جنوب بحيرة طبريا) بيريدشوا على بعض أملاك ملك دمشق بير ياوزة الواقعة بالقرب من بحيرة طبريا، وقفت بصرى إلى جانب الأمير نعمو، وأرسل أميرها رسالة إلى مصر يبرر فيها موقفه هذا.

بعد قيام مملكة دمشق الآرامية وسيطرتها على الأجزاء الجنوبية من سورية أصبح دور بصرى ثانويًا، ولكن سرعان ما ستعادت مكانتها في عهد الأنباط والعهود التي تلتها.

وهي عاصمة الغساسنة ومدينة الآثار الشهيرة، فقد عرفها ياقوت الحموي بأنها قصبة كورة حوران، وذكر أنها مشهورة عند العرب قديمًا وحديثًا، وأضاف بأن ذكرها قد ورد كثيرًا في الشعر كقول إعرابي:

أيأ رفقة من آل بصرى رسالتنا لقيت من رفقة رشدا
إذا ما وصلتكم سالمين فبلغوا تحية من قد ظن أن لا يرى نجدا

وقول الصمة القشيري:

نظرت وطرف العين يتبع الهوى نظرة المتطاول
لا بصر نارا أوقد هجمة لريا بذات الرمث من بطن حائل

وقول ابن ميادة:

ألا لاتلطي السترياً أم جحدر كفى بذرى الأعلام من دوننا سترا
إذا هبطت بصرى تقطع وصلها وأغلق بوابان من دونها قصرا
فلا وصل إلا أن تقارب بيننا قلائص يحسرن المطي بن حسرا
فياليت شعري هل يجلن أهلها وأهلي روضات ببطن اللوى خضرا
وهل تأتيني الريح تدرج موهناً بريكاً تعروري بها عقدا عفرا

٥- مدينة إزرع: الأبنية القديمة في مدينة إزرع دلالة على أهمية المدينة وتوسعها في العصور القديمة. ومن المؤكد أنها تضم مجموعة من المباني المدنية والدينية تحت المستوى الحالي للمدينة، وأسقفية إزرع مشهورة في تاريخ الكنيسة، أما كنيسة القائمة المعروفة بكنيسة القديس جيورجس (كنيسة الخضر) والتي يعود تاريخها إلى (٥١٤م) فقد شيدت فوق معبد وثني بعد عامين من بناء كتدرائية بصرى، وتحتل مكاناً هاماً في تاريخ العمارة الدينية، لكونها البناء الوحيد القائم والذي تتمثل فيه كيفية انتقال بناء الكنائس من الطراز الملكي (المستطيل) إلى الشكل المربع الذي تعلوه قبة من الحجر تقوم على قاعدة مثمثة. ومساكن مدينة إزرع المدنية غنية بالزخارف والكتابات القديمة، وتعد في الدرجة الثانية بعد مدينة بصرى من حيث الأهمية الأثرية.

٦- مدينة المسمية: قامت هذه المدينة عند مدخل اللجاة كمركز عسكري هام تحتشد فيه قوى حراسة اللجاة الوعرة، وكان بناء قيادة هذه الحامية من أهم المباني العسكرية المعروفة في سورية، غير أن العثمانيين قامو بهدمه في أواخر القرن التاسع عشر، واستعملوا حجارته في بناء المخفر الذي أحدثوه.

٧ - بلدة سحر: تبعد بلدة سحر مسافة لاتقل عن (١٥ كم) شرق جنوب المسمية وتضم مسرحًا صغيرًا للموسيقى ومعبدًا وثنيًا حُفِر في الصخر، والبلدة قائمة بين وعر اللجاء، وتتناثر في أرجاء هذا الموقع الأثري قطع من التماثيل والأحجار المزخرفة التي امتدت إليها أيدي المخربين بالتحطيم والتشويه، وكان من المتعذر الوصول إلى هذه البلدة إلا بواسطة الخيول بسبب الصخور الكبيرة التي كانت تمنع شق الطريق إليها، وأهمية معبد سحر معروفة، وتعد من الأمثلة المشهورة في تاريخ المعابد النبطية ودياناتها.

٨ - الصنمين: يقوم في مدينة الصنمين معبد وثني يعود تاريخه لعام (١٩١ م) ويتألف من حفية شاهقة وجدران مزينة بأروع الزخارف الدقيقة المنحوتة بحجر البازلت الصلب، وهو من أهم الأوابد التاريخية المعروفة التي تستحق الزيارة، وتدلنا الكتابة التي عثر عليها أثناء أعمال الترميم على أن أحد قادة الجيش الذي يدل اسمه على أنه من أبناء المنطقة هو من قام ببناء هذا المعبد تكريمًا للآلهة الوثنية التي عبدها السكان في ذلك الحين.

لقد كانت هذه السطور سردًا مختصرًا لما روته الوثائق التاريخية، وخاصة المصرية، ولم نتعرض لوثائق كتاب العهد القديم لعدم دقة وصحة ما ورد فيه، لأن معظمها دَوّن في القرن السابع قبل الميلاد. ومن المعلوم أن منشئ سفر التثنية، مثلاً قد استمد موضوعاته من أسفار أقدم مثل قصة الملك عوج التي لا يوجد مثلها في الأسفار الأخرى، والعلماء المختصون يشكون في صحتها، لا سيما أن المدن التي تحدث عنها منشئ سفر التثنية كانت لاتزال قائمة عند تدوين السفر، ويتبين لنا أن الإسرائيليين قد سمعوا بالملك عوج فقط ولم يتقابلوا معه إطلاقاً، أما النصر المزعوم

الذي حققوه على عوج واحتلالهم باشان، فهو من نسج الخيال على مايدو، وقد يكون الغرض منه ترديد أقوال قديمة كانت تتحدث عن ضرورة احتلال باشان الغنية بمواردها الطبيعية، ولكن هذا الحلم لم يتحقق.

مواقع أثرية منسية في حوران:

هذا لايعني، على الإطلاق أنها عديمة الأهمية، فإذا نظرنا إلى بعضها مثل تلي شهاب والأشعري، مثلاً، نستنتج أنها كانت مدناً ذات شأن.

عندما قام تحوتمس الثالث خلال العام الأول لاعتلاء العرش بقيادة حملته الأولى إلى بلاد الشام، أمر كتيبة من رفاقه بتدوين أسماء المدن والقرى التي يدخلها، وبالفعل فقد تم ذلك وأصبحت هذه القوائم من أهم المصادر التي تعتمد عليها الدراسات لكثير من جوانب الحياة في بلاد الشام، وخاصة الجنوبي منها، والذي يهمننا من هذه القوائم، تلك التي تصف الطريق التي سلكها الجيش في زحفه من قادش (تل النبي فيد جنوبي حمص) نحو دمشق، ومن دمشق إلى حوران.

وهذه هي المدن التي دونت في القوائم والتي تقع جنوبي دمشق:

- ١- أثارو - بلدة عدرا الحالية شرقي دمشق.
- ٢- أوبيل (مجهولة) بعد اجتياز هاتين المدينتين يدخل الجيش في أراضي محافظة درعا.
- ٣- بيارتو (مجهولة الموقع).
- ٤ - مصانا (مجهولة).
- ٥ - موشيا (مجهولة) ولكنها واقعة في المنطقة بين متان وتل عشترة، لأن اسمها قد ذكر مباشرة بعد اسم امتان الواقعة جنوبي صلخد وقبل قانو، عارونة،

عشثروت؁ لقد ذكرت هذه المدن في رسائل العمارنة أيضا؁ فعندما وقعت موشىخا في خطر؁ اضطر أميرها شوترنا للاستنجد بالجيش المصري؁ فأرسل رسائل إلى مصر يحث فيها على إرسال نجدات له؁ ويبدو أن الخطر الذي أهدق بموشىخا كان مصدره جاراتها؁ أو البدو الذي كانوا يسكنون البادية إلى الجنوب منها.

٦- قانو (إلى الغرب من موشىخا) ذكرت في رسائل تل العمارنة؁ ويبدو أنها كانت على علاقات طيبة مع مصر؁ وأيضا مع ملك أوفة؁ أي ملك دمشق بىرياوزة الذي دخل في نزاع مع قادش فوقفت قانو إلى جانبه.

٧- عارونة: (إلى الغرب من قانو وإلى الجنوب الشرقي من عشرة) وقد تغير اسم هذه المدينة في عصر العمارنة وأصبح اسمها (خلوني) وقد وقفت خلوني كما وقفت بصرى إلى جانب بىريدشوا من يانعمو في نزاعه مع ملك دمشق بىرياوزة.

٨- باشان أوزيرى باشاني (كما وردت في رسائل العمارنة) تقع إلى الجنوب الشرقي من عشثروت. ويعتقد أنها عين تل حمد الذي يقع غربى الشيخ مسكين؁ وفي عصر تل العمارنة وقف أميرها أتامينا إلى جانب ملك دمشق بىرياوزة ضد ملك قادش إيتاكاما.

ويبدو أن هذه المدينة قد بقيت على علاقات طيبة مع مصر؁ والدليل على ذلك ابن أمينا من بلدة زيرى باشاني قد دخل في خدمة الفراعنة وارتقى إلى مناصب عالية منها: النذير الأول حامل المروحة على يمين الملك - كبير أمناء المستودعات

ومستودعات البيرة، وقد خدم ابن أمينا في عهد الملكين رمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٣ ق.م) ومرنبتح (١٢٢٣ - ١٢٠٥ ق.م).

٩ - مقالة: (يبدو أنها متمثلة في التل الذي يقع إلى الشمال من بلدة محجة)، وفي عصر العمارة سنكتفي بذكر أسماء المدن التي ذكرت لأول مرة في عصر تل العمارة: أ- ششخيمي: مجهولة. ب- نصيب (جنوبي بصرى).

أما بعض التلال الأثرية الهامة في محافظة درعا والتي لا نعرف اسمها القديم فهي:

١- تل شهاب: معروفة بالنسبة إلى شلالاتها الشهيرة، وتعتبر هذه المدينة الكنعانية التي نجهل اسمها القديم من أحصن المدن في المنطقة، فهي تقع بين واديين يحيطانها من الشمال والغرب والجنوب، لها سور منيع وموقع مرتفع يشرف على السهول الممتدة إلى الشرق منها، ويبدو أنها كانت من الأهمية بمكان بحيث أن سيتوس الاول (١٣٠٥ - ١٢٩٠ ق.م) كان قد أمر عندما غزى حوران بإقامة نصب تذكاري له في هذه المدينة تخليداً لانتصاراته، ومن المؤسف أن هذا التمثال الذي عثر عليه صدفة في تل شهاب عام (١٩٠١م) ونقل إلى باري شلك لم يكتب عنه أحد، ولم تفسر النصوص المنقوشة عليه، وقام بعض العلماء باستطلاع الوديان المحيطة بتل شهاب فتبين أن الإنسان قد سكن وادي اليرموك في العصور الحجرية، وأن كانت المدينة الكنعانية من الدور البرونزي، فمن المرجح أنها أقيمت على أنقاض قرية من الدور الحجري الحديث، لوجود دلائل تشير إلى ذلك مثل الأدوات الحجرية التي هي من مميزات الدور الحجري الحديث.

٢- تل الأشعري: أكبر من تل شهاب، يقع إلى جانبه نبع ماء غزير، يتولد منه شلال أضغر من شلالات تل شهاب، وقعت هذه المدينة تحت حكم الأنباط وكان اسمها ديا، وذكرت لأول مرة في معرض الحديث عن حروب الاسكندر يانوس اليهودي (١٠٣-٧٦ ق.م) مع الأنباط ونشاهد بقايا آثار نبطية منتشرة في التل خاصة في الجزء الغربي منه، ولا يعني هذا أن المدينة قد أسسها الأنباط، وكل الدلائل تشير إلى أن هذه المدينة قد تأسست في الألف الثاني قبل الميلاد على الأقل، ويلاحظ الزائر لهذا التل أنه كان للمدينة مدخلان، الأول في الزاوية الجنوبية الشرقية وهو المدخل القديم للمدينة، والثاني يقع في الزاوية الجنوبية الغربية، وهو الحديث ونلاحظ اختلاف أسلوب البناء بين المدخلين.



مسرح بصرى الشام الأثري

- أهم المدن والمباني والمواقع الأثرية في حوران:

- مدينة بصرى:

١- أبواب مدينة بصرى:

- الباب الغربي وهو ما يسمى باب الهوى.
- الباب الشمالي وقد ظهرت بقاياه في نهاية الشارع الكبير الممتد من الشمال إلى الجنوب وكان يقوم عند مدخل العسكر الرئيسي من جهة المدينة.
- الباب الثالث وهو البوابة التي كانت تشكل في الأصل الباب الرئيسي للمعسكر في أقصى الشمال بين كروم العنب وتتألف من مدخل على جانبه برج.

٢- قوس النصر:

لقد عرفت أقواس النصر في أوائل العهد الروماني بشكل يشبه بناء بوابة مدينة منعزل عن الأسوار في العهد الهلنستي، كانت أقواس النصر غير معروفة، وكان على القائد المنتصر بجيوشه أن يمر بهم تحت بوابة شاهقة الأرتفاع مبنية لهذه الغاية على الحدود، وهناك يقدم إلى الآلهة الأضاحي المهيئة لهذه المناسبة، ولا يستطيع أن يدخل المدينة مع جيوشه إذا لم يقيم بمثل هذه الطقوس.

٣- السقاية:

يقوم بناء السقاية عند تقاطع الشارعين الرئيسيين للمدينة، أي ما يسمى (دوسجماندوس) وال (جارودو) يعود تاريخ إنشاؤه إلى القرن الثاني بعد الميلاد.

٤- الكلية: (تسمى الآن سرير بنت الملك):

حول هذا الاسم من نسج خيال بعض الأهالي وأسطورة تحدثت عن بنت الملك بالعصر القديم (ملك المدينة الذي رزق بابنته بعد ما بلغ من الكبر عتيا)، فكانت أجمل فتيات زمانها وأوفرهن حظًا بالترف، وعندما بلغت سن المراهقة، أصبحت سلوة أبيها ومبعث سعادته، وأصبح لا يهتأ إلا بصحبتها والتطلع إليها، وكان يخاف أن يصيبها مكروه، فأمر ببناء قصر يقوم فوق أعمدة شاهقة تسكن فيه الصبية الفاتنة لتكون بعيدة عن مصائب الزمان وأحداث القدر، وعندما انتهى بناء القصر على ما يرجو ويرغب من فخامة وتنظيم وعلو وبعده عن دنيا المدينة، ويشرف على مناظرها البعيدة والقريبة، نقل إليه الفتاة وأمر أن يرفع إليها ما تحتاجه بواسطة سلة كبيرة، وهكذا اطمأن الأب الشفوق على سلامة فتاته، ولكن الله شاء غير ذلك، وغير ما أمل الملك القوي لابنته، ففي إحدى المرات دخل عقرب بين عناقيد العنب في السلة وماكادت تصل يد الفتاة إلى العنقود حتى لسعها العقرب الشرير فماتت الفتاة ولم يغنها الحذر من ريب المنون) وهو في الواقع يدل طراز بنائه على أنه شيد في القرن الثالث بعد الميلاد وأطلق علماء الآثار اسم الكلية، على ما يشبه هذا النوع الواسع الانتشار في سهل وجبل حوران.

٥- السوق الأرضية:

من أهم اكتشافات المديرية العامة للآثار والمتاحف في مدينة بصرى، وتمتد هذه السوق على مسافة مائة متر في الجانب الشمالي للشارع المستقيم، وقد ساعد هذا الاكتشاف الهام على تعيين موقع الساحة العامة للمدينة في أوج ازدهارها، وتشبه هذه السوق إلى حد بعيد الأسواق المعروفة في العصر الروماني ومن أكبرها وأطولها.

٦- جامع كمشتكين، نبع الجهير:

ويسمى اليوم: جامع الخضر وهو مسجد إسلامي قديم جداً، يطلق عليه الأهالي اسم جامع الخضر، نسبة إلى المقام المجاور له والمعروف بمقام الخضر، ويظهر أن هذا الجامع قد تهدم قبل أوائل القرن السادس للهجرة، فامر أمير الدولة أبو منصور كمشتكين الأتابكي والي بصرى عام (٥٢٨هـ) بتجديده، والجامع مبني على شكل مربع، ويستند سقفه المقطوع من الحجر البازلتي على قوسين مرتكزين على أعمدة، ويظهر فوق محرابه بقايا نقوش عربية محفورة على الجبصين والمئذنة مفصولة عن الجامع بممر ضيق، وأكثر أقسامها مهدوم، ويرى الزائر فوق عتبة الباب هذه الكتابة «بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتجديده الأمير الاسفهلار الأجل السيد الكبير المخلص المختار عزالدين ربيع الإسلام أمين الدولة عبد الله سيف الأمة شجاع الملوك تاج الأمراء شرف الخواص فخر الجيوش ظهر المجاهدين ذي العزيمتين أبي منصور كمشتكين الأتابكي الظهير معين أمير المؤمنين من خاص عتيقة أمين، في شهر رمضان سنة ثمان وعشرين وخمسمائة» وبالقرب من المسجد من جهة الغرب بقايا دار رومانية صغيرة مؤلفة من دورين وبعض غرف في إحداها قبر يزعم الأهالي أنه مقام الخضر، ويزورونه أيام الجمع للتبرك، ويمر الزائر بعد أن يترك مسجد كمشتكين في نبع الجهير الذي يشرب منه الاهالي، وفيه جدران رومانية ومياهه مقبولة المذاق، ومن هناك تظهر للناظر بقايا حمام قديم على شكل قبة في الجهة الشمالية بين كروم العنب.

٧- دير الراهب بحيرا:

يعد هذا المعبد من أقدم كنائس المدينة القائمة، فقد بني على الطراز الملكي (بازيليكا) وهذه الكلمة يونانية الأصل معناها الرواق الملكي، مما يبعث على احتمال تشييده في مطلع القرن الرابع بعد الميلاد فوق أنقاض بناء أقدم، ولعلمهم أرادوا ترك الأنقاض المتراكمة على حالها، وأن يجعلوا لبناء المعبد ارتفاعا ملحوظا بين أبنيته القديمة القائمة في ذلك الحين، ويبدو لأعين السكان المقيمين في سائر أنحاء المدينة ويطلق عليه اسم دير الراهب بحيرا. يستعيد دائما ذكرى ذلك الراهب النسطوري الذي عاش في بصرى فترة قصيرة قبل ظهور الإسلام باعوام قليلة، وذكرت بعض المصادر أنه أشار إلى عم الرسول محمد ﷺ بالتيقظ وحمايته من العدوان لأنه سيكون له شأن عظيم، ويبدو البناء على شكل مستطيل طول جداره الداخلي (٣, ٢٣ متر) وعرضه (٤٠, ١٣ متر) وكان مسقوفاً بالخشب على شكل هرمي وينفذ النور إلى داخله من تسعة عشر نافذة، وفيها ثمانية في الجدار الشمالي ومثلها في الجنوبي، وأربع نوافذ في أعلى القوس ذي الهيكل البيضوي الشكل الذي يعد من أروع الأقواس المبنية في الكنائس البيزنطية، حيث تجلت مهارة البناء وجمال المنظر ودقة النحت، ويتوسط القوس حجر مزخرف بشكل كرمة وعناقيدها، وسائر أحجاره منحوتة ومزينة وتستند عليه نصف قبة مبنية بالحجر المغموس بالكلس زالت بعض أقسامها، ويبدو الهيكل من الخارج على شكل نصف دائرة مقببة وكانت الواجهة الرئيسية مبنية على شكل هرمي.

٨ - جامع مبرك الناقة:

يقترن هذا الإسم بذكریات تاريخية عظيمة متعاقبة: فيه برکت الناقة التي حملت أول نسخة من القرآن الكريم إلى سورية حيث حفظت فيه، ومنه تخرج كثير من كبار العلماء، ويروي البعض أنه بني فوق الأرض التي أقام عليها الرسول ﷺ عندما جاء إلى بصرى، ثم بقي مدة طويلة مركزاً ثقافياً تعاقب على التدريس فيه أئمة المذهب الحنفي، أمثال صفي الدين ابن القاسم عثمان، وحفيده الأمير علم الدين سليمان التميمي، وولده الشيخ فخر الدين البصراوي (وهؤلاء تولوا التدريس فيه ما ينوف على المائة عام، ثم دفن فيه أحد أبناء الخديوي عباس باشا الذي كان يرافق عرب العنزة ليتعود حياة البداوة .

٩ - الخزانات.

١٠ - مدرسة أبي الفداء.

١١ - العمود النبطي، وهو من الآثار النبطية الفريدة من نوعها في سورية، ويعد أنموذجاً ممتازاً للفن النبطي قبل العهد الميلاي، ولا يظهر من هذا العمود سوى قسمه العلوي والتاج، وأقسامه الباقية مغطاة بالبيوت الحديثة المحيطة به.

١٢ - الهيكل النبطي، وهو دليل خالد على حضارة العرب قبل العهد الروماني.

١٣ - القصر.

١٤ - الكاتدرائية.

١٥ - الحمام المملوكي.

١٦ - الجامع العمري - وجامع فاطمة والحمامات العامة والمعسكر والميدان وقلعة بصرى وغيرها من الآثار.

إن الحديث عن المباني الأثرية القائمة في جنوب سورية يتطلب ألوف الصفحات إذ أن كل شبر من أراضي حوران وجبل حوران) مثقل بالذكريات والأوابد التاريخية، ولا توجد أي مزرعة أو قرية أو بلدة مأهولة كانت أم غير مأهولة، إلا تضم دليلاً حضارياً ظاهراً للعيان، أو مدفوناً تحت الأرض، فالجسور القائمة الآن على وديان الهريز والعلان والزبيدي وقناة فرعون والبرزازية وبقايا السدود القديمة وخزانات المياه والآبار وغيرها من وسائل الري التي لا تزال يستفاد منها، هي خير دليل على إمكانيات المنطقة وغناها، والأبنية القائمة في نوى والشيخ مسكين وسائر قرى اللجاة والمدن المطمورة تحت ركام التلول كتل الاشعري والخمان والمطوق وأم حوران وغيرها من المواقع التاريخية، كاليرموك وحطين وامتان تتطلب دراسات أوسع وبحوثاً وافية.

أما عن مدينة درعا، فقد أوردنا في سطور سابقة أنها من بين أقدم المدن المعروفة في سورية، وقد ذُكرت في رسائل تل العمارنة، ويعود تاريخها المعروف إلى عصر البرونز الأول (٢١٠٠ ق.م).

ويتمتع مسجدها القديم بأهمية في تاريخ بناء المساجد في العصر الأموي والعصر الأيوبي، وكانت درعا من أسواق العرب الشهيرة: وخلال الحروب الصليبية احتلها الصليبيون فترة قصيرة وعند انسحابهم أتلّفوا مواشيها وحرّقوا أحرّاشها وقضوا على الكثير من معالمها لما لاقوه من دفاع مستميت أدى إلى طردهم كما أسلفنا.

هيكل المدينة والحياة اليومية وطرز اللباس وبعض العادات والتقاليد:

كانت درعا قرية كبيرة تمتد من حي الأربعين جنوباً إلى الجسر القديم شمالاً، وبينهما مرتفع يطل على الجسر يدعى الكرك نسبة إلى المخفر الموجود فيه منذ عهد الأتراك، والبيوت كلها مبنية من الحجر الأسود المأخوذ من المقالع القريبة، ويندر أن يرتفع البناء إلى أكثر من طابق واحد باستثناء بعض البيوت التي تتربع على قسم من سطوحها غرفة أو غرفتان تعرف ب (العلالي) مفردها (علية)، وغالبا ما تستخدم لاستقبال الضيوف.

أما القسم المعروف بالمحطة، فلم يكن آنذاك إلا عبارة عن مباني السكة الحديدية ومقهى الجنود الفرنسيين وقليل من البيوت الهزيلة التي تمكن أصحابها من السكن فيها رغم الطعن الأدبي الذي تعرضوا له نتيجة للشعور السائد في أن مجرد الذهاب إلى (الكبانية) كما كانوا يسمونها، أمر ينال من كرامة الرجل، ويعد هذا انعكاسا لضروب العبث واللغو التي كان الفرنسيون يمارسونها في مجتمع محافظ، ناهيك عن النظرة المقيتة للإنتداب وأسالبيه، ويا له من شاذ ذاك الذي يرتدي (البنطلون) حيث كان الجميع يتابعونه ساخرين وهم يغنون وراءه وكأنه أمامهم مختل العقل أو زنديق، واللباس التقليدي للرجال ثوب من القماش الأبيض أو قمباز من القماش المقلّم يلف فوق وسطه نطاق من الصوف العريض يسمونه (الشويحية) وسروال أسود ورداء من الصوف المصبوغ يدعى (البشت) وفوق هذا كله (فروة أو عباءة) وعلى الرأس (الحطة والعقال).

أما لباس المرأة، فالثوب الفضفاض وعصية الرأس، والقطعة الشبيهة بالملاءة الخشنة والشفافة التي تستر العنق والمعروفة باسم (الشنبر) والسروال الملون، كما أن

لباس الصغار لا يختلف عن لباس الكبار إلا في لباس الرأس حيث يرتدي الصبي حطة دونها عقال، والصبية منديلا فقط، ولا تلف الفتاة العصابة إلا اذا بلغت سن الزواج.

وقد اشتهر الفلاح الحوراني بالعمل المتواصل، فمن الحرثة والبذر إلى جمع الحشيش للحيوانات إلى التعشيب فالحصاد فتصفية الحساب وإرضاء خواطر الدائنين لقاء ما استدانه من دبس وخضار واقمشة وحبال و وليته يخرج بياض الوجه واطمئنان النفس، وكان قسم كبير من الأراضي في حوران قد بيع إلى حفنة من الرأسماليين من غير أبناء المحافظة و بثمرن بخس مستغلين سذاجة و سطحية الفلاحين الفقراء الذين حرموا لذة الاستمتاع بجهدهم زمناً طويلاً وخاصة في نهاية العهد العثماني، والمجتمع الزراعي مجتمع واضح منفتح درج الناس فيه على اجتماع الجنسين في أكثر المناسبات، وتعاونهما في معظم الأعمال، الأمر الذي قفز بالفتاة الحورانية العصرية إلى مرحلة متقدمة من العلم والرقي الاجتماعي والفكري.

الحياة الاقتصادية في حوران أثناء الحكم العثماني:

«إن الخريطة التي تبين المعلومات بالشؤون المالية حول توزيع السكان بين مدن وريفين وبدو وتظهر لنا أن كلا من أهالي المدن والبدو كانوا يدفعون ضرائب بصورة أقل من الريفين وأن الريف كان يتحمل عبئاً أكبر من الضرائب: (٢٤٥) أقجة للعائلة الريفية مقابل (٩٣, ٥) أقجة للعائلة من المدينة.. ونسبة الضرائب (العوائد) التي يدفعها الفلاح إلى الناتج العام من أرضه، فهي تتراوح بين السبع (١/١, ١/٧, ١/٥, ٢/٤, ٣/٥) وإن أكثر النسب شيوعاً هي (١/٤ - ٣/١) وأن منطقة حوران كانت تدفع (٥/٢)».

من النظرة الأولى لخارطة بمقياس كبير (١ - ١٦٥٠٠٠) نرى لوحتين للإنتاج الزراعي في منطقة الدراسة المبنية في كل قرية، ويتبين فيها لكل قرية كمية إنتاجها وتقسيم الإنتاج على أنواع الزراعات المختلفة قمح - شعير - محاصيل صيفية - قطن - سمسم - زيتون - كرم - فواكه - وكذلك المواشي والنحل، ويتبين لنا أن حوران قد اشتهرت بإنتاجها الكبير من القمح والشعير والمحاصيل الصيفية، ونفس هذه اللوحة لا تزال ترى بعد (٤٠٠ سنة).

ومن حيث تطور الملكية الخاصة للأرض بين عام (١٨٦٠ - ١٩٠٨).

«ظهرت فئة أخرى من التجار المرابين الذين أثروا حديثاً من خلال استغلال رؤوس الأموال الموظفة في أعمال الربا في تلك المناطق، كون أن هؤلاء التجار المرابون كانوا أغوات في الأحياء الواقعة خارج المدينة أو من صغار الوجهاء، فاستطاعوا أن يسيطروا على حوران وانضموا إلى كبار الوجهاء والمزارعين الأقوياء في البقاع والغوطة وفي خمسينات القرن التاسع عشر كانت بعض العائلات قد بدأت تثبت حقوق ملكيتها للأراضي.

الحياة الاقتصادية وتطورها في حوران

١- البيئة والتغذية في القرن التاسع عشر:

أ- عن دراسة الاسرة السورية:

جاء في كتاب المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، عن دراسة نشرت في المجموعة التي يشرف عليها طبيب فرنسي، بعنوان (عمال المشرق العربي) وهي الدراسة الوحيدة في هذا المضمار حول بلاد الشام، وقد قام بترجمة هذا البحث إلى العربية (بدر الدين قاسم الرفاعي) وكانت الدراسة قد بدأت في (٦ كانون الأول عام ١٨٥٧م) في بصرى الشام، حيث بقي فيها حتى غاية (١٣ كانون الأول عام ١٨٥٧م) حيث يقول:

«وإن الشيخ المقداد كان يقيم في الجزء الشرقي من المدينة بعد أن أفاد من حجارة المباني القديمة في بناء مساكنه، تتألف اسرة الشيخ المقداد من اثنين وثلاثين فرداً، منهم عشرة خدام، وعدد سكان القرية (٣٠٦ نسمة) أي أن عائلة المقداد عٌشر عدد السكان في القرية، ويعتمدون في مواردهم على استغلال أرض أميرية تناثرت في مقاسم عديدة على جميع المنطقة التي تبلغ مساحتها سبعين هكتاراً ويمتلكون قطعاً هاماً من الغنم والماعز، عهدوا برعايته للبدو المنتشرين في تلك البقاع لقاء أجر عيني (كالحبوب والحليب والخراف) والطاقة الغذائية على جانب من الوفرة، وكان الشيخ المقداد يحرص كل الحرص على توفير كل ما يتطلبه إكرام الضيف بوصفه أحد الامتيازات الأساسية».

507

العادات والتقاليد المألوفة في المأكل والمشرب، وهي التي لفتت انتباهنا على نحو خاص، وكذلك أوقات الفراغ التي يسميها وقت الراحة والاستجمام حسب مصطلح (leplay) وقد أولاهما موضع اهتمام بالغ بل أراد أن يوليها نفس العناية التي أولاهما لوصف الأعمال التي يقوم بها كل فرد من أفراد تلك الجماعة.

٢- القسم الثاني في هذه الدراسة:^(١) تتناول الموازنة السنوية المتوسطة للإيراد والإنفاق ويؤخذ عليها أنها أنشئت من قبل الباحث في أعقاب تحريات عاجلة اقتصر فيها على شهادة الأفراد الذين حقق معهم.

وأخيرا يعرض المؤلف في القسم الثالث من دراسته ملاحظات تقنية مفيدة حول النشاط الزراعي والغلال والمقاييس وتقدير العملات النقدية في حوران، إلى جانب آرائه في الظواهر الهامة المتعلقة بالنظام الاجتماعي.

ب- المحاصيل الغالبة (الاكتفاء الذاتي):

زار المؤلف بصرى الشام والتقى بعدد من المزارعين في تلك القرية، التي تقع على السفح الجنوبي من النقرة، والتي تعد من أخصب مقاطعات حوران فقال: حدثني أحدهم فقال: استقر عدد من العائلات في قلعة بصرى، وأقام عدد آخر مثل أسرة الشيخ مقدار في الجزء الشرقي من المدينة بعد أن أفادوا من حجارة الآثار القديمة في بناء مساكنهم، ثم يقول: فإذا تجاوزنا هذا التجمع السكاني، لم نجد في ذلك المكان الفسيح بناءً واحداً، ولا كوخاً أهلاً بالسكان داخل إقليم بصرى، ولم يحدد لنا المؤلف مساحته والأراضي التي تعود ملكيتها العظمى للدولة، وكان

(١) المصدر السابق ص ٣٤٤-٣٦٤-٣٦٥-٣٦٧.

الرجال يستثمرونها حسب نظام المشاع) أي على أساس توزيع دوري للمقاسم التي تحددها الحجارة.

ويستطرد المؤلف فيقول: أن أسرة الشيخ المقداد كانت تضم (٣٢ فرداً) منهم عشرة خدم، وقد اعتمدت موارد هذه العائلة الكبرى على استغلال أرض أميرية تناثرت في مقاسم عديدة على جميع المنطقة، وبلغت مساحتها سبعين هكتاراً. تزرع الأرض بالمحاريث القديمة على طريقة التناوب الزراعي الموزع على سنوات ثلاث والخدم هم الذين يصنعون المحراث ويبتاعون من دمشق السكة اللازمة له، فلم يكن في القرية حداداً واحداً ولا صانع حربي واحد، ويجر المحراث زوج من الثيران يدعى (الفدان).

وكانت بعض المقاسم ^(١) تروى من المياه المتجمعة في الوديان في فصل الشتاء ولم تعهد أراضي بصرى وحوران عامة زراعة الأشجار المثمرة في ذلك الزمان بسبب الضرائب التي كانت تفرض على الأشجار، كما نعهد لها في أيامنا الحاضرة، فكانوا ينتجون الحبوب التي تغلها الأرض في محصول جيد إذا رويت رياً جيداً، ونعني بالحبوب القمح الذي ينقل انتاجه مناصفة على ظهر الجمال إلى دمشق وعكا، وكذلك الذرة البيضاء والصفراء والعدس والبقول والحمص لتأمين حاجات العائلة، وكذلك الشعير والكروسة والجلبانه علفاً لحيواناتهم.

أما الزراعة الأخيرة فهي (نبات الخروج) الذي يعصر وتستخرج منه النساء الزيت اللازم لإنارة المسكن.

(١) المرجع السابق، ص ٣١٧.

وتملك الأسرة عددًا من الأبقار والجمال والخياد للركوب، والحمير لنقل الغلات بالإضافة إلى حيوانات الجر، وهي (الثيران) والجدير بالذكر أنهم لم يعهدوا وقتئذ العجلات كوسيلة من وسائل الجر والنقل، كذلك تقتني العائلة كمية من الدواجن للإفادة من بيضها، وقطيعًا هامًا من الغنم والماعز، وتوفر هذه الماشية بعض ما يحتاجون إليه من سمن حيواني لا بد منه لتغذية الأسرة، لذلك كانوا يطعمون من الطير القنيص الذي يستوهبونه عادة لأن الفلاح في حوران لم يكن ميالا إلى تعاطي صيد البر، وأخيرا كانت النساء يتولين قطف بعض الحشائش البرية التي تؤكل نيئة أو مطبوخة فتزود الأسرة بما يستكمل غذاءها إلى جانب بعض الثمار المتوفرة محليًا كالتين والرمان.

ذلك هو مجموع المأكولات الأساسية المتوفرة محليًا، أوالمنتجة والتي تؤلف قاعدة الغذاء اليومي، ويرتبط هذا الغذاء بهادة الملح وهي مادة أساسية لا بد من ذكر تاريخ وجودها في بلاد الشام، وأشهر المالح مملحة بحيرة جبول إلى الشرق من حلب، وفي وجيرود بين دمشق والقريتين، ومالح منطقة تدمر، وكان إنتاجها الوفير يمون معظم الأسواق الشامية بالإضافة إلى إنتاج عدد من المالح المحلية.

وفكان الشيخ مقداد يبتاع من دمشق وعكا الملح البحري، ما تحتاجه أسرته من هذه المادة، ويستخدم بعض هذا الملح في إعداد الجلود.

ومما يجدر ذكره أيضا أن الأسرة كانت تستورد^(١) من جبل عجلون المجاور زيت الزيتون المشهور بجودته استكمالا للمواد الدهنية التي لم تنتجها إنتاجا كافيًا،

(١) المرجع السابق، ص ٣٤٨-٣٤٩.

كما تستورد من جبل حوران أثناء المواسم كميات كبرى من البطيخ، تضاف إلى الثمار القليلة التي تنتج محلياً.

يترتب على ذلك كله من الناحية النظرية، أن الطاقة الغذائية كانت على جانب من الوفرة تلبية لحاجات أسرة الشيخ مقدار ولم يكن إنتاجها متنوعاً بما فيه الكفاية فارتبط مصير الشيخ بالتموين الخارجي في سبيل أن ينوع في غذائه من جهة وان يواجه من جهة ثانية ما يتطلبه إكرام الضيف وهو ما يحرص عليه أشد الحرص بوصفه أحد امتيازاته الأساسية.

الأصناف والكماليات:

تشير موازنة الشيخ مقدار في باب النفقات إلى بعض الأصناف التي كانت تعد في ريف حوران من الكماليات في القرن الماضي، على أنها أصبحت اليوم جزءاً لا يتجزأ من التغذية اليومية ونعني بذلك الأرز والسكر والقهوة ومنتجات أخرى أكثر شيوعاً مثل الفواكه والخضار الياضنة.

وقد ألمحنا سابقاً إلى أن أراضي بصرى لم تنتصب فيها شجرة واحدة مثمرة تسترعي النظر، وكانت دمشق السوق الحضرية الكبرى لبيع المحصولات، منها بالبصل والبادنجان وأنواع أخرى، كالعنب والتفاح والمشمش والبرتقال، وكذلك التوابل التي تبعث على الشهية، وأصناف من الحلوى والثمار المعقدة بالسكر (المربيات) واللوز والجوز والبندق، وأغلب الظن أنهم كانوا يحصلون على البلح من القوافل في طريق عودتها من الحج، أو من البدو الرحل، أما الأرز فهو غذاء قديم معروف في بلاد الشام منذ العهد الروماني، وهناك شواهد عديدة على زراعته فيها، وخلال حقبة مختلفة من الزمن، وبخاصة في زمن الأيوبيين والمماليك، على أن هذه

الزراعة لم تشغل في القرن السادس عشر إلا مساحات محدودة في منخفض الحولة ووادي الأردن ، ثم لم تلبث أن زالت عن الوجود في القرن التالي. ولم يقدر للأرز أن ينتشر انتشارا واسعا، ودأبت بلاد الشام في اجتلابه من الخارج، فاستوردت الأرز المصري الذي حمل إليها على ظهر السفن في القرن الثامن عشر، وأضيفت إليه كميات أخرى متزايدة وردت من أوروبا إبان القرن التاسع عشر، مما يدل على مزيد من الاستهلاك. وظل الأرز مع ذلك غذاء باهظا بالنسبة إلى أهالي المدن، ناهيك عن سكان الأرياف، وكان على الشيخ مقدار أن يبتاع من دمشق الكيلو الواحد من الأرز لقاء عشرة كيلو من القمح، ومن الناحية النظرية، لم يزد نصيب كل فرد من أفراد أسرته في هذا الغذاء على ستة غرامات يوميا، وكانوا يستخدمونه في إعداد المأكولات التي تقدم إلى الضيف أو أثناء الاحتفال بالأعياد، ويعتبر السكر من أعظم المصادر الغذائية للطاقة، وكان قبل القرن السادس عشر من قبيل الترف في أوروبا، وظل كذلك في بلاد الشام بعد ثلاثة قرون، وحتى النصف الأول من القرن العشرين ظل السكر فيها يعد من الأصناف الكمالية، على أن بلاد الشام كانت مصدر انتشار سكر القصب في أوروبا، فقد عثر عليه الصليبيون في تلك البقاع، ومنها نقلوه إلى بلادهم الأصلية، ثم زالت زراعة القصب السكري في وقت لاحق على نحو متدرج ولم تعود إلى الظهور إلا في أواخر القرن الثامن عشر، فارتبطت بلاد الشام بالنسبة لهذا الإنتاج أيضا، بما تستورده من مصر بالإضافة إلى السكر الأسمر الوارد حينئذ من جزر الأطلسي عبر القارة الأوروبية.

في غضون القرن السادس عشر شاعت القهوة في بلاد الشام فتعاطاها سكان دمشق للمرة الأولى، مما أثار خلافا شديدا في أوساط العلماء الذين انقسموا على

أمرهم، وسرعان ما أفضى الخلاف إلى تحريمها عام (٩٥٣ - ١٥٤٧) والواقع أن إجراءات التحريم العامة التي شاعت في أرجاء الدولة منذ مطلع القرن السابع عشر، قد أدت إلى تباطؤ إنتشار القهوة لفترة من الزمن، ثم ظهرت ثانية بعد إلغاء الحظر وعم انتشارها بين أهالي المدن والأرياف في أوسع فئاتهم، ويدل إستيراد القهوة المتزايد من جزر الأطلسي على نحو الاستهلاك، لا سيما بعد تخفيض الرسوم الجمركية في أرجاء الدولة العثمانية وكانت تقدم للضيف فقط.

وأصبح الشاي في أيامنا مشروباً يومياً في بلاد الشام، وكان متواجداً في الأسواق الحضرية الكبرى وبكميات ضئيلة دون شك، إلا أن استعماله ظل محدوداً، ولم يستهلكه إلا المسافرون والعائلات التي كانت تربطها صلة ببلاد فارس، أو مدينة استانبول، ولم يعد للشاي رواجاً كبيراً إلا في عصرنا هذا، حيث أقبل الناس عليه في الفترة المتأخرة إقبالاً شديداً.

ظلت القهوة مع السكر والأرز نادرة خلال القرن التاسع عشر في ريف حوران، وفي الريف الشامي عامة، فالأساس الذي قامت عليه الوجبات اليومية هو الحبوب، كانوا يتناولونها صباحاً عند الإفطار وظهرًا عند الغذاء على هيئة رغيف من الحنطة التي تمزج أحياناً بالذرة البيضاء أو الذرة الغضة التي تقطف في الربيع قبل حصاد القمح، وكانت الحبوب تنقل على ظهور الجمال إلى الطواحين المائية الواقعة في ضواحي بصرى، ومن الطحن الذي ينخل تصنع النساء العجين من غير استعمال الخميرة لأنهم لا يؤثرون مذاق الخبز ساخناً، تحبزه المرأة كل يوم على الصاج، أو في وجبة العشاء مساءً، وهي الوجبة الرئيسية، كانوا يتناولون أيضاً الحبوب على هيئة البرغل أو الفريكة، إلى جانب الحساء الحوراني الذي أعد بالعدس والحمص

المجروش، وكان البرغل أعم استهلاكاً من الفريكة، وهو يصنع من القمح المجروش الذي يغلى في الماء ويجفف بأشعة الشمس، ويمكن الاحتفاظ به أكثر من عام في مخزن الغلال (الكوارة) وتطبخه النساء بإعادة الماء عليه وتزويده بالسمن أو الزبدة، أما الفريكة فتكون من القمح الأخضر المشوي التي تجرشه النساء بطاحونة اليد (الجاروشة) ويحتفظ به لإعداده للطعام كما يعد البرغل.

وتشكل الألبان القاعدة الثابتة لغذاء الأسرة، ففي فصل الربيع يتناولون الحليب إذ يتوفر بكميات كبيرة، أو يستهلكونه في معظم الأحيان لبناً يساعدهم على تذوق البرغل والفريكة في فصل الصيف، ويستعاض عن اللبن في الشتاء بلبن الكشك عند الإفطار، هو ضرب من العجين يصنع من البرغل واللبن الرائب ويجفف بأشعة الشمس ثم يهرس، ويعالج بالزيت والزبدة ويتناولونه حساء، ولا بد أيضاً من ذكر البيض الذي يأكلونه مقلّياً في وجبة الظهر.

والدبس والحلوى التي تصنع برب العنب والسيرج وتقدم في وجبة الإفطار شتاءً، والفواكه الغضة أو الجافة حسب المواسم.

وأخيراً كان الفلاح يتناول بين وجبات الطعام بذور يحملها معه وخاصة الحمص وحبوب القمح والأرز أيضاً.

ولا يرد ذكر اللحوم في تلك الوقعات اليومية، ولكنهم يعوضون هذا النقص، بعض الشيء في أيام الأعياد، وفي التبادل الغذائي المتواتر في أعقاب بعض الأعمال الجماعية، وفي الاحتفالات الدينية والعائلية على نحو خاص^(١)، ففي عيد الأضحى

(١) المرجع السابق، ص ٣٣٠-٣٣٨-٣٣٩.

وعيد الفطر تقدم الماعز والخراف المشوية كاملة مع الدواجن وتتقاسمها الأسرة مع الضيوف.

كما تولم الولايم خلال شهر رمضان وتزود بكثير من اللحوم، وفي ساعات الأفاطار بعد يوم قصفه صائمين، أما الحفلات (الختان والزواج) فهي أيضا مناسبات يحتفل فيها، وتقدم اللحوم فيها أو تهدي لهم بكثرة، ثم إن مقدم الضيوف - وهذه حالة أكثر تواترًا من غيرها - مدعاة لذبح رأس من الماشية، وكمية اللحوم المقدمة تتناسب ومقام الضيف^(١)، فكانت أسرة الشيخ على يقين من أنها تستهلك من اللحم أكثر من غيرها، نظرًا لمركز الشيخ وما يقع عليه من تبعات، أما فيما يتعلق بالمشرّب، فقد اعتاد الفلاح الحوراني على الماء الذي تأتي به النساء من الينابيع القريبة ويحفظ في جرار ضخمة تدعى الواحدة منها (الخابية) وتوضع الجرار في مواضع مختلفة داخل الدار ويغرف منها بقصعات من الخشب.

ويتناولون الحليب كما مر معنا والشنينة، وهي اللبن الرائب بعد استخراج الزبدة منه، ويعتبر من المرطبات المنعشة في فصل الصيف.

أما القهوة فلا يتناولونها إلا بحضور المدعوين، وقد اختلف الأمر في الوقت الحالي نظرًا لحالة الرفاه التي يعيشها الفلاح اليوم بشكل عام.

وباختصار نجد أن النظام الغذائي العائلي وافر جدًا بصورة عامة، عند جميع سكان حوران باستثناء مواسم القحط، والحق يقال أن أغلب قرى حوران تقع تحت رحمة الله ثم الأمطار، وكانت عرضة لغارات البدو الرحل، فلم يكن حجم الإنتاج

(١) المرجع السابق، ص ٣٣٠.

فيها منتظماً، وعندما قام المؤلف الطبيب (m.edelbert) بتحقيق عام (١٨٥٧م)، اتسم الموسم بمحصول وفير وحدث في فترة ملائمة ازداد فيها الطلب على القمح من قبل الأوروبيين، منذ بداية حرب القرم، مما أدى إلى ارتفاع أسعاره، فأفادت منه حوران بعض الشيء.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن؟ هل كان نظام الغذاء العالمي قابلاً للتعميم على جميع سكان حوران؟

لقد أجمع الرحالة على ذكر شظف العيش عن هؤلاء الناس وقناعاتهم في شؤون المأكل والمشرب وقالوا: إن أغنياءهم يعيشون عيش فقرائهم فلا يتجلى ثراؤهم إلا عند استقبالهم الضيوف، ولا ريب أن مستوى العيش بالنسبة للشيخ متميز على مستوى سائر الفلاحين، بسبب ما يرده من خيارات مستلزمات حياة، بينما كان الفلاحون، في مرتبة أدنى، وعلى جانب من التواضع والتبعية.

طبائع وجهاء حوران في السهل والجبل:

طبائع وجهاء حوران وصفاتهم النفسية وعقليتهم هي المستوى المطلوب الذي يوفي مسائل الساعة حقها، فهم رجال عصرهم، أكفاء بالإدارة، يحسنونها ويعرفونها عجنًا، أكفاء في زمن الحرب وزمن السلم، عارفون بالرجال، يفهمون نفسياتهم وأطوارهم ويمتزجون بتلك النفسية والأطوار فيسيروها نحو هدفهم، ويحسنون التصرف بكل الحسن، يسوسون الناس بما ينبغي أن يساسوا به، فيقبلون عليهم متوددين طائعين مقدرين ظروفهم، وهم بعيدوا النظر كل البعد، فهم لا يدرسون مسائل الساعة وحدها، بل يرون من خلالها خطوطاً للمستقبل، عليهم رسمها ووضعها موضع التنفيذ.

هذا البعد في النظر والعمق في درس الأشياء يرافقه صبر شديد لديهم وتحمل للمشاق دون تضجر وتأفف، ويرافقه أيضا حلم شديد وتواضع كبير يصل بهم إلى أن يفتحوا صدورهم إلى جلسائهم ويرفعونهم أكثر مما ينبغي، وهذا يرضي الجلساء، وبعد ذلك يعملون أفكارهم وسياساتهم في كل أمر، فيدركون بالسياسة ملا يدرك بالسيف، والسياسة عندهم طويلة الباع، بعيدة الأغوار، تتناول كل تفصيل، وتنظر إلى كل خبر، فكأنهم يودون أن يطلعوا على كل شيء، ونضيف إلى ما تقدم كرمهم وسخاءهم متجذر في نفوسهم وعاداتهم.

وأهل حوران كرماء لا يدانون في كرمهم، فالأموال تغدق من بين أيديهم دون حساب، وهم لا يعدوها حين يعطوها، لكنهم يحسنون التصرف فيها، ولا يتصرفوا فيها إلا في محلها، فهي خادمة لهم تؤدي أوامرهم وتعطيهم غاياتهم.

وباختصار هم أسياد يتحلون بكل المزايا التي يجب أن يتحلى بها الأسياد العرب، مع سؤدد وعظمة وهيبة وفصاحة في اللسان، وتجوال في المعاني والأفكار، فلا يدعون أحداً يسبقهم في بلاغتهم غير متغاضين عنه أو متساهلين، سياستهم عملية، فهم يعرفون ما يريدون وكل شيء عندهم يلبس لباس الحكمة الرزينة والتواضع الزاهي الجميل.

بهذه الصفات يقابل وجهاء حوران المشاكل التي تعترضهم، وغالبيتهم رجال كبار القدر لهم شرف الصحبة، يعرفون كيف يرفعون من منزلتهم وكيف يأخذون حقوقهم، وهم راضون ولا يدعون أحداً ينقم عليهم عملاً أو قولاً، وهم بالأساس أهل البيوت الكبيرة، يحبون الرفعة ويعطون الكثير، ويثبون في جلسائهم شيئاً من الزهو والإعجاب بأنفسهم.

وجهاء حوران يقفون أمام من يتجاوز الحدود، ويسبقونهم ببعد نظرهم وغوره، يدهشون بفصاحتهم وانطلاق الستهم وأفكارهم، وأمام الخلاف وأمام الآراء والمذاهب والنزعات، نشاهد لديهم التسامح والتغاضي، لا التشدد والتزمت، إلا إذا قصد الخصام، وهو يستبعد الصراع المادي إلى أقصى أجل، ويدارون جلسائهم كل واحد بكيفية تلائمه، وليس بميزان واحد قديرون على تلك الملائمة، يضعون احسن الخطط وينفذونها أمام الظروف والجماعات المحيطة بهم.

هذا النظام الذي اتبعه وجهاء حوران ورجاله، قد خَوَّلَهُمْ مجابهة الظروف والخروج منها مظفرين ميمونين.



التطور الاقتصادي والاجتماعي في حوران

يتعلق التطور العام الاقتصادي والاجتماعي في حوران بظروف هذا التطور في سورية، بل وربما بالتطور العام للمجتمع العربي في آسيا، إلا أن هناك بعض الظروف الذاتية بجنوب سورية ساهمت مساهمة كبيرة في تحديد السمة العامة لتطور التشكيلة الاجتماعية التي تعيشها هذه المنطقة.

ولا تختلف صفات المجتمع في جنوب سورية زمن الحكم العثماني عن صفات المجتمع العربي الذي كان في ظل هذا الحكم فقد كان المجتمع متخلفا مغلقا يعيش حياة بدائية، ضمن تنظيم اجتماعي شبه اقطاعي متخلف خاصة في القرن الأخير من الحكم العثماني.

فالملكية التي نشأت غالبا نتيجة استيطان البدو، كانت مشاع، ولم يكن للأرض أهمية كبيرة، بل أعتبرت الملكية الكبيرة في معظم الأحيان عبئا على المالك، وذلك لكثرة الضرائب المفروضة على الأرض التي تحتاج زراعتها إلى (أيدي عاملة، بذار، تربية حيوان...) ولقلة الإنتاج بسبب تخلف الاستثمار وقلة مياه الري والأمطار، مما أدى إلى عدم الإهتمام بملكية الأرض، وأصبحت الملكية كارثة على المالك (الأرض بتهد الحيل) لذلك نسمع كثيرا من الشواهد التي تبين استخفاف المجتمع بقيمة الأرض (فلان جد فلان باع أرضه ببطيخة) - (وتأمر المختر مع بعض الناس وأجبروا فلان على امتلاك قطعة من الأرض، أدى ذلك إلى قلة الملكية الكبرى وبالتالي إلى انعدام إقطاع الأرض وتطور أسلوب الملكية تطورا آخر زمن

الاستعمار الفرنسي، فالمملكية المشاعية وانعدام الري وإراحة قسم من الأرض، وتكتل الفلاحين معاً لزراعة منطقة واحدة من القرية لعدم توفر الأمن والحماية للمزروعات، أدى إلى نشوء علاقات اجتماعية خاصة.

ولم يكن نظام الاستثمار وأسلوبه إلا نظاماً بدائياً لا يتجاوز الأسلوب البسيط بالزراعة، رش البذار وتحريك التربة ثم الحصاد بالطرق البدائية إلى آخر العمليات، مما زاد في الفقر والتخلف الاجتماعي رافق ذلك انعدام دور الدولة، ولم تكن علاقاتها بالمجتمع تتجاوز جمع الضرائب وفرض السخرة ثم التجنيد الإجباري، مما أدى إلى انعدام الأمن وندرة التعليم (الذي اقتصر على المبادرات من السكان فقط) وبالتالي انغلاق المجتمع على شكل وحدات اجتماعية مغلقة أو شبه مغلقة ضمن وحدة اجتماعية كبيرة، أما العلاقات الاجتماعية فقد كانت وليدة هذه الظروف، إذ تعزز النظام العشائري بسبب مشاعية الأرض وانعدام الأمن، كما اتصف المجتمع بالانغلاق شبه الكامل، بالإضافة إلى القيم الأخلاقية والعادات والتقاليد المختلفة، وقد برزت إبان حكم الاستعمار الفرنسي عدة ظواهر، أدت إلى نتائج اقتصادية واجتماعية أهمها:

١ - عودة الأمن نسبياً، بعد أن توقفت هجمات البدو التي كانت تهدده سكان حوران بغاراتهم المتكررة أثناء الحكم العثماني (حكم العرب) كما كان يسمونه أهل حوران، وفرض سلطة الدولة بشكل جديد ووضع مخافر للدرك ووجود سيطرة مباشرة للدولة على المجتمع.

٢- فرض مركزية نسبية للاقتصاد داخل سورية، وتشجيع الزراعة، مما أدى إلى التزاحم على تملك الأرض، التي بدأ يرتفع سعرها وصارت تجد عناية نسبية من الفلاح، وبنفس الوقت ظهرت مظاهر استقرار في المجتمع الزراعي البدائي لحوران، نتيجة سيادة الملكية الصغرى بحوران دون منازع.

٣- أدى التطور البسيط في الاقتصاد الزراعي بحوران، إلى تدفق سيل من التجار الدمشقيين الذين أتوا من مختلف المدن والقرى، وحلوا محل الحرفيين والبرجوازيين التجاريين الصغار الذين لم يكن لهم وجود في حوران قبل ذلك الوقت.

٤- افتتاح المدارس في بعض المناطق وبدء انتشار التعليم وتوضيح العلاقات الاجتماعية بشكل جديد إلى حد ما، وكذلك العلاقات الأخلاقية فالقيمة الأساسية أصبحت للأرض، وتمسك الفلاح بها، وبدأت بوادر ظهور البراجوازية الريفية الصغيرة (بكل صفاتها وقيمها) التي مازالت تعطي المجتمع الحوراني حتى الآن سماته الأساسية (الاجتماعية والأخلاقية والسلوكية) حتى لدى المتعلمين من أبنائها، وبنفس الوقت بدأت تظهر بوادر الاستقلال الفردي عن سلطة العشيرة المسيطرة لكنها بدايات خجولة وقليلة، وبرز دور الدولة وشاركت العشائر المسيطرة في حل مسائل المجتمع، وبدأ التعليم ينتشر ويأخذ أهميته لدى الفلاح.

وقد أدى انعدام التحالف بين القادة العشائريين إلى تشتت آرائهم ومذاهبهم وتشرذمهم إبان الحكم الوطني، وهذه الأسباب لم يكن لهم قوة تأثيرية في الحكم الوطني، ولم يستطيعوا فرض (مطالب محافظتهم) على هذا الحكم، وكانوا كلما حاولوا ذلك تعرضوا للسخرية (حوران بدها حقوقها) فلم يساهم الحكم الوطني

في تغير العلاقات الاقتصادية والاجتماعية، وانعدمت المشاريع الزراعية ولم تسهل مصالح الفلاحين، ولم يقيم المصرف الزراعي بدور يذكر، ولم يغير النظام الضريبي للفلاحين) مما أدى إلى فتح باب الهجرة من المحافظة التي لم تعد نظم الاستثمار، ووسائله فيها تفي بحاجة السكان بعد ارتفاع أسعار مستوى المعيشة في سورية، وكانت لهذه الهجرة نتائج مهمة، رغم أنها ليست أساسية، وكان أول اتصال جماعي مباشر بالمدينة الحديثه من قبل سكان حوران.

مع أن حكم البرجوازية الوطنية ساهم في فتح المدارس لحد ما، ونشر التعليم وازداد عدد المتعلمين زيادة كبيرة.

إن التطور العام في سورية، وهزيمة الاقطاعيين وانعدام دورهم في تقرير سير المجتمع (بعد أن وكلتهم البراجوازية الوطنية) أدى إلى هزيمة العشائرية في حوران عملياً، وإن بقيت ظاهرياً هي (القائدة) ولم يكن لقانون الإصلاح الزراعي فيما بعد (زمن الوحدة مع مصر) أي أثر على تغيير العلاقات بحوران لقلة (إقطاع الأراضي) وتمركزه في مناطق قليلة.

ولكن شكل الملكية ونظم الاستثمار وأساليبه لم تتغير كثيراً حتى الستينات، وبقيت على ماهي عليه حتى عام (١٩٧١) م، حيث طرأت التغيرات التالية:

١- شمول إفراز وتجميل معظم مناطق حوران السهل والجبل، مما أدى إلى ضعف سلطة العشيرة على الفرد بعد أن أصبحت العلاقة بين الفرد وأرضه مباشرة دون الحاجة إلى حماية العشيرة له ولزروعاته، وساعد الإفراز والتجميل للأراضي على تفسخ العائلة حسب نموذجها (الإقطاعي القديم، والامر الأهم هو أن الإفراز والتجميل ساعد على العناية بالأرض بعد أن ألغي المشاع وثبتت الملكية)، وزاد

بالتالي إنتاج الأرض، لكن بالمقابل تجزأت الملكية وتشتت وتحولت من ملكية صغرى إلى ملكية أصغر.

وكان لذلك نتائج اقتصادية واجتماعية وأخلاقية واضحة، وأصبح التمسك بالملكية شيئاً هام جداً إلى درجة التقديس، في ظل شبه انعدام مساهمة الدولة ورفضت التعاونيات والملكية الجماعية.

٢- لم تتغير انظمة الاستثمار وأساليبه تغييراً جذرياً لانعدام المشاريع وتقصير الدولة وبقيت انظمتها وأساليبه الفردية المتخلفة، ورغم وجود محاولات فردية ومغامرات من بعض الفلاحين الموسورين لم تلق التشجيع والعناية اللازمة، مما أدى إلى عدم رفع الانتاج بالسوية نفسها التي ارتفع فيها مستوى الحياة، ولم يعد إنتاج الأرض يكفي لمتطلبات الفلاح الذي يريد حداً أدنى من الرفاه النسبي لم يكن يطلبه سابقاً مما أدى إلى تشجيع الهجرة.

٣- بدأ الفلاح يشعر بعد الأربعينات من القرن العشرين بضرورة تعليم أبنائه، وباشروا الفلاحون فعلاً بهذا الأمر إلا أن معظمهم لم يستطع استكمال تعليم أبنائه، مما دعى هؤلاء لأن يتهافتوا على الوظائف لدى الدولة، برواتب قليلة، تاركين الأرض نهائياً، ومع شمول التعليم مختلف طبقات المجتمع وكثرة عدد المتعلمين، أصبح هؤلاء عبئاً ثقيلاً فلاهم عادوا ليعملوا بالأرض، رغم أن بعضهم لا يحمل شهادة الثانوية، ولا هم أكملوا تحصيلهم ووجدوا عملاً مناسباً، وأصبحوا لاهم فلاحين ولا موظفين ولا عمل لهم سوى تأجير قوتهم في أعمال فردية ومهن بسيطة.

٤- بعد الخمسينات من القرن العشرين بدأ سيل الهجرة إلى الأقطار العربية الأخرى (لبنان - مناطق الخليج - وغير ذلك).

وما زال هذا العدد يتزايد بسبب (سوء الملكية - سوء أساليب وأنظمة الإستثمار - عدم كفاية الأرض لمستوى حياة معقوله - عوامل الجذب في البلاد المهاجر إليها كالأجور المرتفعة وغير ذلك) وكان لهذا نتائج اقتصادية واجتماعية واضحة.

وبدأ المهاجرون يرسلون لذويهم حصيلة عملهم، ولم يحاول معظم هؤلاء أن يصرفوا هذه الأموال لتغيير أساليب نظم الاستثمار، وإنما بدؤوا ينشؤون مؤسسات تجارية أو حرفية صغيرة، ويقيمونها في المدن أو مراكز الاقضية والنواحي (متجر - مستثمرات صغيرة) وبدؤوا يحلون بذلك محل البراجوازية الدمشقية الصغيرة التي بدأت تتلاشى وتنحسر، وفي الوقت نفسه، بدأت المدن تنمو على حساب الريف (حجماً ومضموناً) لازدياد الهجرة إليها.

ومن اشكال الهجرة - هجرة المتعلمين الى المدن (داخل المحافظة او خارجها) لأسباب موضوعية وذاتية أدت بالتالي إلى إفراغ الريف من الأيدي العاملة بالزراعة وتدني مستوى استثمار الأرض وأخيراً تدني إنتاجها.

لم يرافق نمو المدن تطور بوسائل الإنتاج ونظمه فيها، وبالتالي لم تتطور العلاقات الاجتماعية ومظاهر الحياة والنظم والتقاليد والعادات... إلى المستوى المطلوب برغم أشكال ومظاهر الحياة العصرية التي يعود سببها إلى التطور العام في سورية، وبقي المجتمع في المدن عبارة عن تشكيلات اجتماعية (تسمع الراديو وتشاهد التلفزيون وترتاد دور السينما) دون أن تتغير علاقاتها ونظمها تغيراً جذرياً حاسماً، وبقيت البرجوازية التجارية والحرفية الصغيرة هي السائدة في المدن وكذلك البرجوازية الصغيرة الريفية هي السائدة في الريف.

ونخلص إلى القول أن منطقة حوران بحاجة ماسة إلى علاقات اقتصادية أساسها مشاريع كبرى لتغيير أساليب الإستثمار وتغيير شكل الملكية وإيجاد مشاريع إنتاجية كبيرة زراعية وصناعية.

١- الحياة الفنية في حوران:

عكست الفنون في ولادتها وتطورها، أصالة الإنسان في حوران، لا سيما في بصرى ودرعا والسويداء، وصورت علاقة الإنسان مع الأرض والمجتمع، وطورت تراثه القديم، وتبدو ملامح النواحي الفنية من خلال الأعمال اليومية التي يقوم بها أبناءها، ويظهر الذوق الفني في شتى مجالات حياتهم، وستعرض إلى المجالات والنواحي والأعمال التي تبدو في الناحية الفنية بشكل واضح وملاموس هي:

أ- الفن المعماري ب- بعض الصناعات الريفية والبدوية.

ج- الفولكلور د- الرسم - النحت - الفنون التشكيلية - المعارض.

أولاً: بيوت السكن: «الشكل الداخلي - الشكل الخارجي - محتوى البيت السكني»

الفن المعماري: يمتاز البناء القديم في حوران بميزة خاصة واضحة، وهي أن البيت يبنى من الحجر ويسقف بالحجر الذي يسمى (الربذ) جمع (ريذ) الذي يوضع كسقف للغرفة بشكل فني ومتقن، وأي خطأ فيه يعرض الباني للخطر، ويبنى البيت بقطرة في منتصفه، وهي عبارة عن شكل نصف قوس وتظهر الناحية الفنية ببناء القطررة وصف حجارها بجانب بعضها، حتى ليحسب المشاهد كأنها مسكوبة في قالب واحد، ويتفنن البناؤون في بناء القناطر وتنوعها، فيبنون عدة قناطر بجانب بعضها البعض، وأحياناً أخرى تجد أربعة قناطر ترتكز على عمود واحد وكأنها

متقاطعة مع بعضها البعض، وكان يحسب كبر البيت أو صغره بعدد القناطر الموجودة فيه، وكان هنالك اهتمام ببناء الأروقة أمام البيت الذي يعتبر بمثابة مكان للراحة، والليوان الذي يشبه الرواق وخاصة في الطابق العلوي، وأن البناء في الآونة الأخيرة، أصبح لا يختلف عن أي بناء في أية محافظة أو أي مكان آخر في سورية.

وكانوا يهتمون بتزيين البيت من الداخل وإظهاره بمظهر لائق وجذاب ومريح للنظر ومعجب للزوار، وأول أنواع الزينة هي دهان البيت من الداخل، والدهان سابقاً كان يختلف كثيراً عما هو عليه الآن، فإذا ما أريد إظهار البيت بشكل زاهٍ، أحضر الصباغ الألوان المطلوبة التي يرغبها صاحب البيت، ثم يحضر العدد اللازم من البيض، وكانت تقدر كلفة الدهان للبيت بخمسمائة بيضة نيئة، ويخلط مع الصباغ المطلوب، ثم يدهن البيت ويلون على شكل مربعات أو معينات أو أشكال هندسية أخرى، حسب ما ترسم يد الدهان وذوقه، أو كما أرادت صاحبة البيت، هذا بالنسبة للألوان الزاهية، أما الألوان الفاتحة فقد كان يحضر الصباغ ويحضر معه أنواعاً من الجلود وبعض القرب البالية تحرق حتى تصبح رماداً، حيث يجمع هذا الرماد ويخلط بالبيض ويدهن البيت.

وكانوا يضعون في صدر الغرفة رفوف من الخشب أو الطين، تزخرف أطرافها بأشكال هندسية وتدهن وتلون بنفس الدهان، ويزين صدر البيت بمرآة كبيرة توضع في منتصف صدر الغرفة، ويوضع على جانبيها زوج من القطايف (جمع قطيفة) في كل جانب، وهذه القطيفة عبارة عن قطعة نسيج قطنية مزخرفة بألوان مختلفة وفيها رسومات متنوعة، وفي أعلى القطيفة يوضع (الشانوق أو البشنق) وهو عبارة عن قطعة من النسيج الصوفي على شكل مستطيل يشبه سجادة الصلاة

الصغيرة، بحيث تظهر فيه الدقة في الصنع واللون والشكل، ويوضع له إطارًا من الشرايش الصوفية الملونة بألوان مختلفة ومنسجمة مع ألوان الشانوق، ويوضع في القسم العلوي منه ريش النعام وبعض المرايا الصغيرة إتمامًا للزينة وبجانب القطايف يوضع زوج من المهفات (جمع مهفة) وهي عبارة عن نسيج دائري من القش يوضع له يد من الخشب حيث يكون على شكل مضرب كرة الطاولة، ولكن بحجم أكبر، وتلبس بنوع من الدابولي (نوع من القماش) ويزين بالمرايا الصغيرة وريش النعام والودع، وفي أعلى المرأة يوضع المكاحل (جمع مكحلة) وهي عبارة عن لوحة مستطيلة من الخشب الرقيق بقياس (٣٠سم، ٥٠سم) تلبس بثوب مصنوع من القماش واجهته الأمامية مطرزة بالخرز المصفوف بصورة فنية منسقة وألوان جذابة حيث تظهر المكحلة بشكل فني بديع متقن، ويزين أعلاها بالمرايا الصغيرة وريش النعام والودع. وتحت المرأة زوج من المساند توضع بينها وسادة المسند، والمسند عبارة عن قطع مختلفة من القماش المتنوع، منها الجوخ المختلف الألوان وقماش الدابولي وقماش المنضدة الأبيض، توصل جميعها ببعضها بالخياطة، ويوصل من طرفها العلوي (سفيفة) بعرض (٣٠ - ٤٠ سم) تقريبًا، منسوجة من الصوف وطولها يعادل طول المسندين والمخدة الموجود بينهما، وكل ذلك بحدود (٣ م) وتوضع للمخدة أو الوسادة كما توضع للمسند، وتزين بريش النعام والودع والمرايا الصغيرة، وتفرش أرض البيت بالمفروشات الصوفية وهي: العجمية والفجة والبساط، وتظهر لنا الناحية الفنية بهذه المفروشات بالنقوش والألوان والأشكال التي يتفنن بها صانعوها لإبراز هذه المصنوعات بأبهى منظر، والبساط عبارة عن فجتين موصولتين بخيط من الصوف، وهناك عدة أنواع من البسط - حسب أنواع

الرسوم والنقوش التي تظهر عليها، فهناك البساط المقمر (رسوم على شكل فنانين خطوط) (والبساط المخرم رسومه على شكل حجب معينات صغيرة) والبساط الحوراني المساييف، والنقوش فيه على شكل خطوط عرضانية متنوعة الألوان، ويستعمل البساط والفجة كغطاء في أيام البرد، ويزين البيت أيضا بوضع المشوقة (المطوى) في أحد جوانب البيت، وهي عبارة عن صندوق من الخشب المغطى بصفائح معدنية رقيقة ملونة وتزين أخشابها ببعض النقوش والزخارف، ويستعمل لوضع فراش البيت عليه.

ثانياً: بعض الصناعات الريفية واليدوية

كانت الغاية من الصناعات الريفية واليدوية سد ما يحتاجه المنزل من القُرش وبعض الأواني النباتية، والصناعات التي يهمننا التحدث عنها هي التي تظهر النواحي الفنية في صنعها من حيث (الصناعة والجمال).

-صناعة القش:

تعتمد على ما يسمى بالقصل الذي يستخرج من نبات القمح بعد نضجه وحصاده، والقصلة هي ساق نبتة القمح (بين السنبله وأول عقدة تليها) يصنع منه (المنسفة لوضع الخبز عليها) - (الجونة، لوضع القمح والطحين وأنواع فيها وتتسع لـ (٢٠ - ٢٥ كيلو غرام) من الحبوب (القبة كالجونة) وهي أصغر قليلاً (المرجونة لحفظ الخبز خوفاً عليه من النشاف ولخزن البيض) وهي بشكل هرمي من الأسفل وضيقة من الأعلى ولها غطاء من نفس المادة (طبق العجين، لوضع أقراص العجين قبل خبزها) - (طبق السفرة، وهو كبير في مساحته يوضع الطعام عليه).

يظهر الفن والجمال في هذه الصناعات، في الأشكال والحجوم والنقوش البديعة المنسقة والألوان المتجانسة والمنسجمة، وللنقوش تسميات خاصة بها مثل (القلويد) - (الحجب) - (اللعب) وكذلك يظهر الفن في صناعة الخبز، فهناك خبز القالب (مرشتم) حيث توضع قطعة العجين على قالب من خشب حفر على أشكال مختلفة من الخطوط أو الصور، بعد خلطها بنوع معين من البهارات والورس الأصفر حيث تظهر تلك النقوش المحفورة على قطعة العجين ومن ثم يوضع في الفرن حتى تنضج وتظهر بشكل جذاب وشهي، ويكون وزن القطعة من هذا النوع أكثر من وزن الرغيف العادي، وهناك أيضا خبز اللزاقات حيث يكون عجين هذا النوع من الخبز على شكل مائع يوضع على صفيحة من حديد (الصاج) توضع تحته النار وترق قطعة العجين المائعة على شكل الرغيف المشروح، وتوضع هذه الأرغفة بعد نضجها فوق بعضها في وعاء (صينية كبيرة أو منسف) بعد أن يوضع بين الرغيف والآخر شيء من السمن والسكر والجوز الناعم، وأخيرًا تقطع على شكل معينات أو مثلثات صغيرة.

- الإبرة والتطريز:

شغل الإبرة: يظهر أكثر ما يظهر في ثياب المرأة الخارجية، وعلى الأخص الثوب الخارجي الذي يغلف جسم المرأة، والعمل في الإبرة يقتصر على النساء اللواتي يتفنن بحسن الصنعة، ويتسابقن بإظهار الجمال المتقن في عملهن، ولهذا الفن أنواع متعددة منها:

أ - السكة: على نوعين، النوع الأول (مطارق) ويكون العمل لإبراز هذا النوع من الخياطة بآلة واحدة فيها فتلة (خيطة) من لون معين، وبعد انتهائها توضع

فتلة من لون آخر وهكذا... (حسب الألوان المطلوبة) ثم تبدأ الخياطة من جديد باللون الذي بدئ فيه حيث ينتهي الخيط المطلوب. والمطرق، يظهر الشكل واللون والعمل بشكل مقبول متناسق ومنسجم.

النوع الثاني: (سكة بين أبرتين) يوضع في كل إبرة خيط من لون خاص، ويكون العمل في عمل غرزة (نفذة) من كل إبرة، فتظهر الخياطة بشكل جميل ومتناسق.

ب- التطريز: يكون التطريز على عدة أنواع:

١- حروز - الخياطة فيه على شكل مثلثات صغيرة.

٢- مخرم - الخياطة فيه كالحروز إلا أنه يوضع في وسط المثلثات نقط سوداء.

٣- الترقيم - تظهر فيه رسوم مختلفة تسمى بعدة أسماء منها (بيتنجان معلق) - (قرون الثور) قرون محملة - وأحياناً، يستعمل لون واحد، يختلف عن لون الثوب، فمثلاً يخاط الثوب الأسود بالخيط الأبيض أو يخاط الثوب الأزرق بالخيط الأحمر. ويكون الخيط واضحاً في مثل هذه الحالات على شكل نقوش مختلفة.

ج - ترقيم شالات الصوف: الغاية منه إظهار الزينة على هذا اللباس الخارجي الذي غالباً ما تستعمله النسوة المتقدمات في السن، ولهذه النقوش التي تصنع بخيطان الصوف أسماء خاصة بهذا الشكل الذي يرسم على ظهر الشالة يسمى (قُمر)، والرسم الذي يظهر على الأكتاف والصدر يسمى (سلاحات) أو (مطمس)، والرسم الذي يظهر في الوسط يسمى (سيوف).

وكانت هناك أنواع من الزينة لأردان الثوب (الأكمام) تسمى بالمقاويس (أقواس) وهي عبارة عن عدة قطع من القماش مختلفة الألوان على كل واحدة بعرض ٣ سم، توصل ببعضها، وتوضع بين الكتف والمرفق على شكل حلقات دائرية، وتكون مغيرة للون الثوب الأساسي، وكذلك كانت العناية الخاصة بالخُرْج الذي يوضع على الفرس، حيث تصنع بألوان زاهية، مزخرفة بالودع والشرابيش.

د - الدق بالإبر: الغاية من الدق بالإبر على الأيدي والوجه والصدر (الوشم) كما تقول النسوة (الغوى) أي للتباهي، وإظهار المرأة بشكل جميل وجذاب ومثير للانتباه، وإضافة حسناً على حسناتها إذا كانت جميلة، وتجميلها إذا كانت غير ذلك.

كيف تتم عملية الدق بالإبر؟

تتم العملية على مراحل:

- ١ - تجهيز حزم (٣-٧) من الأبر بشكل منتظم ومتين.
- ٢ - إحضار الهباب المتطاير من دخان الفرن والعالق على السقف والجدران (نجاج الفرن) أو إحضار مسحوق آخر مثل مسحوق الفحم، ويخلط هذا المسحوق ببعض الزيوت، أو ببعض الأصبغة.
- ٣ - غط الإبر في الخليط.
- ٥ - وخز العضو المراد تجميله بالإبر بعد أن يرسم على العضو بالقلم أو غيره الشكل المطلوب تلاقي المرأة التي تفعل في نفسها الدق بالإبر صعوبة كبيرة، حيث ينزف الدم من أثر وخز الأبر المتلاحق ولكنها تتحمل ذلك في سبيل أن تظهر جميلة أمام حبيبها.

ويستعمل الرجال مثل هذا الدق تارة (للغوى) أي للتباهي وتارة (للعلاج).
٦- بعد أن تتم العملية تظهر الرسوم على العضو الذي تم النقش عليه بشكل أزرق، بحيث لا يمكن إزالتها وقد اختفت هذه الظاهرة تماماً في حوران، وأخيراً هناك صناعات أخرى كصناعة (فرن) الخبز، وصناعة (قن) الدجاج والصيصان، وصناعة (الخابية) لماء الشرب، حيث تصنع مثل هذه الأشياء، من قبل النساء المتخصصات في ذلك، ويكون ذلك بإيجاد الطين اللازم وتكوين الشكل المطلوب حسب الرغبة والحجم والنقش، ثم تشوى هذه المصنوعات بالنار، على طريقة صنع الفخار، ماعدا القن، ثم تستعمل حسب الحاجة.

الفنون الحورانية:

١- الدبكات - وهي متعددة ومتنوعة ولكل واحدة نوع من الغناء المرافق لها بما يتناسب مع نوع الرقصات:

أ- الجوفية - ب- الحورانية - ج- الفلسطينية - د- الميحة - هـ- السحجة
أ - (الجوفية) يشترك فيها فريقان على شكل نسقين متقابلين، ويد كل فرد من أفراد الفريقين ممسكة بيد الفرد الواقف بجانبه، وحركة سير الفريقين تكون بشكل موزون ومنسق بخطوة إلى الأمام وخطوة إلى الخلف مع السير باتجاه اليمين على شكل دائري، ويبرز بين الفريقين شخصان لأداء الرقص على أنغام وحركة هذه الدبكة، وحركة الرقص تكون بالقفز نحو الأعلى وهز الجسم، ويحمل الراقصان بأيديهما الخناجر، والغناء في هذه الدبكة جماعي يؤدي من قبل أحد الفريقين، ويرد عليه الفريق الثاني، مثال:

شفت انا الزين سيّر عمد الله	راكب مهيرته وعَرَض قبالى
يانجم يالى بالسما واسمك سهيل	بالله إن شفت الولف دله علينا
قمت ابتدي بالخطا بي	عالحرب جوفى بناها
شيخنا دقت الحرب دعنا نشيل	وألف كره للحرب تمشي وراها
واحلمت أنا أمس الضحى ليلة امبارح	وفى عل شط البحر نايم بروضه
شديتلك جدعية باللون منصوبة	تسمع عج الزغاريد نوبة على نوبة
هي هي من هي هي يابو قذيله هله	لاتوخذني الردى ما هو على البالي
ياالله عليك السترياربي يارحمي	تنصر جيوش لنا بالحرب والكوان

ب - (الحورانية): تتألف من فريق واحد أو فريقين، يصطف كل منهما على نسق باتجاه الآخر، وتترك مسافة بينهما أكثر من أربعة أمتار، و تترك هذه المسافة في الجوفية، وأفراد كل فريق يمسكون بأيادي بعضهم، كما في الجوفية، ويقود كل فريق، أحد المختصين بالدبكة (ويعطي الإيعازات اللازمة)، وتكون الدبكة على أنغام الشبابة (الناي) أوالمجوز، والحركة فيها في البداية خطوتان باتجاه اليمين على شكل دائري، وضرب الرجل اليسرى على الأرض، ثم ضرب الرجل اليمينى على الأرض. وأثناء ذلك يرد أحد الذين يدبكون على نغم الشبابة أو المجوز بأغنية من الأغاني الخفيفة.

وبعد انتهاء الغناء، تتغير الحركة في الدبكة، حيث تتمايل الأجسام بخفة ورشاقة وحركات منسقة وقفز نحو الأعلى، وضرب بالرجل اليسرى ضربات ثلاث متتالية على الأرض مع الأكف، ثم مثلها بالرجل اليمينى مع الأكف. وتستمر الدبكة ما لا يقل عن الساعة.

والغناء يكون إما (على الدلعونا) أو (ظريف الطول) أو (العلا) مثال:

يوكـل مـا بطعميني ياغزيل على التيني
لضرب حالي بسكيني واجعل هل عمر مضى
يا زريف الطول قاعد عالرسوم لابس المزيوي ولا يطيق النسوم
أسال الله خالق الكون يجعل عمري وعمرك يلحبيب فرد يوم
يا أم الشعر الأشقر جنني شقاره شقاره من الله ولا متحني
لروح لبوها عساني متعني بلجي يرق القلب يعطونا
يا علا طالعة طلوع طلوع يا علا عدرج الله يعينك عالعين يا علا
يا علا يا ام الذويبة الشقرا يا علا ما أكثر محبينك عالعين يا علا

ج - (الفلسطينية): تتألف من فريقين، يصطف كل منهما على نسق، كما في الدبكة الحورانية، إلا أن اتصال كل فرد بالآخر يكون عن طريق وضع يده على أكتاف الذي بجانبه، والبداية فيها كالبدء بالدبكة الحورانية، ولكنها تختلف عنها بالحركات حيث تظهر فيها الخفة والرشاقة أما الغناء، فهو نفس الغناء كما في الحورانية، والآلة الموسيقية المرافقة هي الشبابة أو المجوز.

د - (الشمالية): تتكون من فريق واحد، يصطف على نسق، يتصل كل فرد بزميله بطريقة الملامسة بيده لكتف زميله والآلة الموسيقية المرافقة هي الشبابة أولاً وإذا لم تكن فالمجوز واتجاه السير في هذه الدبكة باتجاه اليمين الدائري، وتعتمد هذه الدبكة على حركة الجسم وهزه، وحركات الأرجل تكون باتجاه اليمين واليسار، يتخللها القفز والضرب بالرجل اليمنى على الأرض عدة ضربات مع التصفيق بعدد من الأكف مساوي لضربات الرجل اليمنى، وعلى نفس الوزن، ثم بالرجل اليسرى

مثل ذلك.

هـ - (الدرازية): وهي كالحورانية، تتألف من فريق واحد، إلا أن التصاق الأجسام ببعضها يكون أكثر، واللحن مميز عن غيره من الألحان، وألة العزف غالباً ما تكون للمجوز، ولا يصاحب الغناء هذه الدبكة، والحركة تكون نحو اليمين واليسار وهز الخصر مع ضربة الرجل اليمنى على الأرض عدة ضربات بحركات إيقاعية.

و - (الميحة): دبكة يقوم بها فريق من الشباب أو البنات، يصطفون بجانب بعضهم على شكل حلقة دائرية، ويمسك كل فرد بكتف الآخر، وتكون مصحوبة بالغناء الذي يمكن أن يؤدي على عدة ألحان، دون الاستعانة بآلة موسيقية، وحركتها خطوات إلى الأمام باتجاه اليمين الدائري وخطوة إلى الوراء باتجاه اليسار وضربة على الأرض بالرجل اليسرى، وتليها ضربة على الأرض باليمنى، وتكون الخطوات أحياناً على شكل قفزات إلى الأمام وإلى الوراء.

ز - (السحجة): فريق من الرجال يصطفون على شكل حلقة دائرية متسعة، ويكونون بشكل قريين جداً من بعضهم، بحيث تتلاصق أكتافهم، ويصفقون جميعاً بطريقة إيقاعية على وزن واحد اثنين ببطء.

ويرددون جميعاً من أعماقهم كلمة (دح - يوبا) ترافق ضربات الأكف وعلى وزنها، وهم يجهدون في ذلك حيث ضربات الأكف والنطق بتلك العبارة، ولا ترافق السحجة أية آلة موسيقية، وترقص بعض النسوة من لكبار في السن على هذا النغم وهن يحملن السيوف ويرتدين العباءات فوق ثيابهن، بحركت تشبه المبارزة بالسيوف وبوقار شديد، دون تخلع أو مجون، وتجد من الرجال من يصيح بأعلى

صوته مشيرًا إلى المرأة التي ترقص أمامه ويتمايل بجسمه على الجانبين وينزل على الأرض جالسا القرفصاء، وهو يصفق بجهد.

وتبدأ المرأة مراقبته محاولة ضربه بالسيف الذي بيدها، فيقف ويعود إلى الوراء آخذًا مكانه الطبيعي في الحلقة، وقد تصيبه الضربة أحيانا فيزهو بذلك زهوًا كبيرًا.

تسمى دبكة السحجة أحيانا بدبكة الحاشي ولذلك تراهم يرددون عبارة (يابو الحيش يابو الحوش) بدلًا من عبارة (دح يوبا) وتدوم هذه الدبكة أكثر من ساعتين متواصلتين

-الدبكة النسائية: تشبه الدبكة الحورانية إلى حد بعيد من حيث التشكيل، وتعتمد على العنصر النسائي فقط، والغناء فيها شئ رئيسي، حيث يكون جماعيًا وبألحان مختلفة، يغني قسم من النساء اللواتي يشتركن بالدبكة، ويرد عليهن القسم الآخر من غير آلة موسيقية، ويمكن أحيانا أن يرافق هذه الدبكة بعض العزف على الشبابة أو المجوز.

وحركتها: خطوتان إلى الأمام باتجاه اليمين الدائري مع تحريك الجسم باهتزاز يرافق الخطوتين ثم تضرب الأرض بالرجل اليسرى وتليها اليمنى.

مثال: باب المغارة نوخ ذلول الشوق باب المغارة

حفنه وغرارة هلن يادموع العين حفنة وغرارة

هاتوهاتو يا نازلين الشام هاتوهاتو

سكر نباتو ريقا على شوقي سكر نباتو

يا ما مشينا من وادي لوادي ياما خذينا من بنات الجوادي

يا الله اوف يا طالاعة طلوع طلوع

يا الله احذف ع الدرج الله يعينك

يا الله اوف يم الذويبة الشقرا

يا الله اوف ما اكثر محيينك

ل - (دبكة الطيارة): يشترك فيها فريق من الرجال لا يزيد عن العشرة. يقفون بجانب بعضهم على شكل دائرة، توجد بين الواحد والآخر مسافة. وآلة العزف الشبابة وإن لم تكن فالمجوز يسد وحركاتها تعتمد على ضرب الكف، وتحريك القدم والقفز وضرب الرجل بالأرض وميلان الجسم نحو اليمين واليسار، ويكون هناك واحد يعطي الإيعاز بالضربات التي تتساوى فيها ضربات الكف مع ضربات الرجل بالارض، ولا يصاحبها غناء.

ن - (دبكة جبل مودع): خليط من الشباب والبنات يصطفون بجانب بعضهم. ويمكن أن تطبق تلك الدبكة على الدبكة الحورانية والنسائية والفلسطينية والميحية، و تكون بين شباب وبنات الأهل والأقارب المحارم فقط.

٢ - الرقصات: تنحصر في رقصتين هما (الرقصة العادية) - (رقصة الكرجة)، إضافة إلى الرقصة البداوية. ولكل دبكة من الدبكات السابقة رقصتها الخاصة بها.

أ- الرقصة العادية: يقوم بأدائها فرد واحد او اثنان من الشباب أو البنات أو شاب وبنت، تعتمد هذه الرقصة على نقر الدف والاعاني الخاصة بها، حركاتها: خطوة إلى اليمين وخطوة إلى اليسار بهدوء وبطء، في الحركة مع تحريك الايدي التي تحمل المحارم وميلان الجسم، اعتباراً من الخصر فما فوق، مع الخطى نحو اليمين

واليسار ويشترك الحاضرون بضرب الكف الموزون مع نقرات الدف.

أمثلة على الأغاني:

١- يا شايلات الفنجان يامقسّات الزيتي

يللي خذيتي فلان بالـدنيا وش خليتي

٢- لبس مقرون ورخالو ذوايب يا أسود العين ليش اخذتي شايب

عذاب القبر أهون من عذابه

٣- فرهدت من فوق جملها والحسن والذوق داملها

لا أقبلت عالشيخ قام لها صب لها القهوة وناولها

تفضلي يانور عيني

ب- رقصة الكرجة: يقوم بأدائها فرد أو اثنان كما في الدبكة العادية، وآلة

العزف إما الشبابة أو المجوز مع النقر على الدف وضرب الكف من قبل الحضور

وقيام فريق منهم بالغناء، الحركة فيها تعتمد على الخفة والسرعة، وهز الجسم

والخصر والأكتاف والميل نحو اليمين واليسار والقيام بحركات فنية مستحبة،

ويحمل من يرقص بيده أحياناً صنجات من النحاس.

أمثلة على الاغاني في هذه الرقصة:

ليمونة يا معرض ورقها ليمونة سبحان الخالقلها

يا فلان جيب المحارم لها لفلانة تمسح عرقها

ميلي صوبنا يا بنية ميلي يا شiale الحمل الثقيل

حلفت ماتميل إلا بالشكة والشكة مية واربعيني

ج - الرقصة البدوية: يقوم بها فريق من الرجال بالوقوف على نسق متراس ويقوم أحدهم بأداء قصيدة على لحن بدوي يرد عليه اثنان أو ثلاثة من الواقفين تكون أصواتهم جميلة يرددون المقطع الأول من القصيدة فقط، وعلى هذه الأنغام يقوم بالرقص فردان، غالبا ما يكونان شابا وبنتا، وإن تعذر فشابان حيث يرتديان العباءات ويحملان بيديهما الخناجر.

الحركة فيها خطوات سريعة مقابلة لبعضها البعض وميلان بالجسم وإبراز الخفة والرشاقة ليظهر كل منهما بأنه امهر من الآخر.

بعض الأمثلة على الاغاني:

قومي شديلي وابترمي	قبل عشريك ينزرمي
وإن قدر الله غيرارمي	بينك وبينه بغاضة
قومي العبيلي غصايب	دنيلي شعر الذوايب

ويرد الكورس:

هلا هلا به يا هلا	ليا حنفي يا ولد
-------------------	-----------------

٣- الغناء: وهو متنوع متعدد الألحان في كل نوع من الرقصات، وسنبداً بإيراد كل نوع على حده مع ذكر أمثلة عليه، منوهين إلى أن كل مثل يرد، يدل على لحن معين يختلف عن سابقه.

أ - الغناء المهجيني: يؤديه فرد أو اثنان، والرد يكون كذلك من قبل فرد أو اثنين، ويعتمد هذا النوع على الصوت الجيد، وقد يرافق الغناء أحيانا العزف على آلة المجوز أو الربابة:

والنوم ماهو نصيب لي	والبارحة ساهرا يا جواد
أريدك تدور عشير لي	يا خالي يا منوة القصاد
معطيني عين الجفا شيله	يا يما مال الغضي زعلان
شرف على الحق قاضينه	كنك تريد الجفا يا خال
لا تعقد العقد حيا الله	يا شرع يا شاييل الكتاب
لا والله يــــا شرع لا والله	حمامة ما تقابل الغراب
وغابوا عن الذهن ياويلي	شدو عا خيل بليالي السود
مع قضاين الدرايلي	يا بنت عقلك غدا مفقود

(الدرييل هو المنظار)

ب - الغناء الحدائي: (الحداء) يقوم بأدائه فريقان من الرجال، لا يهم مهما كثر عدد كل فريق، يبدأ أحد الفريقين بالغناء، ويرد عليه الفريق الثاني، وغالبًا ما يؤدي هذا الغناء بالزفاف، وعند تقديم الطعام، ولا ترافقه آلة موسيقية، ويكون عادة على عدة ألحان.

أمثلة:

واسرع بشوف بلادنا	يا مركب يا ابو التفافيح
يوم لفوا غيابنا	يا ريحة العنبر تفوح
ماهو غريب وناحر قريبة	يا ركبا مليحان عجل للسفر
إلي يرش العطر مع ذوايه	واني ذبحني الزين أبو خد الحمر

ج- الغناء الشروقي: يؤدي من قبل عازف الربابة في المضافات حيث يطول السهر ويجلو السمر. ويكون على شكل قصائد كاملة تحكي قصص الحب والبطولة.

د - غناء الفن: يؤدي من قبل شخص ويرد عليه من قبل شخصين أو ثلاثة حيث يصطف الجميع بقيادة قائد الفن وتكون أيادي الجميع ممسكة ببعضها، يسIRON بخطى ثابتة وموزونة وبطيئة وبشكل دائري وهو أقرب إلى الدبكات، وجميع من في المكان ينصتون لسماع هذه الكلمات وما تحمله من معاني.

يحمل الذي في المقدمة عصاً بيده والفن كالقصيدة. يحكي قصة قد تكون قصة قصة حب أو بطولة ويكون على شكل مقاطع متعددة، ويرد الكورس المقطع الأول من الفن بعد انتهاء كل مقطع من قبل قائله، وتكون هذه المقاطع إما ثنائية أو رباعية أو أكثر حسب التأليف، وغالبًا ماتدور حول الشجاعة والكرم وصفات الرجولة.

هـ- غناء العمل والمناسبات: غناء الزفاف للعريس والعروس

الرجال يغنون إما الجوفية أو حذاء ويكونون في المقدمة بحيث يكون العريس والعروس راكبين على الفرس ومن أمامهما الرجال ومن خلفهما النساء. وغناء النساء في هذه المناسبة من نوع الغناء الخفيف.

أمثلة:

ركبوا المهيرة ورخو رؤوس الاردان	يا عيال فلان لا ركبوا ثلاثهم
فلان على الحمرة كنولوامع	يا زارعين الورد فوق الجوامع
يقول أبشري ميه عميه	وإن لاقته أخته تقول له الخرجيه

وعند طلوع العرايس من بيت مضيفها تغنى بعض الأغنيات التالية من قبل النساء:

يايبي فلان قم طالع عاروسنا	والشمس غابت ووجعتنا روسنا
يخلف عليهم كثر الله خيرهم	ولا اعجبنا بالنسايب غيرهم
يايبي فلان شاشت الخيل صوبك	إشلع قميصك واطلع بطاق ثوبك
أخذنا بنتكم يا جواد منكم	أخذنا بنتكم ومدللتم

مثل:

خش الفرح دارنا	يامن يهيننا
والمحبين اقبلوا علينا يهنونا	والمبغضين ابعدوا عنا ولا اجونا

وعند تلبس العروس ثياب العرس يغنى لذلك اغنيات خاصة:

مثل:

ريت من عنده ذهب يذهب عليه	ليش مايشرى غزال يلعب عليه
ريت من عنده ذهب يقلب عليه نحاس	ليش مايشرى من البيض النعاس
والبسي العرجة يابنية	والوجه فرجة يا هية
والبسي الدامر والبسي- الدامر يا هية	

أما عند تلبس العريس، فيغنى له كذلك أغنيات خاصة:

مثل:

فرش العلية واللييلة	والنومه الهنية واللييلة
يا عويناتي واللييلة	عندنا باقي واللييلة

جديدك ياراعي الجديد ياريتو مثل نهار العيد
ياريته مبارك وسعيد

أما في ليلة الحناء، وهي التي تسبق ليلة (الدخلة) يغنى للعريس والعروس كل
في بيته، بعض الأغاني الخاصة بذلك، أثناء وضع الحناء في أيديهما:
يالاهل يالاهل ياما أحلى لياليكم ياما حلّ النوم بفيه علايكم
يالاهل يالاهل لا يبرئ لكم ذمة وشو عماكم عن ابن الخالة والعمة
يالاهل يالاهل لا يجبر لكم خاطر وشو عماكم عن ابن العم الشاطر
حدرت بستان اتفرج على نجاصو ون الحشم مرتكي وايدو على راسو
حنيت ايديا ولا حنيت جفاقي واطلعت من الدار وما ودعت خياني
لا تطلعي عالسلام والهوى غربي لا تطلعي عالسلام تجرحي قلبي
حنيت ايدي ولا حنيت اصايي ياما حلا النوم بحضين المايي

وفي حفلة الطهور (الختان) يقيم أهل الطفل الأفراح والأغاني ابتهاجا بختان
ابنهم، ويسبق ذلك عملية (غز الرايات) التي هي عبارة عن أعلام بيضاء مزركشة
مكتوب عليها بعض العبارات والآيات، ويوضع على رؤوس العصي التي تحمل
هذه الرايات بعض قشور البيض المكتوب عليها كذلك: وبعض أغنيات هذه
المناسبة:

غزينا بالوطارحين يافلان يا ضنين العين
ياربي تقبل الرايات عن فلان تحمي السايات
والمنسف الي يدرج يدرج عالطارة منسف أبو فلان صدر الخطارة

راعي المهير الاشقر جاني يدوخ ذوخ منهو وليد العرب ومنهو وليد الشوخ

وأثناء عملية الختان يغنى:

سموا على المطهر سموا عليه من العطر والريحان رشوا عليه
يا مطهر الصبيان بالله عليك لا توجع الصبيان ندعي عليك
طهره يا شلبي وناوله لامه يادمعة الحارة نزلت على ثمه

و- غناء العمل: أغلب أهالي حوران كان عملهم الوحيد في الأرض (حرثها - زرعها - حصادها - وجمع المحصول ونقله إلى البيدرو، ومن ثم درسه وفرز الحبوب عن التبن ومشتقاته) وفي سبيل ذلك يعتمدون على سواعدهم وسواعد أبنائهم فقط وعلى الأدوات البدائية البسيطة وبعض الحيوانات.

لذلك كان يطول وقت عملهم، ولتمضية الوقت بالنشاط والهمة والعمل، كانوا يستعملون الغناء كمسل لهم ومشجع لمن يناله على بذل الجهد والاستمرار في العمل، لذلك كله كان لكل نوع من العمل نوع خاص من الغناء.

اغاني حرث الأرض:

كل الحرايرث حلت عيني على فدانـه
كابوسته من فضة حيرانـه ياثيرانـه
يا حرايرث القطعة حلوا ولا بيـاتي
ياريتني حمامة من فوقكم فـواتي

أغاني الحصاد:

يشارك فيها جميع من يحصدون، وهي عبارة عن ترداد كلمات قد لا يكون لها معنى أحياناً، ولكنها توحى بالحركة وتشجع على العمل، وتقال من أحد الحصادين، ويرد الباقيون ككورس بنفس المقالة أولاً:

ســـــير واقعد بالمقعد	عويد الند عويد الند
يا صدرك رز مفرهد	ياســـــنالك رز بحليب
واعطني الحبة ببلاش	ســـــير واقعد عالفراش
يا بعد ظهري ظهرك	اطحن واحني لي ظهرك
مشان الله ميلي جاي	يام العرجة ميلي جاي
منهو اللي رقه مارقه	يا قشير البندق ما ارقه
جوز الدامر لبسنه	جهير بصري ورنه

أغاني درس الحبوب (القمح والبذور الاخرى):

تؤدي من قبل الأولاد حيث يقومون بتحويل النبات الذي يحتوي سنابل الحب، إلى حبوب مختلطة بالتبن بعد مرور الخيل وراءها لوح خشبي يمتطي عليه أحد الأولاد الذي يسمى بالدرّاس، حيث يمضي نهاره واقفا على لوحه، لذلك نجده يتسلى في مثل هذه الأغنيات:

وافرشي له تاينام	طقطق عالباب فتحيله
والوسايد ريش انعام	وافرشي له الجوخ الاخضر
ولا بعرف وين انام	لا بفرش ولا بفرش

يتمشـين ويتبـهـ	حـمـامـتـين درجـن
عـلـى ام العنـب والتـين	بـسـيـن البـسـاتـين
واربـعـة مـاجـروا اللـوح	يـاحـمـرا الوـحـيـلـي لـوح
وـحـدي وـحـدي وانا وـحـدي	وـانـي جـريـتـو وـحـدي
وـانـي درـاسـك الـاولـي	يـاحـمـرا لا تـهـولـي

أغاني الذراوة:

حيث يتم فصل الحب عن التبن ومشتقاته (التذرية)

سـروا عـلـيـك النـشـاما	يـانـجـمـة الصـبـح يـالـي
واـجـوح جـوح الـيـتامـي	وـابـكـي وـعـيـونـي تـهـلي
يـا رـبـعي عـلـى الغـيـني	يـا غـزـالا وـرد
ولا سـسـقـيـتـني	لا تـعـذـرتـي مـنـي
ما خـنـت الحـيـب يـقـر الصـحـيـح	يـا حـمـامـا بـروس العـلـالـي تـصـيـح
ما خـنـت الحـيـب يـرد النـقا	يـا حـمـامـا بـروس العـلـالـي بـقا

أغاني الرجاء:

وهي عملية نقل ما حصده من الحقل إلى البيدر على ظهور الجمال:

يـاربـي سـلمـهـن مـن التـهـديـد	واـجـعـل قـوايـمـهـن مـن حـديـد
حـمـران ما ابيـعـك ولا بـألـفـين	لـما تـجـوزـني وأسـد الـديـن

اغاني العين:

تعتمد أكثر القرى على الآبار والعيون لسد حاجات القرية من الماء للشرب والغسيل وإرواء الحيوانات وللحصول على الماء من هذه العيون، يلجأ إلى الدلاء، وهي عملية مرهقة ومتعبة. ولتخفيف ذلك تردد بعض الأغنيات:

ذبحتني يا عيوني	يا لابس الزبونوني
لا تنزح يا قلبي	يا ومن ورد حبيبي
يا واردات البيري	وارون ورد حبيبي
وان كان ما تروين	جنب واني راعيهم
يا حلالي يارشود	واكل العينين سود
يا حلالي يا ذهب	على ملحوة الذهب
شب قلبي والتهب	صُبْ لَهْنُ صُبْ
	الحوض يكب

وهذه أغنية ضرر الدخان (السجاير):

أول عذابك قضبة النار بيدك

ثاني عذابك جرعة مع وريدك

ثالث عذابك ينقصك ما يزيدك

رابع عذابك يطلعك باش كحاح

ذكرها لي المرحوم حسين شله - أبو علي من حرستا رحمته

وعلى لسان السيجارة أقول:
دخن عليا تنجلي وارفع بإيدك مشعلي
لا تلفت للمبغضين انت وحياتك ملك لي

٢- الحياة الفكرية في حوران:

عرفت حوران مشاهير المفكرين الذين أغنوا التراث العربي، ورفدوا حركة الشعر بانتاجهم المبدع، وظل الريف حتى يومنا هذا محتفظاً بتراثه الأصيل على شكل أغنيات ومواويل تعكس صورة الإنسان الحلي، وعندما نرصد الفكر ونرصد معالمه في المنطقة الممتدة ما بين غباغب شمالاً وجبال عجلون جنوباً، فإن أول ما يلفت النظر هو جودة الموضوع، وطرق باب موصد، لم تشأ العصور أن تنفض الغبار لترى ماذا تكس وراءه من صفحات عتاق، وماذا ترك الأجداد للأبناء، لاسيما أن الصورة التي جثمت فيها هذه المنطقة ماتزال باهتة قائمة، بل ربما اسدل عليها الستار، ستار من النسيان من هذه الزاوية على الأقل، وأعني بها الزاوية الفكرية، وتسهيلاً للبحث رأينا تقسيمه إلى حقتين:

- الأولى من عام (١٩٠٠ م) حتى الاستقلال.

- الثانية ما بعد الاستقلال .

أما المرحلة الأولى، فقد اجتزأناها لقربها من جهة، ولكونها تمثل أنموذجا للحياة الفكرية المتدنية التي تنتحب على ماقبلها من سنين من جهه ثانية.

والثانية، هي الحقبة التي تطور خلالها التعليم، وكثرت المدارس وازداد الوعي وتعددت المشروعات الانتاجية والمرافق الحيوية، وغدت منطقة حوران في ثوبها

الحلي الذي يزداد نضارة وأناقة يوماً بعد يوم.

١- الشعر الحوراني:

عن ذكر الشعروالشعراء في حوران، لابد أن نذكر أشهر شعراء حوران (وهو أبو تمام الطائي حبيب بن أوس الطائي) ابن مدينة جاسم الذي استمرء حياة التنقل من جهة إلى أخرى، إلى أن استقر به المقام في العراق ليغدو شاعر الخليفة المعتصم:

وطول قيام المرء في الحي مخلق لدياجتيه فاغترب تتجدد
فإني رأيت الشمس زیدت محبة إلى الناس أن ليست عليهم بسمد

ولد الشاعر أبو تمام في قرية جاسم غرب إنخل في حوران، ونشأ أبو تمام الطائي كما ينشأ أبناء الفقراء من اهل عصره أرسل إلى كتاب القرية ليتعلم القراءة والكتابة وليحفظ القرآن الكريم، كان أباه يعمل عطارا في دمشق فادع ابنه ليعمل عند حائك فيها.^(١)

ولا الحياء وأن رأسي قد عثا فيه المشيب لوزت أم القاسم
وكانها وسط النساء أعارها عينين أحور من جاذر جاسم
وسنان أقصده الناس فرنقت في عينه سنة وليس بنائم
يضطاد يقظان الرجال حديتها وتطير بهجتها بروح الحالم
الم على طلل عفا متقاد بين الذؤيب وبين غيب الناعم
بمجر غزلان الكناس تلفعت بغدي بمكر ترها الم تراكم

(١) ابن خلكان.

- نعمة بن هبة الله الجاسمي فقيه سمع الحديث عن أبي الحسن الحنائي وأبي الحسين سعيد النوائي.

- اسحاق بن إبراهيم الأذري: توفي عام (٣٤٤ هـ) وهو محدث ثقة - رحل وحدث عن كثيرين منهم أبو عبد الرحمن النسائي وأبو زرعة وأبن عيينة وخلق كثير غيرهم، كما حدث عنه كثيرون أيضا منهم تمام بن محمد الرازي وأبو الحسن الرازي وأبن شعيب وغيرهم.

- أبو بكر الأزرعي: محمد بن عثمان بن خراش، وقد حدث عن ابن العسقلاني وابن الطبري والقراطيسي والعباس الجرجاني. كما روى عنه أبو يعقوب الأزرعي وأبو الحسن الرازي وغيرهما.

- عبد الوهاب بن عبد الله بن أيوب الأزرعي (من الحفاظ والمحدثين وقد روى عن البجلي وابن أركين والدارقطني وخلق كثير لا يحصون، كما روى عنه أبو علي الأهوازي، وابن السمسار، توفي عام (٤٢٥ هـ) وصنف كتباً كثيرة.

- الإمام محي الدين النووي: (أبو زكريا يحيى بن شرف الخزامي الحوراني) ولد سنة (٦٣١ هـ) في نوى (شمال غرب درعا) وتعلم في دمشق، وسافر ومات في بلده نوى سنة (٦٧٦ هـ) مؤلفاته هي أ - تهذيب الأسماء واللغات (مجلد كبير طبع في غوتنجي بين عامي (١٩٤٢ - ١٩٤٧) ب - منهاج الطالبين (نقل إلى الفرنسية عام (١٨٨٢) م، ويقع في ثلاثة مجلدات - الدقائق - تصحيح التنبيه في الفقه - شرح صحيح مسلم (طبع في القسطنطينية عام (١٢٨٣ هـ) وفي خمس مجلدات - الأربعين النووية - رياض الصالحين - التقريب والتيسير.

- محمد بن عبد القادر الصيداوي: من قرية صيدا (شرقي درعا) (١٠٣٥هـ) وهو إمام فقيه.

- ابن قيم الجوزية: عالم حافظ وهو أستاذ ابن كثير، واسمه (محمد بن أبي بكر (٧٥١هـ) وتحمل مدرسة إزرع اسمه.

- ابن كثير - صاحب التفسير المشهور، ويعتقد أنه من بصرى الشام.
ومن مشاهير الفقهاء ثلاثة أجلاء، اثنان من بصرى الشام هما الشيخ محمد سرور المقداد، والشيخ احمد منصور المقداد، الملقب بالشافعي الصغير، والثالث هو عبد الرحمن الطيبي من قرية (الطيبة) وجميعهم درسوا في دمشق ودرسوا فيها وتوفوا في العقد الاخير من القرن العشرين طيب الله ثراهم.

- الراهب بحيرا: الروحاني الشهير وصاحب القصة المعروفة مع الرسول الكريم، وديره شاهد عليه ويعرف بدير الراهب بحيره.

- سعد بن عباد بن دليم بن حارثة بن أبي خزيمه، ويقال حارثة بن خزيمه ابن ثعلبة بن طريف بن ساعده بن كعب بن الخزرجي، سيدهم أبو ثابت، ويقال أبوقيص، صحابي جليل كان أحد النقباء ليلة العقبة، وشهد بدرًا في قول عروة وموسى بن عقبة والبخاري، وروى ابن عساكر من طريق حجاج بن أرطاة عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس أن راية المهاجرين يوم بدر كانت مع علي وراية الأنصار مع سعد بن عباد رضي الله عنه - ويتابع الحافظ الذهبي فيقول: قلت: والمشهور أن هذا كان يوم الفتح والله أعلم، وقال الوافدي: لم يشهدا لأنه لسعته حية فشغلته عنها بعد أن تجهز لها، فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وآجره. وشهد أحدًا وما بعدها.

وكذا قال خليفة بن خياط، وكانت له جفنة تدور مع النبي ﷺ حيث دار من بيوت نسائه بلحم وثريد أو لبن وخبز بسمن أو نخل وزيت، وكان ينادي عند كل ليلة لمن أراد القرى، وكان يحسن الكتابة بالعربية، والرمي والسباحة، وكان يسمى من أحسن ذلك كاملاً، وقد ذكر أبو عمر بن عبد البر ما ذكره غير واحد من علماء التاريخ أنه تخلف عن بيعة الصديق حتى خرج إلى الشام فمات في قرية من حوران سنة ثلاث عشرة من خلافة الصديق.

قاله ابن اسحق والمدائني وخليفة قال: وقيل في أول خلافة عمر، وقيل سنة أربع عشرة، وقيل سنة خمس عشرة.

وقال الفلاس وابن بكر سنة ست عشرة، ويتابع الحافظ الذهبي فيقول: وقلت: أما بيعة الصديق فقد روي في مسند الإمام أحمد أنه سلم للصديق ما قاله من أن الخلفاء من قریش، وأما موته بأرض الشام فمتحقق والمشهور أنه بحوران، قال محمد بن عائد الدمشقي عن عبد الأعلى عن سعيد بن عبد العزيز انه قال: أول مدينة فتحت من الشام بصرى. وبها توفي سعيد بن عبادة. وعند كثير من أول زماننا أنه دفن بقرية في غوطة دمشق يقال لها (المليحة) وبها قبر مشهور به ولم أره، الحافظ ابن عساكر تعرض لذكر هذا القبر في ترجمته بالكلية فالله أعلم.

كبريات عشائر حوران (١٩٢٥ - ١٩٢٦م):^(١)

١ - العشائر المتواجدة في حوران:

- آل الحريري: وهي أكبر عشيرة في حوران، وعدد قراها ثمان عشرة قرية، يرأسها أفراد من أسرة الحريري، وزعيمها الأول، المتقدم على جميع حوران، هو (الشيخ إسماعيل باشا الحريري)، ومقره قرية الشيخ مسكين.
 - آل الزعبي: وهي أكثر عشائر حوران عدداً، وعدد قراها ست عشرة قرية، وزعيمها الأول (ابراهيم السليم الصالح)، ومقره خربة غزالة.
 - آل الجباوي السعدي: وعدد قراها ثمانية، (وزعيمها الشيخ محمود ابو رومية)، ومقره القنية.
 - آل المقداد: وهي من أقدم العشائر في حوران، وعدد قراها خمسة، زعيمها الأول (الشيخ منصور الخليل) مقره بصرى الشام.
 - آل الرفاعي: وعدد قراها ثلاثة، (وزعيمها الشيخ احمد الرفاعي) ومقره نصيب
 - آل الحلقي: وعدد قراها ثلاثة (وزعيمها الشيخ منصور الحلقي) ومقره جاسم.
 - آل المحمودي: وعدد قراها خمسة (وزعيمها الشيخ فاضل المحمودي).
- وتعتبر هذه العشيرة من الدرجة الخامسة من عشائر حوران من حيث العدد
- آل العبيدات وزعيمها (إبراهيم العبد الله العبيدات) كفر سوم.
 - آل الحشيش العباس: (زعيمها فندي الحشيش) تل شهاب.

(١) حوران الدامية - حنا بي راشد ص ٣٦٦ - ٣٦٧ - ٣٦٨ طبعة ١٩٦١م

- آل البلخي: تتولى رئاسة قريتين (وزعيمها الشيخ تميم البلخي).
- آل المذيب: (زعيمها جبر المذيب) - (نوى).
- آل زعل (زعيمها محمد الزعل) - (المسيفرة).
- آل المحاميد: (كبيرها فاضل المحاميد) - (درعا).
- آل العبيدات: (وكبيرهم الشيخ الشهيد كايد مفلح العبيدات).
- آل العبيد: (وكبيرهم الشيخ أحمد العبيد) إزرع.

لكن الكلمة المسموعة لدى البعثة الفرنسية في دمشق، هي لفارس بك الزغبى، مندوب حوران في المجلس النيابي الدمشقي، مقره دير البخت. أما عوض بك العامري، مفتش معارف حوران، فمقره جاسم وهو من عشيرة آل العامري ويعتبر من أرقى شباب حوران ادبا وتربية في ذلك الزمن.

٢- عشائر العرب والجر كس:

- عشيرة الفضل: مركزها الجولان وزعيمها الأول (الأمير محمود الفاعور) مركزه واسط.
- عشيرة بني نعيم: يرأسها (المشايع صالح وممدوح الطحان والحاج عبد الله الطحان) ومقرهم كودنة قرب تل الفرس.
- عشيرة آل العزيز: يرأسها المشايخ (نمر عبد العزيز والشيخ فارس عبد العزيز) وكلاهما مقرهما (كرمه).
- عشيرة بني شديد: يرأسها (طاهر الفرسان الشديد) مقره الدلوة.

- عشيرة الجرکس: يرأسها (الحاج سليمان الجرکسي) مركزه القنيطرة وينزل في أراضي حوران، عرب عنزي في بعض الأحيان.

٣- عشائر المسيحيين:^(١)

- آل الفلوح: أصل آل فلوح من صرخد، وهم من الغسانية، وجدهم الأول اسمه (قروي) وقروي ولد فلوح، ومهنا وناصر وقطيش وقرقميش، فالأول تناسل منه آل فلوح وكبيرهم حسن فلوح والثاني آل مهنا والثالث آل ناصر والرابع آل سليمان والخامس آل قرقميش، ومنهم صالح باشا قرقميش، وغيره من المشهورين ومقرهم في السلط وعجلون.

- آل حاتم: نسبها يتصل (بشقيق قروي)، جد آل فلوح وكبيرهم نجيب حاتم ومقره قرية حبيب.

- آل الأسعد: وهذه الاسرة مقرها أزرع وجيهها (خليل الاسعد) مدير الصنمين (١٩٢٥)م.

- آل الشناعات: مقرها تبنة وجيهها (رشيد الشناعة).

- آل شقرا: مقرها شقرا كبيرهم (الخوري موسى بدران).

- آل نصر الله: اصل هذه الاسرة من ازرع ونزح منها كثير من افرادها. انتشروا في جميع انحاء سورية ولبنان، ومنهم آل قنديل، مقرها جديدة مرجعيون. وكبير آل نصر الله (سليم نصر الله) مقره ذنية.

- آل بدين: مقرها موتبين وجيهها (إبراهيم البدين).

(١) حوران الدامية - الحلقة الثابتة - حنا ابي راشد.

مشايخ آل الحريري في حوران في مطلع القرن العشرين:

- ١ - الشيخ مسكين - شيخ مشايخ حوران اسماعيل باشا الحريري.
- ٢ - بسر الحرير - الشيخ زعل شحادة الحريري، الشيخ عقيل الياسين الحريري.
- ٣ - نمر - الشيخ فرحان غازي الحريري.
- ٤ - الحريك - المشايخ عبد الكريم الحسن وحسن العيد الحريري.
- ٥ - داعل - المشايخ عبد المجيد الفيصل وأحمد مثقال الحريري.
- ٦ - علما - الشيخ حامد العيسى الحريري.
- ٧ - أبطع - المشايخ زعل عبد الغني وفالح سليمان الحريري.
- ٨ - الصورة - الشيخ صالح العثمان الحريري.
- ٩ - نامر - الشيخ صالح العثمان الحريري
- ١٠ - صيدا - الشيخ ابراهيم العبد الله الحريري.
- ١١ - الغرية الغربية - الشيخ عقل الفروان الحريري.
- ١٢ - سحم الجولان - الشيخ عبد الرحمن زين العابدين، ونجله محمد عبد الرحمن الحريري.
- ١٣ - تسيل - المشايخ عبد الغني زين العابدين، وزين العابدين الحريري.
- ١٤ - محجة - الشيخ عمر الطالب الحريري.
- ١٥ - انخل المشايخ عبد المحسن زين العابدين وسليمان زين العابدين الحريري.

١٦- الفقيع - الشيخ حسن الشقران الحريري.

١٧- كحيل - الشيخ عبد الرحيم الحريري.

١٨- دير السلط الشيخ محمد محمود الحريري.

نسب العائلات الحورانية:

يعود أصل السكان في حوران إلى القبائل العربية الأصيله التي هاجرت على دفعات متوالية من الجزيرة العربية والعراق وبلاد اليمن حيث تنقلت هذه القبائل ما بين ربوع حوران و شرقي الاردن وفلسطين لفترات زمنية طويلة ونتيجة للخلافات بينها وبين الدروز القادمين من جبل لبنان تركت الجبل واستوطنت هذه القبائل في سهول حوران ومراعيها وسكنت بعض القبائل في خراب القرى القديمة التي دمرت بأيدي الغزاة.

لقد اخذت القبائل العربية القادمة من جبل حوران بالاستقرار شبه النهائي في القرى الخربة منذ اواخر القرن العثماني حوالي (١٧٠٠ - ١٨٠٠ م) وذلك بعد ان قامت بعد تنقلات من خربة إلى أخرى، حيث قامت بترميم البيوت المهدمة وبناء بيوت أخرى جديدة، بالإضافة إلى زراعة بعض المحاصيل الغذائية (الحبوب والبقوليات) وتربية المواشي والحيوانات الاليفة.

كانت حوران في العهد العثماني تمثل اقليما جغرافيا وسياسيا واحدا يضم في حدوده حوالي (٦٠٠ قرية ومدينة) ويشمل وعرة اللجاة، وجبل حوران، وجبال عجلون، وسهل حوران، وسهل النقرة وقد استمر الوضع كذلك الى حين قام الاستعمار الفرنسي الذي قام بتقسيم حوران الى عدة اقسام مستقلة، حيث دخل قسم

منها في ظل حكومة شرقي الأردن، اما الاقسام الباقية فدخلت ضمن الحدود الادارية لمحافظات السويداء - درعا - والقنيطرة، لذا سنقتصر في دراستنا على تعداد العائلات في محافظة درعا كونها اكبر التجمعات الحورانية.

- آل الرفاعي: تعتبر من العائلات الكبيرة والعريقة والمتميزة بجذورها الحورانية الأصيلة، ينسب الرفاعيون إلى جدهم السيد أحمد رفاعة ابن عم السيد أحمد الرفاعي وزوج ابنته، الذي يعود نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ابن عم الرسول محمد ﷺ.

- آل الحريري: يرجع نسبهم إلى جدهم برهان الدين علي أبو الحسن الرفاعي الحريري بن الشيخ عبد المحسن أبي الحسن علي، بن السيد عبد الرحيم الكبير الرفاعي، الذي ينتمى بنسبه إلى الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ، وهي من أكثر عائلات حوران عددًا، إذ تقدر نسبة غدد هذه العائلة من أصل عدد السكان في إلى (٢٦٪) من سكان محافظة درعا، وهي موزعة على عدد كبير من قرى حوران من أهمها بسر الحرير التي يسكنها النسبة العظمى من عائلة الحريري، وهي البلد التي خرج منها كل آل الحريري في بلاد الشام ومصر وتركيا، والباقي موزعون على أغلبية قرى حوران، وتقسم عائلة الحريري إلى عدة افخاذ هي:

فخذ العليان الذي يقسم إلى قسمين (عويل وغواري) ويسكنون بسر الحرير.

فخذ زين العابدين ويسكنون في تسيل وسحم الجولان وإنخل وعدوان وحرستا.

فخذ الكسور: ويقسمان إلى ثلاثة أقسام: الحسين ويسكنون في الصورة.

علما، الحريك، الحراك، ابطع الشيخ مسكين.

الابراهيم، ويسكنون في داعل، صيدا ابطع الياسين: ويسكنون في بسر الحرير، المتاعية، الجيزة، كحيل، الغرية، فخذ الجرابعة: ويسكنون في بسر الحرير وغيرها. فخذ الشوالي: ويسكنون في مليحة العطش.

لعائلة الحريري انتشار كبير في حوران حيث تعتبر من العائلات الكبيرة والعريقة في حوران كما أن لها امتداداً في سورية (حماء - دمشق - حرستا - جبثا الخشب - جسر الشغور - مزرعة حجي باشا - وحلب - السلمية - وغيرها والعراق والمغرب وشرق الأردن ومصر وغيرها، وهي العائلة التي قادت ثورة حوران إبان حكم الاستعمار الفرنسي ممثلة بزعيمها اسماعيل باشا الحريري شيخ مشايخ حوران.

عشيرة الزعبي في حوران: من العائلات الحورانية العريقة والكبيرة يتوزع أفرادها في ستة عشر قرية حورانية، وقد قدموا من الحجاز والعراق واستقروا في فلسطين وشرقي الأردن ولبنان وحوران، خربة غزالة، دير البخت - المسيفرة - كفر شمس - عقربا - طفس - الياودة - الطيبة - الجيزة - الغارية الشرقية - الذنبية - بصرى الشام - عدوان - علما - الحراك - إنخل، ويتنسبون إلى جددهم الأكبر عبد القادر الكيلاني المتوفي عام (٥٦١ هـ) الذي أعقب ثمانية أولاد، كما ينسبهم البعض إلى زغب بن مالك بن خفاف بن امرؤ القيس بن بهته بن بكر بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خضعة بن قيس عيلان بن الناس بن النضر بن مضر بن نزار بن معد بن أدد بن الهميع من نسل اسماعيل عليه السلام، وقد انقسمت قبيلة الزغب في العهد العباسي إلى عدة بطون، وقدم أجدادهم إلى حوران من اليمن والجزيرة العربية ثم انتشر أفرادها في سورية وفلسطين والأردن ولبنان ومصر والعراق والحجاز وغيرها وقد

كان لهذه العائلة دور نضالي كبير في تاريخ حوران وثوراته ضد المستعمرين، يقسم الزعبية في حوران إلى خمسة أفخاذ كبيرة منتشرة في عدد كبير من القرى الحورانية (فخذ الذبيان - فخذ إبراهيم - فخذ الأحمد - فخذ الصالح - فخذ الحمدان).

- آل الحراكي: تعتبر من العائلات الكبيرة في حوران، حيث تنتشر في عدد من القرى أهمها المليحة الغربية - الصورة ينتسب آل الحراكي إلى الشيخ (عبد الله الحراكي بن محمد بن علي بن الحسين أبي القاسم بن أبي الحسن علي بن كمال الدين محمد بن الحسن بن علي الزاهد بن الأقباسي بن يحيى ذي الدمعة بن الحسين ذي العبرة بن زيد الشهيد بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه).

ينتشر آل الحراكي في قرى حوران وفي معرة النعمان وحمص والرقعة (عين الباشا) وغيرها.

- آل البلخي: يتسبون إلى جدهم الشيخ (عثمان الملقب بالبلخي الصيادي الرفاعي الحوراني) دفين قرية القُريّا في جبل حوران وصاحب المقام الشهير، وهو عثمان بن موسى شرف الدين بن علي بن يوسف بن حسن بن سليمان الحوراني ابن عبد الرزاق بن شمس الدين محمد بن صدر الدين علي بن عز الدين أحمد الصياد ابن السيد عبد الرحيم بن سيف الدين عثمان بن حسن بن محمد عسلة بن علي الحازم ابن أحمد المرتضى بن علي المكي بن رفاعة الحسن المكي بن مهدي محمد المكي ابن محمد أبو القاسم بن الحسن القاسم بن أبي عبد الرحمن الحسين المحدث بن أحمد الأكبر بن موسى الثاني بن إبراهيم المرتضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق ابن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام.

تعتبر عائلة البلخي من العائلات الحورانية العريقة حيث ينتشر أفرادها في عدد كبير من قرى حوران ويتواجدون في مدينة بصر الشام، قرية معربة، المجيدل، النجیح، القرية، الحراك السهوة، إبطع، وفي منطقة عجلون في شرق الاردن وغيرها.

- آل العبيسي: ويتنسبون إلى جدهم (أحمد محي الدين الرفاعي الحسيني)، وهم من سلالة محمد العبيسي بن فضل بن أحمد بن بدر بن روش بن يحيى بن سليمان السبسي، ابن حسن بن علي بن المهدي بن علي التقي بن منصور أبي مهدي بن نجم الدين أحمد الأخضر بن علي الرفاعي بن سيف الدين عثمان بن حسن بن محمد عسلة ابن علي الحازم بن أحمد المرتضى بن علي المكي بن رفاعة المكي بن محمد أبو القاسم ابن الحسن القاسم بن أبي عبد الرحمن الحسين المحدث بن أحمد الأكبر بن موسى الثاني بن إبراهيم المرتضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر ابن علي بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ويلتقون مع الحرية في كون جدهم علي بن سيف الدين عثمان هو أخ عبد الرحيم سيف الدين عثمان والد شمس الدين محمد والد علي برهان الدين الحريري. جد الحرية، كما يلتقون مع آل البلخي عن طريق عبد الرحيم بن سيف الدين عثمان والد أحمد الصياد (جد آل البلخي) ومع عائلة الحاج علي.

- آل الحلقي: ينتسبون إلى جدهم الشيخ عثمان الحلقي الرفاعي بن صالح بن حسن بن حمدان الرفاعي بن أبي القاسم الرفاعي بن إبراهيم الرفاعي بن سيدي أحمد الرفاعي بن حسن الرفاعي بن محمد بن يحيى بن حازم بن علي بن حسن بن مهدي بن محمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن صالح بن يحيى بن محمد بن حسن بن

إبراهيم ابن الإمام موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصادق بن الإمام الباقر بن الإمام زين العابدين بن الحسين بن الإمام علي بن بي طالب كرم الله وجهه.

وعائلة الحلقي من العائلات الحورانية الأصيلة ذات النسب الرفاعي الشهير وينتشر أفرادها في عدد من قرى حوران (ازرع - جاسم - وفي مدينة حماه) جدهم عثمان بن علي الحلقي بن عيسى بن علي الحلقي بن الشيخ عثمان الحلقي الرفاعي.

- القادرية الكيلانية: ينتسبون إلى جدهم عبد القادر الجيلاني (الكيلاني) ابن صالح خانكي دوست بن يحيى الزهد بن عبد الله بن محمد بن داوود بن موسى الجون بن عبد الله المحصن بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب ويتواجد في حوران عائلتان تنتسبان إلى القادرية الكيلانية وهما المفاعلة والحمادي، وينتسب المفاعلة إلى جدهم محمد بن السلطان بن عبد القادر الكيلاني، الذي قدم من بغداد من العراق إلى قرية مفعلة بجبل حوران (حيث لقب أعقابه بالمفاعلة) ثم ارتحلوا إلى قرية ناحته، ومنها تفرقوا إلى قرى أم المياذن، غصم، كحيل، المتاعية، نوى، النعيمة، زميرين، إزرع، الحراك، المسيفرة، ويقسم المفاعلة إلى سبعة أفخاذ: الشحادة - (غصم - أم المياذن - الحراك - الداوود - المتاعية، أم المياذن - إزرع)، السكر، (أم المياذن، كحيل) العلي (ناحته) الأحمد (ناحته - المسيفرة) العيسى (النعيمة، ناحته، كحيل، غصم)، الحسن (النعيمة، أم المياذن، زميرين، نوى وعائلة الحمادي التي تنتشر في درعا والحراك وداعل، وقد قدم أفرادها من منطقة حماه.

عشيرة المقداد: تعتبر من أقدم العائلات التي سكنت حوران بعد الفتح الإسلامي، وينتشر أفرادها بشكل خاص في مدينة بصرى الشام وقرية معربة وقرية غصم، كما أن لهم أقرباء في لبنان بعلبك) وفي غزة والكورة واليمن والمغرب العربي

(تونس) ويتنسب أفراد عائلة المقداد إلى المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة بن عامر بن مطرود البهرائي، الشهير (بالمقداد بن الأسود الكندي)، ويقال أنه حصل على لقب الأسود نتيجة لمخالفته للأسود بن عبد يغوث الزهري، أما لقب الكندي فنسبة لحلفاء أبيه من قبيلة كندة.

ومن ألقاب بن الأسود الكندي ^(١) التي حصل عليها في العهد الاسلامي، لقبه حارس رسول الله ﷺ، ولقب أول فارس في الإسلام، تزوج المقداد من ضباعة بنت

(١) المقداد بن الاسود الكندي - تأليف الشيخ محمد جواد آل الفقيه - بيروت ١٩٨٥م.

عشيرة السعدي: من العائلات الحورانية الكبيرة ذات النسب الشريف، تنسب إلى الشيخ سعد الدين الجباوي الشيباني ولهذه العائلة خمسة عشر فخذاً نذكر منها (ابو رومية - المقيدح - نصر الله - المطاوع - النصر - التمر - الجرادات - الحارون - الصواريح - الحبارين - العرر - الشعينة - الشلبي). تنتشر عائلة السعدي في عدة قرى حورانية: (انخل والحارة - دير العدس - جبا - نوى - معربة - جاسم - القنية) وكذلك في خان ارنبة وبيت جن وفي محافظة حمص - كفرلاها. وقد انتشر أبناء الشيخ سعد الدين الجباوي الشيباني الذي أنجب اثني عشر ولداً في أرجاء (حوران جبا، دير العدس - بيت جن معربة - غضم - حمص - خان أرنبة) وغيرها.

ويقال أن الإمام علي كرم الله وجهه البيعة لسيدنا الصحابي الجليل ابن مسعود بن عمر بن المزدلف بن ربيعة بن جساس بن زهل بن قاسط بن هنب بن شيبان بن ثعلبة بن صعب بن علي بن بكر بن فاسط بن هنب بن قصي بن حذيلة بن أسد بن ربيعة الفرس ابن عدنان، وهو الذي اعطاها لولده الشيخ عامر الذي اعطاها لولده الشيخ قبيضة الذي اعطاها لولده الشيخ قيس وهو اعطاها لولده الشيخ عبد الله الذي اعطاها لولده الشيخ حسن وهو أعطاها لولده الشيخ علي الذي اعطاها لولده الشيخ يوسف الشيباني وهو أعطاها لولده الطبيب المداوي سعد الدين الجباوي الشيباني، الذي أنجب اثني عشر ولداً: علي - مصطفى - عبد الرحمن - عبد الرحيم - عبد العال - حسين - حسن - قاسم - محمد - احمد - يونس - فريد - وانتشروا في أرجاء حوران. ولاسند لهذه الرواية عندنا، وهذه الروايات يتداولها الصوفية .

الزبير بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ حيث أنجبت له عبد الله وكريمه، ويروى أن عائلة المقداد قد هاجرت إلى بلاد الشام قبل مئات السنين بسبب الاضطهاد الديني حيث انتشروا بين الشام وجهات بعلبك، كما يروى أن اثنين من أبناء المقداد سكنوا لفترة في قلعة السويداء ثم رحلوا إلى منطقة (حجولا - كسروان) ثم رجع جدهم هم وسكن بصرى الشام.

لقد ذكر الكولونيل فريدريك ج بيل في كتابه تاريخ شرق الأردن وقبائله أن آل المقداد هم من أبناء الصحابي المقداد بن الأسود الكندي البهرائي الحضرمي، قدم جدهم من الحجاز مع جيش المسلمين، حيث قتل في معركة اليرموك وخلف من الأولاد شبيب، الذي بنى أو أعاد بناء قلعة الأزرق في شرق الأردن - خرج شبيب إلى البقاع في لبنان وأعقبه لا يزالون هناك، وقد تشيع قسم منهم، وخلف المقداد أيضا ثلاثة أبناء وهم (صقر و شاهين، والمقداد الثاني) وسكن سهوة المقداد ونزح منهم أخوان يقال لهما نصار ونصر إلى الكور وأسسوا قرية بيت إيدس، ولما تكاثروا بها، خرج فرع منهم إلى حاتم بناحية الوسطية، وإلى جنين، وإلى قرية حمامة بجوار غزة، وهم ثلاث فرق بنو ياسين وبنو علي والعساسفة.

عشيرة الرشدان: من العائلات الكبيرة في حوران، يتواجد أفرادها في عدد من قرى حوران، مدينة درعا - محجة - النعيمة - إنخل - طفس - نافعة - جاسم - الحراك - الشجرة - الدلوة - وغيرها، كما يتوزع أفرادها في سورية والأردن (دير أبي سعيد، السلط، الرمثا، لوبيا، تل الأربعين، الحصن) وفي الحجاز والكويت وأبو ظبي، يعود نسب الرشدان إلى قبيلة جهينة وهي حي من قضاة من اليمن، حيث ينتمي الرشدان إلى قيس بن جهينة بن زيد بن الحافي بن مالك بن قضاة بن مالك بن حمير،

قدم الرشدان من اليمن إلى مكة ثم إلى شرق الأردن (عراق الرشدان) وحوران، حيث استقروا فيها، ويعتبر علي إبراهيم الرشدان (أبو الصيصان) ^(١) أول من قدم من الرشدان إلى مدينة درعا وذلك في عام (١٧٨٩ م)، ثم لحقه فندي أبو الصيصان وأولاده في عام (١٨٠٠) م، ثم لحقهم أحمد وأولاده، وأخيرا أبناء ذياب المبارك، أما أولاد شحادة عميرة فقد سكنوا الطواحين في تل شهاب ولقبوا بالشقران.

ويعتبر معزر الرشدان من أبناء عقبة الرشدان جد الصلاخدة في حوران، حيث سكن أولاده في مدينة الصنمين، ثم ارتحل إلى صلخد (عفر بالصلخدي) ثم انتقل إلى قرية النعيمه، ومنها تفرق أبناؤه حيث ذهب عامر إلى (الجوف) وعرف أبناؤه بآل عامر، وإلى أبو ظبي وبانياس، وعرفوا بالعوامرة في عام (١٨٤٠) م، أما مبارك فذهب إلى جاسم، ومالك ذهب إلى الحراك، أما موسى فقد بقي في قرية النعيمه، والرشدان في إنخل (رشدان) وقرية جبا (طويرش) وقرية محجة (الصيص) والدلوة (رشدان) فهم من أبناء فضل وجدهم عيسى بن حماد الذي قدم من دير أبي سعيد إلى شرق الأردن.

عشيرة المحاميد: هم من عشيرة المغايضة ويعود نسبهم الى بني كعب من جميل من هذيل من مدركة من مضر من معد من عدنان، القاطنين حول قلة. خرج منهم اثناء خلافات عائلية اثنان، هما نجم وراشد واتحها الى فلسطين فسكن الاول في ام الفحم في منطقة جنين وانجب ولدا اسماه محمود ويدعون أبناؤه بالمحاميد -

(١) لقب بهذا اللقب لأنه واثناؤه خروجه من بلدته كان يحمل بيده سلة فيها عدد من الصيصان. وعنا سألته إحدى النسوة عنه قالت: رأيت ابو الصيصان وقد غلب هذا اللقب على احفاده، الذين لقبو بالصياصنة او الصيص وطغى على كنيته الاصلية الرشدان.

أما راشد فسكن دبوريا (دبوسية) قضاء الناصرة وأنجب ولداً أسماه عبد العزيز ويدعون أبنائه بالعزيزة، وخرج من العزيزة اثنان هما: عمر وخالد واتجها نحو الشجرة في الرمثا. فسكن عمر الرمثا عام (١٨٥٠) م تقريبا وأنجب ولداً أسماه مغيض، ويدعون أبنائه بالمغايضة، أما خالد فاتجه إلى درعا وأنجب ولدين أسماهم الأول نجم ويدعون أبنائه بالنجوم، وأسمى الثاني محمود ويدعون أبنائه بالمحاميد.

ويروي سيف الدين العجلوني في كتابه (عيد الجلاء في حوران) ص (٤٦) - (٤٧) أثناء حديثه عن المحاميد ما يلي) عشيرة المحاميد كما يسمونها في حوران وبنوا حميدة كما يسمونها بشرق الأردن، وبوحد كما يطلق عليها في الفرات هي من العشائر الحورانية الكبرى القديمة بعروبتها، هبط لهذه البلاد ثلاثة أخوة قدموا من نجد، وهم علي وعمر وإبراهيم، وقد اتخذوا لهم مقراً في كرك الشوبك بشرق الأردن، وانتشرت ذريتهم في شرق الأردن وفلسطين وحوران والحجاز، ومنهم عشائر بدوية تقطن الخيام، ذات مكانة مرموقة بين العشائر يقيمون بشرق الأردن في أرض البلقاء والشوبك وفي أراضي الجزيرة والفرات، وأما المتحضرون، الذين يعملون بالفلاحة والصناعة فهم منتشرون الآن في مدينة درعا، نصيب، أم المياذن، صيدا، كحيل، جابر، النعيمة، عتمان، وفي فلسطين (المسمية، أم الفحم، صفوريا، جنين، دبوسية) وقد تحدر من هذه العشيرة رجال عديدون اشتهروا بالكرم والفروسية ولا سيما عشيرة الفرات وبنو حميدة والكرك.

عشيرة الحشيش

تنتسب عشيرة الحشيش إلى قبيلة شمر المشهورة، وتنتشر في العديد من البلدان والمدن في سورية وفي شرق الأردن، وتشمل الشامية في الأردن والسليمة في فلسطين، وفي محافظة درعا بلدة تل شهاب، وزيزون، والعجمي، والعباس في حمص (دير بعلبه).

وهم أبناء عم من أصل واحد؛ وينتسبون إلى عائلة آل علي أمراء حائل (١٤٨٩-١٨٣٤م) وأبناء عمومة آل رشيد أمراء حائل (١٨٣٤-١٩٢٢م) من قبيلة عبده من شمر، هاجر جدهم المسمى شاهر (والملقب صحن الأول) من حایل إلى قرية الطرة في حوران حوالي عام (١٧٠٠م) واستقر فيها لمدة عشر سنوات، ثم رحل حفيده شهاب بن محمد بن شاهر (صحن الاول) آل علي من الطرة إلى تل شهاب في عام (١٧١١م) وأقام منازل على أنقاض البلدة القديمة (التي سميت نسبة له)، وخلف حتمل والده شهاب، وعمل على إعادة بناء تل شهاب (تل الفخار سابقاً)، واستدعى أقاربه للإقامة في منطقته تحسباً من هجوم البدو، ثم توسعت عائلة آل شهاب إلى عمراوة والطرة وزيزون والعجمي، والمزيرب، حيث استقر أفرادها في المناطق المروية حتى اليوم.

وقد نسبت العائلة إلى جدهم (حشيش) واسمه إبراهيم بن عباس باشا بن شهاب بن حتمل بن شهاب بن محمد بن شاهر (صحن الاول) آل علي.

وقد خرج منهم فروع إلى:

١- قرية دير بعلبة من أعمال حمص، وهم آل نجيب العباس، أبناء عباس بن محمد بن حتمل بن شهاب بن محمد بن شاهر (صحن الاول) آل علي.

٢- قرية الأفرنج من أعمال الكرك بالأردن: وهم الشائلة أبناء حمد (عطوي) بن حتمل بن شهاب بن محمد بن شاهر (صحن الاول) آل علي.

٣- قرية الشجرة من أعمال طبريا بفلسطين: وهم السلايمة أبناء سليم بن صالح بن شهاب بن محمد بن شاهر (صحن الاول) آل علي.

وتجتمع أنساب الشائلة والسلايمة، عند جددهم الكبير شهاب بن محمد بن شاهر (صحن الاول) آل علي الذي رحل إلى تل شهاب عام (١٧١١) م وسميت نسبة له.

وكان عباس قد بنى قصر له في بلدة الطرة وسمي بقصر عباس، وبقيت أنقاضه موجود حتى بداية تسعينات القرن الماضي.

وعندما تقسمت الطرة كانت أنقاض القصر بأرض وحصّة ذبلان الحايك.

وأعطوا الطرة لأبناء عمومته من شمر من العلي الدرابسه، أهدهم قرية الطرة آنذاك لابن عمهم درباس، وكان لهم شرط عليه لم يشأ من زودنا بهذه الترجمة أن يذكره.

وقال أن أكثر من حاول سكان الطرة، وخصوصا الدرابسه، يبعثون لأبناء عمومتهم بأن الطرة فيها سند تملك من أيام العثمانيين باسم عباس، فردوا عليهم وجهاء عشيرة الحشيش (هذه عطية جدنا عطية شيوخ وهدية ما من وراها جزيه، وسجلوها وما نريد شي).

والدرابسه أبناء عم من العلي أتوا من حائل مباشرة، وجدير بالذكر أن أصل تسمية «الشمايلة» جاء بسبب انحدارهم من الشمال من تل شهاب.

وفي عهد الملك حسين بن طلال تم تغيير اسم قرية الشمايلة «الأفرنج» إلى «الشهاية» نسبةً إلى شهاب بن عباس بن محمد بن حتمل شاهر آل علي جد عائلات الشمايلة والسلايمة والحشيش والعباس. وأول عشيره سكنت تل شهاب ويزون العجمي هي عشيرة الحشيش.

اتى جد عشيرة الحشيش من السعوديه من حايل، وكان له قصر بمنطقة حايل، وكان جانب القصر سبع نخلات زرعن من زمن بعيد وسمين بالشيخات لطولهن ولعمرهن الكبير.

واتى جدهم شاهر من حايل وأشترى ستة قرى وهي: الطرة، وعمراره، وتل شهاب، ويزون، والعجمي، وثلاث قرية المزيريب.

وكلمة الحشيش لقب واسمه الصحيح إبراهيم بن عباس شهاب بن عباس بن حتمل بن شاهر (صحن الأول) بن محمد العلي عبده من شمر.

وعرف منهم الشيخ سعد العباس شهاب عباس بالشجاعه والرجولة، وقد ذكرت إحدى الصحف الاردنيه (ولم يذكر لنا المصدر أسم أو تاريخ صدور الصحيفة) أن ملكية تل شهاب تعود لعشيرة الحشيش، وكان سعد العباس على خلاف مع بعض عشائر الأردن بسبب دفاعه عن حقه وحق أهله، واستلم الشيخه من بعده ابن أخيه الشيخ إبراهيم، الشيخ محمد الحشيش ابو جبر، وكان ابو جبر رجل صلح وإصلاح على مستوى حوران والجولان والسويداء والأردن، والمنطقه

الجنوبيه بأكملها، وحصل خلاف بين حوارن الشرقيه والدروز باواخر القرن التاسع عشر. على حدود محافظة درعا والسويداء، وكان الحكم الذي فصل الخلاف بين الفريقين، هو المرحوم الشيخ محمد الحشيش (أبو جبر)، (الذي سنأتي على ذكره في كتابنا أعلام حوران من العلماء والشعراء والأعيان، إن شاء الله)، مع شيوخ ووجهاء من درعا، ووضع حدود من حجارة البازلت (سنسالة) ولا زالت ليومنا هذا تسمى (سنسالة محمد الحشيش) (أو الحدود التي وضعها الشيخ أبو جبر محمد الحشيش) وذلك بزمان الشيخ شبلي الأطرش ووجهاء وشيوخ السويداء ودرعا، وعرف الشيخ أبو جبر بكرمه ورجولته وشهامته توفي سنة (١٩١٤) رحمه الله تعالى وأحسن إليه.

وعرف من شيوخ ووجهاء العشيره:

عرسان مفلح الحشيش، وهو أول مختار لقرية تل شهاب، وهو الذي التقى الملك فيصل الأول ابن الشريف حسين، واجتمع هو ومشايخ ووجهاء وأعيان حوران على مدى عشرون يوماً في مقر إقامته في درعا المحطة .

وتسلم الشيخه القاضي الشيخ العارفة فندي الحشيش (أبو سليمان)، والذي عرف برجاحة عقله وقوة حجته ودهائه، وحسن تصرفه في كل الأمور، وكان قاضياً عشائرياً على مستوى جنوب سورية إلى مابعد جبال عجلون.

ويذكر أنه في بدايات القرن العشرين، قضى بقضية للملك عبدالله الأول، جرت بينه وبين إحدى عشائر الأردن إثر خلاف بعد قدومه لإمارة شرق الأردن.

ووقتها قال الملك عبدالله الأول، (هي لك يابن حشيش هي لك)، يعني القضاء العادل والرأي السديد والحلم والتحكيم الصحيح.

ويذكر أن قصة حصلت بين عشيرة الحشيش والنوري بن هزاع الشعلان (أبونواف)، وذلك حول المناطق التي كان يسكنها الحشيش، كونها مناطق رعي وكثيرة الينابيع، وتم حل الخلاف وقتها بين الحشيش والنوري الشعلان شيخ الروله، وكان ذلك بسبب رجاحة عقل الشيخ القاضي فندي الحشيش قبل وفاته. رحمه الله، توفي رحمه الله تعالى (١٩٤٢م).

وعرف منهم وجهاء الحمولة، الشيخ عقاب أحمد الحشيش (أبو شاهر)، الذي توفي سنة (١٩٥٠م).

وعرف منهم أيضاً الشيخ سليمان محمد الحشيش (أبو محمد) الذي توفي رحمه الله تعالى (١٩٥٥م).

وعرف منهم أيضاً المجاهد عوض محمد الحشيش، الذي شارك في معارك حوران ضد المحتلين الفرنسيين، ومنعهم من دخول زيزون لمدة سبع سنين، وزيزون لم تدفع مال وعشار لفرنسا حتى استشهد رحمه الله سنة (١٩٣٠م) إثر كمين نصب له من قبل قوات الاحتلال الفرنسي، بين تل شهاب والمزيريب، ويسمى المكان منطقة بابيص.

وعرف منهم أخيه المجاهد الشيخ ياسين محمد الحشيش (أبو سليمان) الذي قاوم وقاتل ضد المحتل الفرنسي وعاش حوالي ١٢٠ عام، شارك في كل المعارك ضد المحتل الفرنسي، وكان قائداً ومحارباً لا يشق له غبار، وكان رحمه الله صديق لقائد الثوره

السوريه سلطان باشا الأطرش وبعدها هاجر إلى السعوديه في حكم الملك عبد العزيز واستقر حوالي عشرون عامًا، وقابل الملك عبدالعزيز بن بن عبدالرحمن بن فيصل آل سعود رحمه الله أكثر من مره، وعندما قرر الرجوع إلى سوريه. عرض عليه الملك عبد العزيز مال وأرض بمنطقة الشمال السعودي، لكنه آثر الرجوع لأهله وبلده. وتوفي رحمه الله تعالى وأحسن إليه سنة (١٩٨١م).

وعرف منهم الشيخ ياسين العلي الحشيش (أبو أحمد)، الذي جاهد ضد المستعمر الفرنسي وشارك في معركة الدلي، وكان على تواصل وتنسيق مع الشيخ إسماعيل الترك الحريري، وكان بينه وبين اقربائه حلف وتواصل وتنسيق ومساعدته بكل شيء.

وعرف منهم الشيخ محمد مفلح الحشيش (أبو قاسم) حيث تسلم الشيخه، وعرف عنه الرجولة والشهامه وهو خريج مدارس اسطنبول، توفي (١٩٦٤م) رحمه الله تعالى.

وكان أخيه الشيخ فارس الحشيش (أبو عبد الكريم) وجيهاً مبعلاً، ورجل صلح وإصلاح، وقد سعى في الكثير من قضايا الإصلاح ذات البين في حوران، توفي رحمه الله تعالى سنة (١٩٨٧م) وعرف منهم الشيخ مطلق موسى أحمد الحشيش (أبو حسن).

وعرف منهم الشيخ أحمد ياسين الحشيش (أبو ناصر) خريج مدرسة التجهيز الأولى بدمشق، ألقى كلمه باللغه الفرنسيه سنة (١٩٣٦م) إبان قيام الثوره الفلسطينييه ضد الانجليز، وعرف عنه الكرم والشهامه وكان حافظاً للقرآن الكريم، وفي عام (١٩٧١م) اختاره مشايخ حوران لإلقاء كلمه حوران أمام رئيس

الجمهوريه وحشد من القيادات العسكرية، واجتمع أكثر من مره مع الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات، وكان داعماً للقضية الفلسطينية.

وعرف منهم الشيخ فواز جادالله محمد الحشيش (ابوفايز) ومحمد عطالله الحشيش (أبوسليمان) رحمهم الله تعالى.

وعرف منهم الشيخ عبد العزيز فارس (أبو كنان) وما زال على قيد الحياة يدير أمور العشيره حفظه الله ورعاه.

وسنذكر كل الأسماء التي ذكرت من آل الحشيش، وعدد آخر ممن كان لهم شأن في زمن الاحتلال الفرنسي وما بعده في كتابنا أعلام حوران بالتفصيل إن شاء الله.

وأعتذر من القارئ الكريم على الإطالة في سرد نسب آل الحشيش، والحديث عن بعض مشايخها، الذي كان بسبب إهتمام الشيخ عادل الحشيش (أبو فايز) بشأن عشيرته، وإلحاحه على ذكر مشايخهم وأنا أقدر له ذلك، هو من قدم لنا هذه المعلومات عن عشيرة الحشيش مشكورا، وكنت أتمنى أن يكون إهتمام كافة العشائر التي ذكرتها والتي تواصلت معها أو سمعوا بكتابي هذا، مثل إهتمام الشيخ عادل الحشيش حفظه الله ورعاه.

عشيرة العبيد

وهي عائلة قديمة من عشيرة زبيد الطائية الكهلانية القحطانية وهي من اعتق وانسب البيوت، وقد خرجت من اليمن في الجيل الثالث من تاريخ خروج الموجات العربية بعد انهيار سد مأرب وسميت بهذا الاسم نسبة الى وادي اليمن يقال له زبيد وقد سمي معن بن يزيد تيمنا بذلك الوادي واصبح الاسم الكامل زبيد بن معن بن عمر بن عنيزان بن سلامان بن عمر بن الغوث بن قطرة بن طيء - ومن زبيد هذا فرقتان زبيد الاكبر وهم زبيد الحجاز - وزبيد الاصغر واسمه منيه وعنه تفرع آل عبيد في مدينة منبج ما يعرف بالبوطوش وكذلك عبيد مدينة إزرع اولاد يوسف ويكن بأل عبيد ان فيهم الشيخ شبلي اليونس الطائي وهو من اكارم العبيد وشهائهم الذي لا يمكن لضييف الليل ان يتجاوز مضافته الى سواه ولا يضام له جار ولم يتخل عن من احتمى به وقد لمع صيته وسيرته الحسنة وهو لا يفرق ما بين ابناء عائلته وغيرها من العائلات عملا بقول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ﴿[الحجرات: ١٣]﴾.

- عشيرة العبيدات:

يرجع نسب عشيرة العبيدات إلى قبيلة عنزة، فخذ المشادقه من أولاد مفرج من ولد علي، من أولاد مسلم أكبر قبائل عنزة، واتفق المؤرخون والنسابة القدامى على أن الجد الجامع لقبيلة عنزة، هو وائل كما هو معروف لدى أبناء القبيلة وهي عدنانة الأصل.

عنزة من أبناء وائل بن قاسط بن هنب بن أفصي بن دتمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة وعنزة اليوم اسم يشمل كل قبائل ربيعة وخصوصا بكر وتغلب. وأن وائل الذي تتنسب إليه قبائل عنزه هو وائل بن قاسط بن أهنب بن جديله بن أسد بن ربيعة. وهو وائل ربيعة الشهير حيث لم يوجد عزوة غيره لربيعة من الجاهلية مروراً بصدر الإسلام حتى يومنا هذا.

يقول الباحث محمد عبد الله الرويلي بأنه قد توصل إلى أن قبيلة عنزة اليوم هي الامتداد الطبيعي لعشائر ربيعة وما زالت تحفظ أنها من وائل، ووائل هو وائل ربيعة الشهير (وائل بن قاسط بن هنب بن أفصي بن دتمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار) فكل عنزي اليوم هو (وائلي) وكل وائلي اليوم هو عنزي ولا فرق بين الاثنين لأن قبيلة عنزة القديمة دخلت في بكر بن وائل فصارت جزءاً من اللهازم البكرين، وكذلك دخلت قبائل بكر بن وائل وبطونها فيما بعد في عنزة وطغت عليهم، ويمكن القول أيضاً أن عنزة هو الجد الجامع لوائل لأنه العم الأكبر للوائليين وإليه نسبوا والكل يجمعهم الجد الأكبر أسد بن ربيعة (لا شك في ذلك ولا ريب) نزح جدا العبيدات، وهما الأخوان: عبيد وأحمد بعائليتهما وخدمهما من مدينة «ينبع» في الحجاز قرب المدينة المنورة إثر نزاع بينهما وبين أقاربهما، وفرا إلى بلدة «العلا» في الحجاز.

التحق بهم بعد مدة ثلاثة أخوهم - حمدان -، الذي يقال لأعقابه الآن عشيرة «الطيّار» من « ولد علي » ومحمد الذي رحل لاحقاً إلى طرابلس الغرب بليبيا، ويقال لأعقابه «الجعافرة»، ومصطفى الذي استوطن الطفيلة في جنوب الأردن ويقال لأعقابه «العبيديون»، أما أخوهم الأكبر «عبيدان» فقد ظل في بلاد الحجاز.

وفي كتابه، يذكر المؤرخ العنزي انتشار قبيلة العبيدات في الوطن العربي بقوله: «أما الذين ذهبوا إلى ليبيا فسكنوا منطقة الجبل الأخضر، حيث تنقسم عشائر العبيدات في ليبيا إلى عدة عائلات منها: عائلة «مريم» وعائلة «أبو جازية» وعائلة «العلالقة»، ويطلق على جميع هذه العائلات اسم «العبيدي». ونزح قسم من العلالقة إلى الإسكندرية، أما العبيدات في الحجاز فينسبون إلى الشيخ عبيدان الذي لم يهاجر إلى حوران مع أخويه الأصغر منه عبيد واحمد».

ويؤكد المؤرخ العربي عبد السلام حمد الحبوني، في ميزان كتابه «انساب قبائل العرب» على أن فرع العلالقة من عشيرة العبيدات الليبية، حيث - الداوودية - البدارنة - الرواجفة.

عشيرة المسالمة: من العائلات الكبيرة في حوران يتواجدون بشكل خاص في درعا (البلد - الكرك) وفي قرية معربة وبعض القرى الأخرى، أما أقرباؤهم فيتواجدون في شرق الأردن وفلسطين والمسمية وينتسب المسالمة إلى جدهم المسيحي كنعان الذي قدم إلى درعا مع أخوين وأخت، وعندما أسلم لقب أعقابه بالمسالمة وينسبهم البعض إلى العرق الآري^(١). واليوم يؤلف المسالمة عدة أفخاذ، منهم الخليفات وجدهم عبد الله كنعان - والجليلين وجدهم محمد بن كنعان - واللواحة وجدهم صالح بن كنعان والسلامات وجدهم عبد القادر بن كنعان والفوارعة. وجدهم أرشيد بن كنعان، العرابي وجدهم سليمان بن كنعان.

(١) عن مختار المسالمة بدرعا محمد المسالمة.

وهناك ما يسمون بالمسالمة الفوافة - يعود تاريخ تواجد المسالمة في حوران إلى بداية القرن الثامن عشر الميلادي، لقد قدم كنعان مع اخوين وأخت، هربا من غارات البدو ومرترقة الأكراد الذين كانوا يهاجمون سكان القرى ويرعبون أهلها، ويشردون أبناءها ويستبيحون حرمتها، لقد حط كنعان وأخوته الرحال في درعا، فأنزلوهم أهلها مكاناً آمناً، وعاملوهم معاملة طيبة، وشاء الله أن يهدي كنعان إلى الصراط المستقيم فيعلن إسلامه على الملأ، وازدادت مكانته بين أهل البلدة وهو المسيحي، الذي أصبح مسلماً، ثم تبعته أخته وأخاه الأصغر وأعلننا إسلامهما، فلم يبق سوى أخوه الأوسط الذي أثر أن يرحل بعد أن اسلم أخوته، وحط رحاله في قرية المسمية، حيث عرف هناك بالذرعاوي نسبة إلى أذرعاء، ولا يزال أحفاده في بالمسمية، أما كنعان فقد تزوج فتاة من درعا وانجبت ذرية تعرف اليوم بالمسالم، أما أخوه الأصغر فقد هاجر إلى فلسطين وأقام في دورا الخليل.

عشيرة السويدان:

وهي من العائلات الحورانية العريقة، ينتشر أفرادها في عدد من القرى الحورانية (بصرى الشام - معربة، الجيزة - السهوة - نوى - ازرع - محجة - فيق)، وغيرها وينتشر أقرباؤهم في حلب (آل محبوب وآل مكناسي) وفي منطقة حسيا وقارة (أحفاد عبد الحليم سويدان) وفي لبنان والاردن والسعودية والكويت وغيرها. قدم أجداد عائلة السويدان من الجزيرة العربية، الجوف، ينتسب آل سويدان إلى جدهم الأكبر (أحمد سويدان المكناسي) الذي يرجع بنسبه إلى جعفر الصادق ابن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي (عليه السلام).^(١)

(١) وثيقة صادرة عن محمد عقيل المكناسي، حلب، الحميدية، رسالة ما جستير، الدكتور علي يوسف البلخي، شجرة نسب آل البيت.

– عشيرة الخوالدة:

من العائلات الأصيلة التي سكنت حوران منذ أكثر من مئتي سنة تنتسب إلى قبيلة بني مخزوم، وهي بطن من قريش وهذه قبيلة سيف الله المسلول خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وبنو مخزوم من أكثر قريش بقية وأشرفهم جاهلية، ومن بني مخزوم جماعة موجودة في اقطار عربية متفرقة مثل سورية. الأردن. مصر، السودان، ومن بعد خالد وما حققه من فتوحات ونصر للاسلام وشرفا لخالد وشهرته بهذه القبيلة سميت بعد بقبيلة خالد او الخوالدة وقبيلة بني خالد إحدى قبائل بادية شرقي الأردن ينزل معظمها حول الرمثا وتقسم إلى ثلاثة بطون، الجبور، الصبحات، الفهود.^(١)

أما خوالدة حوران فيتمون الى بطن الصبحات، وهو بطن من بني خالد المقيمين بشمال شرقي الأردن ويتألف من الافخاذ التالية: (العطنة – النمنا – المسيعيد – الفطمة – البطحة – العثمان – الصلمحين – الفروان).

هاجر الخوالدة من الجزيرة العربية (الحسا والقطيف) إلى جبل حوران في بداية الأمر ثم انتقلوا إلى قرية الجيب، ومن ثم الى قرية نامر ثم إلى قرية الغرية وأخيراً استقروا في قرية السهوة، أما أقرباؤهم فيتواجدون في حمص.

عائلة البريدي:

قدم أجداد هذه العائلة من قرية بريدا في الحجاز، ينتشر أفراد هذه العائلة في عدد من قرى حوران (الجولان) (كفرسبت جباب، عتمان، جملة، درعا) (عائلة أبو اصبع) قدم ثلاثة أخوة (صالح – مناع – فرحات) من عائلة شبيب من قبيلة

(١) معجم قبائل العرب القديمة والحديثة.

الامرة من بني مخزوم وكانوا قد تنقلوا بين عدد من القرى فسكنوا في كفرسبت ثم ارتحلوا الى سعسع وجباب والسيلة في الاردن فعتمان وشفوم بالقرب من طبريا وكذلك حثيل.

الغساسنة: تنتسب هذه القبيلة إلى جداهم جفنة، لذا يدعون بنو جفنة، أو آل جفنة، وهي أحد بطون الأزد من كهلان، موطنها الأصلي اليمن، ثم نزلت على ماء في تهامة يقال له (غسان) فحملت هذا الاسم وأصبحت تعرف بالغساسنة، ثم ارتحلت إلى بلاد الشام واعتنقوا النصرانية ودخلوا تحت الحماية البيزنطية، وتمكنوا من أخذ الحكم من أبناء عمهم (الضجاجة) وأقاموا مملكة الغساسنة بالشام التي دامت (ستماية سنة وست عشر) حكم خلالها سبعة وثلاثون ملكاً، آخرهم جبلة بن الأيهم كما ذكرنا سابقاً.

وانتشر أحفادهم في كافة أرجاء حوران الطبيعة (عجلون، جرش، إربد الكرك، السلط، البلقاء، درعا، السويداء) وبعد الفتح الإسلامي لحوران دخل العديد منهم الدين الإسلامي، بينما بقي الكثيرون على دينهم، وقد استقر قسم كبير منهم في صلخد وما حولها، وفي منتصف القرن السابع عشر (١٦٥٦م) بدأت هجرتهم من صلخد الى قرى خب وبصير وتبنة والى شرق الأردن ولبنان وغيرها.

أما العائلات الحورانية المتواجدة حالياً والتي تنتسب إلى الغساسنة فتنتشر في قرى خب وبصير وتبنة ومدينة درعا ورخم وغيرها وأهمها: آل مهنا، وعائلة آل فلوح، عائلة آل سليمان، عائلة العياصرة - بصير، عائلة الذيب، عائلة الخوري، عائلة الفريجات، عائلة قريط، عائلة الدهيم (خب) عائلة آل حاتم، عائلة العجوري الخلاف، والبدوي (بصير وخب) وعائلة العيد (بصير) وعائلة الشاناعات (تبنة وخب)، عائلة الريشان وعائلة نصر الله (إزرع)، عائلة البشارة (خربا، درعا)

عائلة صوان، عائلة الحداد، عائلة العكة، عائلة آل الخازن، عائلة الزراعنة، عائلة المعلوف.

العائلات الحمصية: قدم اجداد هذه العائلات من قرى متفرقة من منطقة حمص وما يجاورها على شكل جماعات وافراد في الفترة ما بين (١٨٧٠ - ١٩١٢م) من القرى التالية البيطرية - نصاف - عكاير - كفرلاها - بعرين - بيت عرعر) وغيرها وقد انتشرت هذه العائلات في مختلف القرى الحورانية.

عائلة السرية (جباب)، الحمصي (اليادودة) - الحمصي والبزم (جملة) - القصير والسلمان (جمرين) - الحمصي (درعا، السهرة) - السلوم والسلمان والخضر واليحيى ومستو الشربة (غصم) - السعدي والحموي والعقيدى والصقر والداود والكردي (معربة) - الحمصي (الشيخ مسكين) - الخطاب (جباب) - الصنمين.

والاسباب لهجرة هذه العائلات كثيرة منها: الخلافات العائلية والطائفية - الهروب من بطش الدولة العثمانية والتجنيد الاجباري والبحث عن مصدر رزق وغيرها.

العائلات المصرية: قدم أجداد هذه العائلات من مصر على شكل جماعات وأفراد ويمكن تقسيم هذه العائلات الى قسمين:

١ - عائلات جاء أجدادها على شكل جماعات هاجرت إلى فلسطين، ثم إلى حوران، حيث استقرت أخيراً، وذلك ما بين (١٨٢٠ - ١٨٢٨م) أي قبل حملة إبراهيم باشا.

٢ - عائلات قدم جدودها كجنود في حملة إبراهيم باشا على بلاد الشام واستقروا في حوران ما بين (١٨٣٣ - ١٨٤٠م). وبعد اندحار قواته وتفتت جيشه

بقي قسم كبير من هؤلاء الجنود في حوران حيث تزاجوا مع السكان المحليين وانخرطوا في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الحورانية.

ولا بد أن ندرك أنه لا توجد روابط بين معظم العائلات المصرية المنتشرة في قرى حوران، كونهم قدم أجدادهم من مناطق مختلفة من مصر (طنطا - الاسكندرية - القاهرة - الصعيد) كما جاء قسم آخر من السودان الذي كان ولاية مصرية آنذاك.

ينتشر أفراد العائلات المصرية في معظم القرى الحورانية وشرقي الأردن وفلسطين، وأهم هذه العائلات: عائلة المصري (درعا - عتمان - داعل - الحراك - نوى - خربة غزالة - الشيخ مسكين - الصنمين - انخل) وغيرها.

- عائلات المصاروة (درعا - عتمان - داعل وغيرها).

- عائلة لبوشي (الحريك).

- عائلة الغوطاني (الحراك).

- عائلة الاصفر (درعا).

- عائلة ابو رجب (تسيل، نافعة).

- عائلة ابو العيلة (ابو العلا كوهية) - (تسيل).

- عائلة الزعبوط (جباب).

- عائلة الاحمد، عائلة السالم (جباب).

- عائلة العاشور (جباب).

- عائلة الصعيدي (جاسم - جباب - والشيخ سعد) ولا تخلو قرية أو مدينة في سوريا إلا وفيها عائلات مصرية.

العائلات الكردية: يعتقد أن أجداد هذه العائلات قدموا إلى حوران على ثلاث دفعات.

١- قسم قديم جاء مع جيش صلاح الدين الايوبي.

٢- قسم جاء من جبال الأكراد نتيجة خلافات عائلية ومذهبية أثناء الحكم العثماني.

٣- قسم جاء على شكل هجرات عمل جماعية وإفرادية، وقد انتشروا في مختلف قرى حوران وشرقي الأردن. واستقر قسم كبير منهم في مدينة درعا البلد وقرية معربة وقرية الصورة والمسيفرة وقرية جملة ومدينة إنخل والحراك والجيزة.

أما من حيث نسب الأكراد فيعتقد أنهم من نسل عمرو مزيقياء، جدهم كرد بن عمرو مزيقياء، ويقول البعض أنهم من ربيعة بن نزار، انفردوا في قديم الزمان واستقروا في الجبال والأودية، وقد جاوروا الفرس وصارت لغتهم أعجمية، ويقول البعض الآخر أنهم من مضر بن نزار، وأنهم من كرد بن مرد بن صعصعة من هوازن، وقد قال أحد النساين الكبار فيهم:

لعمرك ما الأكراد أبناء فارس ولكنه كرد بن عمر بن عامر

وينتسب الأكراد في حوران إلى عدة عائلات كردية مختلفة: مللي - شيخاني - عموه، الكوسا العنتبلي - السادات - برازي - محمده - الغباري - ويعتقد أن الهجرات الكردية إلى حوران ابتدأت منذ عام (١٠٩٣م).

العائلات التركمانية: وهم أتراك يتسبون إلى القبائل الرحل (قاراتا كالي) النازلة في ولاية أزمير التركية وقد وقع خصام بينها عام (١٨٧٠م) أدى إلى هجرة بعض العائلات منها إلى ولاية اضنة ثم تابعت هجراتها إلى انطاكية فحمص والقنيطرة وحوران وحيثا في عام (١٨٤٧م) إرتحل قسم من البلقاء وأم الرمان، ويعتقد أن قسماً منهم جاء من منطقة تركمانستان، وقد قدمت أولى المهجرات التركمانية إلى حوران في عام (١٠٦٥م) واستقر أفرادها في مختلف قرى حوران: (القزحلي (في جباب) - العلوة (في انخل) - التركمان (في الحريك) - العباس الهويدي (في معربة) التركماني (في السهوة) التركماني (في الشيخ مسكين) ..

قبيلة عنزة: يعود نسب عنزة إلى وائل بن قاسط بن أقصي بن دغمي بن جديله بن ربيعة بن نزار بن معد ثم إلى عدنان ثم إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وتنقسم القبيلة إلى قسمين - بشر - ضنا مسلم.....

لقد هاجرت أقسام متعددة من قبائل عنزة إلى بلاد الشام من الجزيرة العربية، وذلك على دفعات متتالية وخلال فترات زمنية، ولعل السبب الأساسي لهذه المهجرات كان الخلافات بين القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية والبحث المستمر عن الماء والكلاء، ويعتقد أن الهجرة الأولى كانت عام (٩٥٠م) والثانية (١٠٣٠م) والثالثة في عام (١٢٣٠م) والرابعة في العهد العثماني (١٦٥٠م)، وقد دخل أفراد عشيرة الولد علي إلى حوران في عام (١٧٦١م)، أما عشيرة الرولة، فقد دخلت إلى حوران في عام (١٨١٠م) أثناء اجتياح الوهابيين لحوران.

وبعد استيطانهم تحولوا من حياة البداوة إلى حياة الحضر، ومارسوا الزراعة واستقروا في معظم القرى الحورانية، وأهم العائلات التي تنتسب إلى قبيلة عنزة (آل النصيرات، عائلة العبود «نصيرات») عائلة الزامل - عائلة العساف - عائلة العساكرة - عائلة السوالمه - عائلة الجاموس - عائلة حمادي - عائلة النواصرة - عائلة الحايك (طفس) - عائلة الناصر (إنخل) - عائلة العياش (كحيل، درعا، ابطع، جرين) - عائلة الشوكة (إزرع) - عائلة البرم (الجيزة، صيدا) - عائلة الوطبان (غصم) - عائلة الرواس (قرية سميع) - عائلة النميري (تل شهاب علما، تسيل، عين ذكر، جلين، عدوان، جباب) - عشائر جبل حوران: يسمون بالجبيلات أو عربان الجبل ويصنفون بالاعتماد على عددهم إلى العشائر التالية:

١- المساعيد: سكنوا في جبل حوران قبل عام (١١١٢هـ) يعتبر المساعيد من أكبر عشائر جبل حوران وأغناها، ويعتقد أن أصلهم من العراق.

٢- الحسن: سكنوا الجبل في العصر الجاهلي وكانوا على صلة مع أمراء بني غسان، يتنقلون بين منطقة تل الأصفر الشمالي وبئر قصب والقرا (شتاء) وقرى الهيت وشهبا وعراجة والبثينة شرقي وادي اللوا.

٣- الشرافات: يعتقد أن أصلهم من العراق مثل عشيرة المساعيد، يقيمون في الصيف في المقرن الشرقي وفي قرية ساله ويشتون في الحماد في أرض الجبانة وتل الأصفر الجنوبي، وحتى منطقة تل الأزرق في شرق الأردن.

٤- العظامات: يعتقد أن أصلهم من العراق، يشتون في أرض الجبانة، ويصيفون في جنوبي الجبل حول امتان وأم الرمان وعنز ومشقون والقارية وحول أم القطين.

٥- السردية: من أجل عشائر المنطقة وأكرمها، ونسبهم البعض إلى عشيرة بني صخر الأردنية، وقد تغلبوا على عشيرة السرحان التي كانت اقوى عشائر حوران في القرن العاشر وانتزعوا منها السيادة فرحلت من الخوف وفي فترة لاحقة تغلبت عشيرة العنزة (الولد علي) على السردية فنزح قسم كبير منهم الى غور بيسان، اما البقية فنزحت الى البلقاء في شرقي الاردن، ويقيمون في قريتي صبحه وصبحية اللتين تقعان بين ام الجمال وام القطين، كما يشتون في ارض الجبانة وقرب الازرق وقربات الملح.

٦- الريدات: فرقة من عشيرة العظامات يعرفون محليا (بالمداحلة) وينزلون في حوران حول قرية خربا وعري والحبيب.

٧- الغانم: فرقة من عشيرة المساعيد، يقطنون حول قرية سالة وطربامن مشاريق الجبل ويشتون في الجبل في وادي الراجل.

عشائر حوران:

١- قضاء درعا (فصائل من الرولة ولواحقها - الورعان - وادي الزبيدي - الكواجبة - في أرض بصرى الشام - الأشاجعة في أم المياذن - السوالمه في قرى وادي الزبيدي - العظامات والجوابرة والسرية والمساعد والعيسى - سهول حوران في الصيف - النعيم في بصرى الشام والطيبة والمسيفرة - السلوك فرقة الشرعة في قرية غصم والكرك.

٢- قضاء إزرع: النعيم في ازرع الغربية - الجيدور - من فرقههم البكار والوهبان - قسم من الأبي عيد إحدى عشائر حمص المعدودين من الاحسنة ينزلون في قرية

نوى - الحروك - الى قرية ام العوسج وزمرين والحارة - قسم من الدجمان وهي احدى فرق الولد علي - السلوط من اشهر عشائر قضاء ازرع يسكنون في وعرة اللجاة - يعيش السلوط حول خراب المسمية - وشعاره وكريم وايب ومليحة حزقيل وقلعة سماه والزباير وصور اللجاة وعاصم الزيتون وحامر العلق، وينقسم السلوط الى: السلوط القبليون (بني حمد) في الجنوب الغربي من اللجاة وهم عدة افخاذ منهم العوران لأسرة الشيوخ والمدالجة والعتابقة والفواخرة والضبوب والرماح واللزوق الذين ينزلون في غصم والجيزة ومحجة والكرك، أما السلوط الشماليون (بني عمر) في الشمال الغربي من اللجاة حول خرب المسمية وشعاره وكريم واهم افخاذهم: المراشدة - الحجر - الزعران - الصوابرة - السيالة.

٣- قضاء الزوية: يتواجد فيه عدة عشائر بدوية منها: العنزة - عربان الديرة - اما العشائر البدوية المتحضرة فهي الدياب والفحيلة والمناظرة والتلاوية والكلايات.

عشائر الجولان:

عشيرة آل الفضل وهي كبيرة ذوات الفرع والزرع - نصف أفرادها مستقر يحرث ويزرع ويسكن في بيوت حجرية، وقد تشعبت آل فضل إلى عدة فروع أكبرها آل عيسى من فروعها: آل مهنا بن عيسى - آل أبو بيشة - آل فضل بن عيسى، أما الفرق الأساسية الأصيلة من الفضل منهم: الهلالات - العطيرات الشماسبة - البلاجسة - النبهان - الكيار - الفنوص - الربيع - الشراعبة - المناذلة - الحمالة - الربايعة - الحمدان - الكواشية - ويسكنون غرب القنيطرة إلى الشمال في المزارع

والخراب كالواسط - وتل جيات - وقطرانة - وعين الحجل - اسكيك - سماقيه -
وعين حور - عين حمرا - رعبنة - باب الهوا.

عشيرة آل نعيم:

وهي كبيرة كثيرة الفروع والمنازل تنتشر في كل مكان من بلاد الشام. يوجد
قسم منها في دمشق وقطنا والقنيطرة وهم اعقاب عز الدين ابو حمرة الهاشمي الذي
يرتبط بالشيخ احمد الرفاعي - وقد نزحوا من العراق الى الجولان في القرن الحادي
عشر، وهم فرعان:

- ١- مستقر اهم فرقة - البونمي - الخاشق - العويشات - الفواخرة -
السبارحة - العزة - الوهبان - البكار - الشقاقين - البوعاصي - الرميلات -
الخانحة - السياد - الهوارين - السنيد - النعيمات - النعاولة.
- ٢- الرحالة: وهي متنقلة متباعدة عن بعضها البعض وأهمها النميرات -
الرميلات - البين - الخذييات - الشقاقين - المعدين - عتبة - الشراحيل - المجايلة -
المراحيل يسكنون في قضاء وادي العجم حول قرية صبرور - الطيبة - الدرخبية -
- سعسع - دير علي - كناكر - دير ماكر - حرث - سبسبا - ماعص - الزريقة -
دناجي.

عشيرة اللهيب:

يأتي قسم منها الى الجولان من منازلهم في الحولة الفلسطينية وقد التحق قسم
منهم بعشائر الجولان كالعجارمة ويشتون بالقرب من جسر بنات يعقوب وضاف
الحولة - اما فرقهم فهي العيطة والرصافنة، أما عشائر الجولان الصغيرة فهي المرازقة

من قرية دبورة والويسية في قرى حرابا والمجامع وفاخورة وسنابر وعلمين ومريدية والكبايرة من قصيبة والجهاتين في سلوقية وبيرة ويهودية وطار الغزال والمنافي في نبع الصخر ومجدولة وعين الباشا والقصيرين في صلبا ووحشرة والنوافية والسبارجة في معلق وفزارة وعشائر صغيرة أخرى كالطوايف والطرشان والحزوميين.

مع ظهور اليقظة العربية، تهيأت حوران للتخلص من عسف الولاة العثمانيين وحكمهم وفي عام (١٩٠١م) زمن السلطان عبد الحميد الثاني، بدئ بمد الخط الحديدي الحجازي، فأقيمت في درعا المحطة الحالية، وهي تشكل حيا من أحياء درعا الحديثة. وزعت المحطات في القرى التي تمر منها السكة الحديدية وهي: المسمية (على الطريق الرومانية القديمة بين بصرى ودمشق) (جباب - خيب - محجة - إزرع - خربة غزالة).

مفكرون من حوران في العصر الروماني:

لم تكن مساهمة المفكرين السوريين العرب ضئيلة في مجال الفلسفة وخاصة فيما يتعلق بالافلاطونية الحديثة فظهر فلاسفة من صيد وصور وافاميا وكذلك ظهر في حوران فيلسوف افلاطوني حديث هو:

بور فيروس: ولد عام (٢٣٣م) في بثنية (المنطقة الجنوبية في حوران والاسم هو الصيغة اليونانية لكلمة باشان القديمة ودرس بمدينة صور وبعد ذلك في أثينا حيث بدل معلمه لونجينوس اسمه السامي (ملك) إلى إسم يوناني هو بور فيروس (المكسو باورجوان الملكي).

وقد جذبته شهرة بلوتينوس إلى روما حيث تخصص بالأفلاطونية الحديثة لمدة ست سنوات وقد سكن وعلم في روما إلى أن توفي عام (٣٠٥م) وحين كان فيها نشر كتاب أستاذه واسمه (التاسوعات) ولولا بورفيروس لما كان بلوتينوس سوى مجرد أسم.

وكان بورفيروس مؤلفا خصب الابداع والانتاج في الفلسفة والنحو البلاغة والرياضيات وعلم النفس والموسيقا ومبادئ النباتين.

وكان يعتبر الرجل العالم بين الافلاطونيين الحديثين وكان يقول في تعاليمه بوجود العقل لدى الحيوانات ولكنه لم يعتقد بانتقال الأرواح البشرية إلى أجسامهم. وكان يذهب في تنقية الروح إلى أبعد من بلوتينيوس فيطالب ببعض أعمال التقشف مثل العزوبة والامتناع عن أكل اللحم وعدم حضور الحفلات وأماكن التسلية.

وفي عام (٤٤٨م) في عهد تيودوريوس الثاني أحرقت أكثر مؤلفاته بصورة علنية ومنها رسالة ضد النصارى .

الآلات الموسيقية التي تستعمل بأداء اللحن:

-الرباب: آله معروفة من نوع الوترية، تصلح لتلحين كافة أنواع الشعر، ونادراً ما كانت تخلو منها مضافة في حوران.

-المجوز: من آلات النفخ، وأكثر ما يستعمل في الدبكات والرقصات الشعبية

-الشبابة: آلة نفخ بشكل أنبوب قصير مثقب من الخشب أو المعدن واستعملها كاستعمال المجوز.

-الدف: منه ما هو ذو حجم كبير وموشى بالرسوم والتعاويد يدعى (المزهر) ويستعمل في حضرات اصحاب الطرائق الصوفية، كما ترافقه غالبا الصنجات النحاسية المعروفة ومنه العادي ذوالحجم المتوسط وإن الشعر هو الينبوع الذي يستقي منه الناس مادة حلقاتهم ومجالسهم وأفراحهم وأحزانهم، ليلحن عبر آلاتهم المتواضعة.

أ- الشعر القديم ذكر صاحب تاريخ أداب اللغة العربية أن هناك شعراً نشأ في العصر المغولي وكانوا يغنونه ويسمونه الغناء (الهوراني) نسبة إلى حوران، وذكر ابن خلدون هذا الشعر، وأورد أمثلة عنه في مقدمته ومن ذلك قول شاعرهم الشريف ابن هاشم: يبكي الجارية بنت سرحان في قصيدة مطلعها:

قال الشريف بن هاشم علي ترى كبدي حراً من زفيرها

ومن هذا القبيل مطلع لشاعر آخر:

تقول فتاة الحي سعدة وهاضها لها في طعون الباكين عويل

أيا سائي عن قبر الزناتي خليفة خذ النعت حتى لا تكون هيل

أنواع الشعر: وأغراضه قديماً لعل أهم أنواع الشعر في حوران هي: الشروقي - الموال - الزجل - المقطعات، أما أغراضه، فلا خلاف بينها وبين الأغراض العامة للشعر العربي من مديح وهجاء ورناء وغزل وحماسة.

-الشروقي:

يعني مجموع القصائد التي تؤدي على الرباب والتي تمثل الشعر النبطي، وسميت كذلك لأنها جاءت من الشرق، والشروقي من أكثر النماذج شيوعاً لأن

معظمها يتضمن معان رفيعة تخلص عصارة التجربة والخبرة لدى أصحابها، وهي لا تقتصر على موضوع خاص وإنما تعدد فيها الأغراض، فقد يلتقي فيها المديح والحكمة والغزل...

ميزات قصائد الشروقي:

- ١ - وحدة القافية في كلا الشطرين.
- ٢ - وحدة الوزن في كلا الشطرين.
- ٣ - تعدد الأغراض في القصيدة الواحدة واعتمادها على المفاجأة في المغزى.
- ٤ - أكثر هذه القصائد تعتمد إبراز الشجاعة أو الكرم لدى سيد عظيم أو عبد مغمور، وليس ثمة من حالة وسط.

والنص التالي يوضح هذه الميزات وقد اجتزأنا من قصيدة طويلة معظمها في الفخر والحماسة، وفيها يفتخر الشاعر (عودة الراضي) من قرية السماقيات (ناحية بصرى) بشجاعة أهل حوران ويتحدى خصومهم البدو الشماليين بزعامه حديثة الخريشة (قرب مأدبا في الأردن) حوالي عام (١٩١٨م) حيث يقول:

ياراكباً من فوق وفي الخصال
أروج وخذي للخريشة قراطيس
سلم على الي يكسرون الدبايل^(١)
ومن فوق صخر محميات المتاريس^(٢)
لا صار بالجليلين قيل وقايل
حس الموازر^(٣) مثل طق النحاحيس^(٤)

(١) الدبايل جمع دبلة وهي الكبرياء.

(٢) محميات - جريئات.

(٣) الموازر - المدافع.

(٤) النحاحيس - السلايل.

ييجوك اهل حوران فوق السلايل^(١) خيالة الوادي رباق الغناطيس^(٢)
عاداتهم بالكون يرووا الغلايل يحطو على كبد المعادي محاميس^(٣)

وله أيضًا قصيدة تعكس واقع الظلم الولاة وتسלט الجبابة على أصحاب الأرض مطلعها:

أبتدي بذكر مولانا الودود الواحد المعبود خلاق الأنام

القسم الأول منها باقة من النصائح والحكم ودعوة الإنسان للتواضع لإن الإنسان مهما ارتفع وسما فلا بد من له السقوط.

وقد يكون السقوط شديدًا. أما القسم الثاني فيتحدث فيها عن الغرض الأساسي:

الموسم الي فات مانلناش فود^(٤) من خصوص الدين حطيناها كوام^(٥)
نوخد الصاعين باربع مدود اربع وعشرين شهرًا باستلام
والسنة جونا عملات كالجرود^(٦) العرب والفلاح ويتلاهم شوام
مقشمرين وكاشفين عن زنود يوخد المدين حق ذراع خام
راحن الحببات وماليهن ردود والطرش ما سد دين أول العام

(١) يعني الخيول الاصيلة.

(٢) رباق الغناطيس - ربق الحسنات.

(٣) جمع محماسة وهي ما يحمص بها القهوة كناية عن الثأر.

(٤) تعني فائدة.

(٥) واضح ان اللهجة عامية.

(٦) الجراد.

إن حكيت للناس كلهم لي شهود وتخربت دور النصارى والإسلام
أختم كلامي بنبي الله محمود يشفع للإسلام في يوم الزحام

وللشاعر عروة الراضي قصيدة في الحكمة وهي طويلة، نظم فيها لكل حرف من الحروف الهجائية بيتين من الشعر، ويبدو أن هذا الفن (التشطير) قد تجاوز الشعر الفصيح إلى الشعر العامي فوجد بعض الشعراء فيه سوقاً لإظهار ذكائهم وتبيان مقدرتهم، وقد اخترنا منها الأبيات المنظومة على حرف الجيم والحاء والخاء والطاء والضاد - لا لأنها أجود الأبيات بل لأنها أسهلها لفظاً.

الجيم جارك لو جافاك أحسن له	تنول الرضا من واحد ديان
جارك لو يجور لا تقسوبه	وصى به سيد ولد عدنان
الحاء حب أهل التقى واصحبهم	وخلك وثيق بهم رغبان
أبعد عن المثبور لا تدني له	ووصيتي خلک له فطنان
الخاء خالف زوجتك وشوارها	ما خاب الي يحالف النسوان
من طاعهن بالشوار يحسب منهن	ويعمل عما يلهن بكل أوان
الطاء طوبى للفتى المتواضع	طوبى له من كل انسان
مالك ومال الجاهلين بجهلهم	ومالك مال فلان وعلتان
الضاد ضيفك احتفل باكرامه	أضحك بوجهه لا تكون غضبان
الضيف حقه عالمعزب واجبة	ويا عز عبد يكرم الضيفان

وفي المدح نعرض مقطعاً من قصيدة طويلة قالها شاب يدعى (الظلماري) تبناه عبده الرشيد حاكم حایل وشيخ عرب شمر مخاطباً الأمير: وهي تمثل الشعر الحوراني، وهي رائجة ومستساغة ولكننا لسنا متأكدين من نسبتها:

يا بواليتامي والعمى والمحاديث^(١) يا عز من صار العصا ثالثاً له
تملى محاليب وتكفى محاليب كيد تيسها وكيد تبلا
بكل ديرة ينقرلك مكاتيب ما هي محبة يا مسنده ما تذله
إفطن لروحك يا قليل العذاريب ولو تستحي ما تجمع الطيب كله

أما في الغزل فحسبنا ان ثبت بعض الابيات التي قالها الشاعر عبد الحميد مطلق الخالدي في هذا المقام. على اعتبار أن الغزل بعامه ساذج بريء ينقل آهات الحرمان ويصطنع الدموع لتأكيد الشوق والتحرق للقاء. وما أكثر القصص التي تروي عن محب لم يتزوج بمن أحب وفتاة تزوجت ممن تكره بسب التقاليد والاعراف الموروثة. وليس له أولها إلا التسرية عن النفس بالقصيد.

هذا المقطع من قصيدة يصلح للشروقي والغزل:

هلن دموعي بللواني ثيابي من يوم باقوني هلي وحبابي
ما أدري العوالم بالهرج تنخاهم وإلا الحسود كاتبنا حجاب
لحلف يمين باله الناس أن كنتم نسيتموا ماني ناسي
سبحان خالق جميع لجناس ولفي قمر والخلق نجم وغاب
الطول عود الزان بيد الغازي يلي جبينك يلمع لمع الغازي

(١) الشيوخ الكبار في السن المحببة ظهورهم.

بنيران قلبي زايده بوزوازي ما من صديق الي يطفى الهاب

أما الموال: وهو عبارة عن بيتين تتوافق القافية في الشطرات الثلاثة الأولى. وتختلف في الشطرة الأخيرة.

ويعتمد الموال على الجناس في القوافي المتوافقة. أما موضوع الموال فأكثر ما يكون في الغزل أو الحنين والتحدث عن ألم الشوق والفراق والوداع. وقد اخترنا نماذج من هذا النوع:

أ- آني لا أسوح بالدنيا خلاوي	مثل الذيب لا جوجع خلاوي
ياربي لا تخليني خلاوي	تبعث لي وليف من السما
ب- يا طولك طول الزان لا مال	وشعرك عذب الجدال لا مال
وأبوك ما قبل لاذهب ولا مال	وكيف الرآي عندك والجواب
ج- يا طولك طول عود الحور والميس	ورابي في فلا الجولان والميس
إيدك عل النهدين والميس	حرير من العجم توولفا

الزجل الحوراني القديم:

الزجل الحوراني هو المعروف باسم (الفن) وطريقة أدائه أن يصطف ثلاثة رجال أو أربعة أحدهم ينفرد بأداء المقطوعة والآخرين يرددون المقطع الأول والجميع يسرون سيرًا منتظمًا بطيئًا في أرض المكان، بينما يسيطر الصمت على الحاضرين رجالًا ونساء، ويجري ذلك في غرفة العريس والعروس بعد الدخلة، كما لا ترافقه أية موسيقا، ومن المتفق عليه ألا يشارك في أداء هذا اللون إلا الشباب، ويسمون (الجهال) أما الشيخ فيربأ بنفسه أن ينزلق في حلبة الفن، إلا اذا كان شيخًا

متصايًا (مشبها) ومثل هذا الشيخ يطلق عليه صفة (فسقان) وهي من الفسوق وتقارب كلمة (عابث) بالفصحى و(فاضي لحاله) بالعامية. وما يتناوله الشروقي يرد في الزجل، وتختلط فيه الاغراض باستثناء المطلع التقليدي (كالصلاة على النبي) ويتصف الزجل بالمبالغة والتشطير والمحسنات البديعية الأخرى، وبعضه ما يروق أسلوبه ويسمو معناه، وبعضه الآخر على عكس ذلك، وسأدرج بعض النماذج:

قال قاسم الخن^(١)

النموذج الأول:

يا بدر يار فيع الشان	جل الذي في حبكم أنشان
يحق لك تتوشح بصارم	وتحط في وسط الصدر نيشان
يحق لك تتوشح بصارم	وتصير عولاد الذكا صارم
يا ما غرامك حير الصارم	
يا بوعيون ملاح	قلبي طفـر منك
وخـدودك التفـاح	يا ما حلوشمك
برقـا تلجلـج لاح	يوما ضحك سنك
ريقك عسل سلساح	قـطر الشـهد منك
محبوب عيني راح مالو شان	

(١) الرواية منسوبة للشيخ محمود النصر الله من قرية غصم.

النموذج الثاني:

مكونها برًا وبحار
ويعجز فيها تعجيز (يقصد هتلر)
أغنام وفيهم جزار
يا لابس طقم البوال
وحياتك شغلت البال
أنا أسلي القلب المهموم
ما يسلاكم دايماً دوم
من ها السنة الرديّة
وأكل لنا الزرعيرة

أ - با سمك يا مكون الأقطار
بلاد فيها الانكليز
يا فرنسا بعركة باريس
ب - حاجة تروح وتمايل
خليت الفكر مشغول
ج - ملزوم أغني ملزوم
فكري وعقلي يا غالي
قلبي الهيه يا الهيه
من يوم أتانا الفأر

أما عن الهجرة والغربة:

كل من قضب له نية
من قبل ما يفكوا الريق
وصلوا بلاد الجوفية
وبحيفاً ليههم نصيب
على يافا العديّة

اعيال السهوه شطار
الي شرقوا تشريق
الي يغمى والي يفيق
والي غربوا تغريب
وصلو على بلاد الطيب

أما عن الذكريات:

بأمر الرب المتعال
يارب تشفق عليه

المعلم صاير فعال
يا الله يا مفرق الأحمال

يا ربي تبدل هالحال الرديّة بأحسن حال
بشوف الدهر ميسال مثل ميزان الميعة

حوران والشعر:

عرفنا سابقاً أن بصرى مدينة الآثار الشهيرة، فقد عرفها ياقوت الحموي بأنها
قصبة كورة حوران وذكر أنها مشهورة عند العرب قديماً وحديثاً، وأضاف بأن
ذكرها قد ورد كثيراً في الشعر كقول أعرابي:

أيا رفقة من آل بصرى تحملوا رسالة لقيت من رفقه رشدا
إذا ما وصلتكم سالمين فبلغوا تحية من قد ظن أن لا يرى نجدا

وقول القمة القشيري:

نظرت وطرف العين يتبع الهوى بشرقي بصرى نظرة المتطاول
لابصر- نارا أوقدت بعد هجمة لريا بذات الرمث من بطن حائل

وقول ابن ميادة:

ألا لا تلطي الستريام جحدر كفى بذرى الأعلام من دوننا سترا
إذا هبطت بصرى تقطع وصلها وأغلق بوابان من دونها قصرها

حوران في شعر الامويين والعباسيين:

أن صاحب أذرعات جاءهم فطلب الصلح على مثل ما صولح عليه أهل
بصرى، ثم ولى عمر بن الخطاب علقمة بن علاثة، فقصدته الخطيئة فوصل اليه وقد
انصرفوا عن قبره فقال عند ذلك:

لعمري لنعم المرء من آل جعفر بحوران أمسى أقصدته الحبائل
لقد أقصدت جودًا ومجدًا وسؤدداً وحلمًا أصيلاً خالفته المجاهل^(١)

وللخطيئة قصيدة أخرى دالية ذكر فيها حوران فقال:
ألا طرقت هند الهنود وصحبتى بحوران حوران الجنود هجود

وأكثر الشعراء الذين ذكروا حوران ذكروها مع شيء غير قليل من الحنين
والشوق الى العيش الهني والحياة الرضية التي قضوها في ربوعها الخصبة يستنشقون
نسيمها العليل.

فهذا جرير يجتر ذكرياته في حوران و(الصفاء) التي قي شريقها، ويتمنى أن
تعود تلكم الأيام والذكريات:

هبت شمساً لا فذكرى ما ذكرتم عند الصفاء التي شرقي حورانا
هل يرجفن وليس الدهر مرتجفاً عيش بها طالما اخلولي ومالانا

وقد وصف الشعراء الطبيعة الصامتة والمتحركة، فقد كانت ربوع حوران
مألفاً للغزلان ترتع في سهولها بين جاسم والصفاء على أطراف البادية، فاتخذ الشعراء

(١) ياقوت الحموي.

من عيون غزلان جاسم مادة لتشبيه عيون الحسان اللواتي يتغزلون بهن، هذا الشاعر
الدمشقي عدي بن الرقاع، معاصر جرير، يتغزل بأُم القاسم فاتنة الألفاظ فيقول:
وكأنها بين النساء أعارها عينية أحور من مآذر جاسم
وسنان أقصده النعاس فرنقت في عينه سنة وليس بنائم

وقبل جرير وعدي بن الرقاع أشار عدي بن الكلابي إلى خصوبة أرض
الجولان ورياضها فقال:

أخبرن بالجولان روضاً ممرعاً وكان حارثة لهن لواء
لما احتلن حليلة من جاسم طرح العصي وأدرك الأهواء
فحللن خير محل حي سوقه وأنى لهن من الملوك جزاء

أما حنين العتابي الشاعر العباسي إلى حوران ولياليها الرقيقة فليست بأقل من
حنين جرير إلى ليالي الصفاة، فأرق قصائد العتاب قصيدته التي مدح بها هارون
الرشيد، وتحدث فيها عن ذكرياته في حوران:
يا ليلة لي في حوران ساهرة حتى تكلم في الصبح العصافير

وقد أشار ابن خلدون في مقدمته الشهيرة إلى أنواع الشعر في الشرق والغرب
فقال: «وأهل المشرق من العرب يسمون هذا النوع من الشعر بالبدوي، وربما
يلحنون فيه ألحاناً بسيطة، لا على طريقة الصناعة الموسيقية، ثم يغنون به ويسمون
الغناء به بأسم الحوراني نسبة إلى حوران من أطراف العراق والشام وهي منازل
العرب البادية ومساكنهم إلى هذا العهد».

ومن شعراء العصر الحديث نسمع أول نفحة اكبار يتفوه بها (حافظ ابراهيم)
مشيداً بعزيمة أهل الشام عامة، وأهل حوران خاصة، لتمردهم على الضم، وكيف
لا وهم أحفاد بني أمية وأنجال الغساسنة:

أبت أمية أن تفنى محامدها على المدى وأبى أبناء غسان
فمن غطارفة في جلق نجب ومن غطارفة في أرض حوران
لا يصبرون على ضيم يحاوله باغ من الانس أو طاغ من الجان

لقد أبلى أهل حوران بلاء حسناً في مقارعة الاستعمار الفرنسي، ولهم معه
مواقف مشهودة سجلها التاريخ بحروف من نور، منذ دخوله إلى أراضيهم،
وناصبوه العدا، وعقدوا العزم مع أهل الغوطة على إخراجهم.

حوران في الشعر العربي:

لقد مرت على أرض حوران حضارات تترى، يعرفها القاصي والداني،
وكانت دائماً البلد المعطاء، المنطقة التي تعطي الكثير ولا تأخذ إلا القليل، كم حنت
أرضها على الإنسان الذي يلوذ بأكنافها، ووهبته خيراتها وثمارها فتنعم بها ثم جحد
فضلها وأنكر نعمائها، وإذا كانت ذاكرة الإنسان لا تستوعب كل الحقائق ففي ثنايا
صفحات التاريخ ما يذكر الناسين، ويقرّع أسماعهم مهيباً بهم مجلجلا (فذكر أن
نفعت الذكرى) وإذا صمت لسان التاريخ فلسان الأدب بليغ، يرصد المآثر ويسجل
المكرمات ويجمع التليد إلى الطريف.

ورد ذكر حوران في شعر بعض شعراء الجاهلية كالنابغة الذبياني وامرؤ القيس
وغيرهما، وقد تردد ذكر حوران وأماكن بأعيانها في شعر النابغة، وذلك لأنه أكثر من

مدح الغساسنة، وكان هؤلاء يقيمون في أطراف الشام ومرابعهم آنذاك بين الجولان غربا وبصرى شرقا. فقد ذكرت كتب الأدب أن النابغة قدم على عمر بن الحارث الغساني ومدحه بقصيدته البائية المشهورة التي مطلعها:

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أفاسية بطيء الكواكب
تطاول حتى قلت ليس بمنقضٍ وليس الذي يرعى النجوم بآبٍ
وصدر أراح الليل عازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب

وذكر في هذه القصيدة قبر أبي الممدوح وجده، أحدهما بجلق والثاني بصيدا القريبة من كفر حارب فقال:

لئن كان للقبرين قبر بجلق وقبر بصيدا التي عند حارب

(ويقصد بجلق حرستا)

ورثى النابغة من ملوك الغساسنة النعمان بن الحارث بن أبي شمر بقصيدة مطلعها:

دعاك الهوى واستجهلتك المنازل وكيف تصابي المرء والشيبُ شاملٍ
وقفت بربع الدار قد غير البلى معارفها والساريات الهواطلُ
أسائل عن سعدى وقد مرّ بعدنا على عَرَصاتِ الدار سبع كواملٍ

وفي هذه القصيدة أكثر النابغة في ذكر أماكن في حوران كالجولان وبصرى وجاسم، وهذه الأخيرة هي التي دفن بقربها النعمان، فطلب النابغة أن تجود على هذه الربوع الغمام فقال:

سقى الغيثُ قبرًا بين بصرى وجاسم
ولا زال ريحان ومسك وعنبر
على مُتَّهَاهُ دَيْمَةٌ ثم هاطل
فأَبَ مُصَلَّوُهُ بَعِينٍ جَلِيلَةٍ
وغيثٍ من الرسمي قطرًا ووابل
وغودر بالجولان حزم ونائل
وحوران منه خاشع متضائل
بكى حارثُ الجولان من هلك ربه

ويبدو أن المرثي كان يتمتع بسلطان كبير في هذه المنطقة التي يحتلها، حتى أن الترك والأعاجم وكابل كانت تخشى سلطانه وتهاب نفوذه، وإلى هذا أشار النابغة عندما ختم قصيدته هذه ببيتة:

قعودًا له غسان يرجون فضله
وترك ورهط الأعجميين وكابل

أما امرء القيس فقد ذكر حوران في معرض رحلته التي يحكى لنا فيها قصة قدومه إلى بلاد الروم فاستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وذلك عندما توجه شطر بلاد الروم يستنجد بهم بعد أن أعرض عن الاستنجد بالعرب:

ولو شاء كان الغزو في أرضٍ حميرٍ
ولكنه عمدًا إلى الروم أنفرا

وفي طريقه إلى بلاد الروم فوصفها وصفًا سريعًا فقال:

فلما بدا حورانُ والألُّ دونَه
نظرت فلم تنظرِ بعينيك منظرا

كما ذكر أذرعَات في معرض تمجنه ومغامراته مع الحسان فقال:

تنورتها من أذرعَاتٍ وأهلها
بيشرب أدنى دارها نظراً عالٍ

وفي أبياته الغائية التي رثى فيها الحارث بن حبيب، وكان خرج معه إلى الشام ومات ودفن بالقرب من بصرى:

ثوى عندَ الودية جوفَ بصرى
أبو الأيتام والكَلِّ العجافِ

أما في العصر الحديث فقد أبلى أهل حوران بلاء حسنا في مقارعة الاستعمار الفرنسي، فقارعوه منذ دخوله إلى أرضهم وناصروه العداة وعقدوا العزم مع أهل الغوطة على اخراجه -كما ذكرنا في صفحات سابقة فلما مالت كفة الزمان عليهم انتقم المستعمر منهم وسلط عليهم جيوشه في أيام الحرب فألحق الدمار والخراب بحوران والغوطة كما سلط عليهم الجهل والفقر أيام السلم، وهذا ما حرك الشاعر العراقي (الكاظمي) الذي ارتجل قصيدته (رزاء الشام) في القاهرة سنة (١٩٤٥م) لإعانة منكوبين سورية خلال أيام الثورة السورية فقال:

طهها يابا بلقعا	حورانها أمسى وغو
نوب وخطب جعجعا	في كل دار جلجلت
سيم الهوان تمنعا	للعرب شعب أينما
بالغوطين تجمععا	ماذا بحوران وما
بلاء هنّ وأوجعا	نكبات دهر ما أمض

فكيف بالكاظمي لو رأى ما حل في حوران والغوطين ، وما عساه أن يقول: .
وللشاعر القروي في ديوانه (أعاصير) مجموعة قصائد يشيد فيها بمآثر أهل حوران ونضالهم ضد المستعمر:

من قمح حوران أراد وليمة فأتاه سم الموت من حوران

واكبارا لأهل حوران واعجاباً ببطولاتهم، جعل الشاعر القروي يضرب المثل ببطولاتهم ويطلب من اللبنانيين الذين أستكانوا آنذاك أن يقتدوا بأهل حوران الذين امتشقوا الحسام وأذاقوا الفرنسيين السم الزعاف:

حوران هَبَ إلى الحسام كأنها هو وحده العاني وأنت الهاني
لم يبق غيرك في الورى مستعبداً لم يبق غيرك أيها اللباني
أين التراث تراث أبطال الحمى أين البقية من بني غسان
لا تنكروها فالدم العربي قد جَلَّتْ أصالته عن النكران

وفي قصيدة خمسة يقول الشاعر القروي:

فتى حوران لا لاقيت ضرا لانت أحق أهل الشام فخرا
لئن لم يؤتك الرحمن نصرا فحسبك ان غضبت وكنت حرا
ولم تسلس لقيد أو قياد

ويقول أحد الشعراء مهيباً بشعب حوران وبطولته:

قسماً بجرحك با البطولة زَعَزَعْتُ عرشاً تربع فوقه جزار
سنظل نقذفهم بأصيد سيد حتى يزول الغاصب الغدار

الشعر الغنائي قديماً: «أنواعه وأعراضه»

بإمكان المشاهد أن يستمتع إلى جميع أنواع الغناء في عرس واحد، بل ليلة واحدة هي ليلة الحناء (اليلة التي تسبق الدخلة) ونهار الزفة بعد ليلة الحنة مباشرة.

أنواعه:

١- الحدادي (الحداء):

يغني وراء العريس أثناء زفافه أو ذهابه إلى وليمة ومعظمه في الغزل والحماسة

أ - لحن

يا بنت يللي بالمصيف دونك مراشح خيلنا
إنـت غـواج بقـذلتك وحنـا غوانـا فعـالنا

ب - لحن

يا بيض لاتـبكن عليه حنا خلف لـي غدا
حنا مثل عشب الرياض نلحق على طول المدى

ج - لحن من الحداء أطول

يا عشيري لو تحلويت بلسانك والمحبة مينة بوجه راعيها
نسمح الزلات والغيط من شانك حاجتك لو على الروح نقضيها

٢ - الهجيني أو (الهجائي) بدوي المنبع، والهجانة (جنود البادية) ولا يغني به
إلا من كان صوته جميلاً، ويمكن أن يغنيه واحد أو اثنان أو أكثر.

من أمثلته قول أحدهم مخاطباً ابن شعلان: (أمير من إمراء قبيلة عنزه، كان
معروفاً في الأربعينات القرن الماضي).

والشمس غابت يا بن شعلان وأريد أدور معـازيبي
والدله تسكب على الفنجان وبهارها جـوزة الطيبِ

ومنه أيضاً:

يا شوقي لا تحلفن بالله يا شين عادتـك البوقي (الكذب)
ومكيف انت وربوعك واني براس الشفـافـوق

ومن ذلك:

يايُمّه شفت الترف زعلان واليوم ما هو على كفي
هبت بقلبي تقول نيران هبت النسوم مع الصيفي

٣- الجوفية: جاءت من الجوف في الجزيرة العربية، وطريقة أدائها ينتظم الرجال في صفين متقابلين، أحدهما يبدأ بالقول والآخر يرد ما قاله الأول، بينما تتحرك الأقدام حركة آلية مبسطة مع سير بطيء باتجاه اليمين وعندما تنتهي القصيدة يقترب الصفان وجها لوجه مع التصفيق المنسجم مع اللحن في آخر المطاف.

وها هي ثلاثة نماذج لمقاطع مختلفة اللحن:

١- ياتايه الشور يللي تحاربنا حنا قبلك بينا الحرايب
كم صبي العمر قصرنا مخدعه بين عوج النصاب
٢- هيه من هيه يابو قذيلة هله لاتوخذين الردى ما هو عالبال
والردى مثل حيط كاسر ظله لالووليفه ولالو فيها مقيال
٣- صاح الصالح وطب بالنجع خوف يا أهل الحيل قوموا أفرعوا بينا
طوعناها من عمان للجوف ومن الشام لحد الطفيلة (بلد في الاردن)

٤- البداوية: واسمها دليلها وتؤدي آخر نمرة في ليال العرس. ويكون المحتفلون قد دبكو ورقصوا وغنوا. ولحنها واحد لا يتغير، قد تتغير الكلمات من شخص لآخر بحسب صلته وخبرته واكتسابه من البدو. غير أن المطلع ثابت وهو:
هلا هلا هلا بيك يا هلا ليا حليفي يا ولد

وفي الغناء تظهر هكذا:

هـلـو هـلـو يـا هـلـو لـيـا حـلـفـي يـا وـالـا

لذا فان الغريب من البيئة يجد نفسه وكأنه أمام لغة هيروغلفية. وفي حلقة الجوفية ترقص فتاة، ترتدي عباءة، رقصة بدوية والذي يغني القصيدة رجل واحد، أما الآخرون فيرددون المطلع والمقصد هو الفتاة التي ترقص.

٥- أغاني الدبكات: الرجال يدبكون على أنغام المجوز أو الشبابة، والنساء يدبكن دون مشاركة أية آلة ويتميزون بحركة آلية تمتاز بالسرعة والدوران المستمر على نغم الاغنية.

والأغاني كانت مشتركة بين الجنسين. ومع الزمن انفراد كل فريق بأغان خاصة.

أ- بين سمجين وداعل	فقع الكما يا طيه
طلع الناطور ينبه	كل من يوخذ حيبه
ب- شوقي يا بوبارودة	عود النخل متدلي
يومن تشوفك عيني	كل الهموم تولي
ج- سلم على عربنا	وان جيتهم يا باداي
قرن شوقي يا الأشقر	على النهديا باداي
د- يا زريف الطول يا السن الضحوك	يلي رابي بدلال أمك وأبوك
يا حصرة قلبي يومن طلبوك	شعر راسي وظهيري انحنى

٦ - أغاني الحراثة والكدح والحصاد: وهو يخاطب دابته:

يا حمرة يا ليمونة لا اتحرمني المونة

يا ما سرينا والخواجة نايم أكلتوا منه قوموا إليه

وأطعمني سكرة من سكاكر النبي (سكاكر المولد النبوي)

والنبي يا هييته الله يسعد شـيـيته

ب - هب الهوى هب الهوى يامين يوصف لي دوا

عند الحكيم بنوى

ج - يا حمرة يا مال الهلب يبلاك بكلبين وكلب

٧ - أغاني المأتم: مجموعة من الألحان الحزينة تغنيها النساء فقط ولا تؤدي

إلا عندما يكون الفقيد شابا، وهي شريط استعراضى لمزاياه ومآثره ووصف للواقع

المؤلم الذي خلفه وراءه من زوجة وأولاد.

أما الغناء الإفرادي على القبر (فيسمى الندب)، هذا محرم في الإسلام.

يا حيف يا بو فلان كيف سويت يا حسرة أولادك والمريّة

يا هل ترى شو صار لو ظليت؟ يا كتبتى يا غالي عليه

أما الشعر بعد الاستقلال في حوران فلم يحدث أي تغير في الشكل وإنما الذي

حدث في المضمون، فقد رصد الشعر كثيرا من نقاط التجديد، وسجل مواقف

الصراع بين القديم والجديد عندما كان الكثيرون يستقبلون المبتكرات الحديثة

بالتنكر والعنت.

وهذا رشود المصري يتخذ موقفاً معادياً من السيارة ويفضل عليها الجمل
عندما عقد حواراً بين الجمل والسيارة قال فيه:
ليا طنبيل انقشل وين ياغي؟

لحمك من الكاوتشوك عظمك براغي
من قبل ما حطوا عليك الدماغي
دقوك بين المطرقة والسدادين
اطلعت انا المرآب عالحزن طليت
وأشوف أنا الجولان من الناس خالي
عنك يا ديرة المعزاة نحيت
ونيران قلبي زائدة باشتعال
يا شين يا تل الفرس كيف سويت
أشوف عدانا نازلينك قبالي
يا ديرتي يا أم النعم كل ما حبيت
وزادت على كل ديرة با النفال
واحنا العرب أهل الشهامة وهلا الصيت
نفديك بكل رخيص وغال

ولرجاء المحاميد^(١):

طلعت عالدرج طخة عا طخة داست بقلبي ما قلت أخه
والله يا بنية لانصبلك فخة وأصيدك صيد الحجل باعيونا

أما اللحن الثاني فمن قرية صيدا:
لقوي تزومي وتشوفي حالك بخمس دقايق بهوى بدالك
هايه المرايا وشوفيلي حالك وجهك مصفر مثل الليمونا

الشعرالفصيح:

ثمة طائفة من الشعراء الذين أسهموا في ميدان الشعر الفصيح التقليدي منه
والحديث.

ونثبت قصيدة قالها الأستاذ رجا المحاميد في رثاء غويفارا، كنموذج لهذا الشعر
والتدليل على سويته

أبكتك داراً أم بكتك ديارُ أم نُكست أعلامها الأمصار؟
يا فارس الميدان هلا عدتنا عشقتك يا بن الكادحين قفار
شرف العقيدة أن تموت من فوق الدروب وقد علاك غبار

ورجا المحاميد كان يؤمن بالاشتراكية على ما يبدو وياله من إيمان ، غفر الله له
وإني أظن أنه قد تاب وأناب في آخر حياته.

(١) من هؤلاء الشعراء (زاهي القائد - رجا المحاميد - نقولا حتمل - لويس رزق وغيرهم).

الحكم والأمثال:

الأمثال في حوران كثيرة ومتنوعة، مثلها مثل باقي الناطق في أنحاء العالم، وهي ضواهر اجتماعية، تستخدم للإستدلال بها أثناء المسيرة الحياتية للفرد، مثل اللافتات التي توضع على الطرقات، وتختصر الكثير من الكلام، وتغي عن السؤال أحياناً، وهي خلاصة تجارب الناس على مرّ الأجيال، أصبحت كقوانين يسترشد بها جيلاً بعد جيل، تحض المرء على الأدب والأخلاق والتسامح، وهي عبارة عن حكم قصيرة مقتضبة.

وهذه طائفة منها نوردها لإلقاء شعاع جديد على الصورة عسى أن تزد أبعادها وضوحاً:

إلي طبع طبع والي ربع ربع (يعني كل شي قد انتهى)

إلي بدو يصير جمال بدو يعلي باب داره (يعني الذي يرغب في الزعامة يجب أن يكون جديراً بها)

إبن العم بيؤخذها عن الهودج (يعني حق إبن العم في الزواج من ابنة عمه دون الغريب)

لو ماك يا لسان ما إنقطعت يا راس (يعني اللسان يجر لصاحبه الشر)

عِدّ رجالك وَرَدِ المي (يعني لا تورط نفسك في مآزق لا تتمكن من الخروج منه)

كبر البيدرو لا شماته العدا (يعني أن الإنسان عليه أن لا يظهر فقره حتى لا يشمت به الناس) ما يغطي العين غير جفونها (يعني لا يستر عيوب الأقارب إلا الأقارب).

الشیطان الرجیم ولا الدركي القديم.(لأن الدركي القديم يكون خیر بفنون السلب باسم القانون)

صیت غنی وصیت فقر.

اجتمع المنحوس على خایب الرجا.

بارك الله بالبيت إلی بیطلع منه بیت.

جنبناک یاعبد المعین تعینا، طلعت یاعبد المعین (.....) ما بیضیع حق وراءه مطالب. مال الحرام بیوخذ مال الحلال معه. ابن الحرام ما خلا لابن الحلال مطرح.

المال إلی بتجیهه الريح بتوخذہ الزوابع.

أنی وأخوی علی ابن عمی، وأنا وابن عمی علی الغریب زة صبر ساعة.

هین فلوسک ولا تهین نفوسک.

المکتوب مامنو مهروب.

کل تأخيرة وفيها خیر.

إذا ماكنت ذیب بتوکلک الذیابه

كما تعکس الأمثال الشعبية الحورانية، العلاقة بین الإنسان والأرض، (كانون فحل الشتاء، مثل غیمة شباط، آذار الهدار أبو الزلازل والأمطار فيه سبع ثلجات كبار، بنيسان لاطلع الدحنون (وهو نوع من الزهور الحمراء) خبی بذارك یا مجنون، بأیار اسحب منجلك وغار، بحزیران خبی رزقك بالتبان، بتموز بتنشف المي بالكوز، آب اللهاب، أيلول ذیلو مبلول، بین تشرین وتشرین صیف ثاني.



اللائحة

- الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا على ما أنعم علينا ويسر لنا تمام هذا الكتاب، وهو كتاب حوى بين دفتيه كل مايتعلق بتلك البقعة المباركة من بلاد الشام، الواقعة بين حوضه دمشق شمالًا وجبال عجلون جنوبًا وجبال الشيخ غربًا وجبل حوران شرقًا، فجاء بحمد الله مستوفيًا الغرض الذي أردنا أن نجتمع فيه ما استطعنا عن الحياة الاجتماعية والتاريخية والثقافية لهذا الجزء الهام الغالي من سورية، وقد عانينا كثيرًا أثناء جمع موادّه بسبب عدم وجود كتب تتحدث عن جوانب الحياة في حوران، أو مصادر تاريخية، إلا ماتمكنا من نبشه من بطون كتب شتى تتحدث عن جنوب بلاد الشام، أو عن جنوب دمشق، لذلك لا يسعنا إلا أن نعترف بالتقصير وخاصة فيما يخص الأعلام والشعراء والأعيان الذين ذكرناهم، وفي يقيننا أن الطريق الطويلة تبدأ بخطوات، وأن يد البحث والتنقيب لا تمل ولا يروق لها أن يبق الباب موصدا، وما لا يدرك كله لا يترك جله.
- ولا شك أن كل باحث ينشد الكمال في بحثه، وهذا محال، لهذا أتوجه إلى القارئ الكريم، بأن يعذرنى عن التقصير إن وجد تقصيرًا، وأن يغفر لي زلاتٍ إن وجدها، فما أنا إلا إنسان أحب وطنه وآمن به وعبر عن حبه وإيمانه بهذه الطريقة.
- وقد ختمت هذا البحث بمصادر توضح ما إتكتأت عليه وما أخذته من الكتب والمراجع التي أشرت إليها، وعذري أنني اجتهدت فإن أصبت فبفضل الله، وإن أخطأت فآلتبس منكم المعذرة، وسنعمل إن شاء الله على إصدار الجزء الثاني من

حوران في التاريخ، إن أحيانا الله، لنصل الماضي بالحاضر ولنجمع بضمير علمي، وأمانة خالصة ما إستطعنا من معلومات وندون بإيجاز ما حصل من أحداث جرت على هذا الجزء الغالي من سورية الحبيبة، حيرت عقول العقلاء وأدهشت بفظاعتها جبابرة الدنيا، لأن ما جرى في سورية في عصرنا هذا، لم يجر على أية بقعة من بقاع العالم ولا أظنه سيجري مستقبلاً، لذلك يجب أن نعي أن ماتعيشه الأمة اليوم هو بسبب مخلفات (سايكس بيكو)، والتقسيمات التي وضعوها، والحدود التي رسموها، والعنصرية التي زرعوها، والتي تتغنى بهذه الحدود، وتتغنى بأعلام فرضها أعداء هذه الأمة .

- طبعاً الأمر أعمق من ذلك بكثير، ولا يكفي أن نتكلم عنه بصفحة أو صفحتين، وإن هذا الوضع الذي نعيشه اليوم، هو جرح عميق بدء منذ إتفاق (سايكس بيكو) المشؤوم الذي ذكرناه، والذي فرقنا وشتت شملنا.
- لذلك وجب علينا أن ننزع من قلوبنا هذه الحدود التي رسموها والأعلام التي نصبوها، قبل محاولة نزعها على الأرض.
- وهو قادم قريباً بإذن الله، ولاشك عندي ولأريب، وستجتمع الأمة وتتوحد، وستشرق شمسها على الدنيا، وسيزول الظلم والظلمة ويسود العدل والسلام بإذن الله، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

بطاقة شكر

أثناء عملنا في هذا الكتاب كان لنا العون والتشجيع من عدد من الأصدقاء، وأخص منهم السيد بشير محمود الصعيدي (أبو هنائي) من عرطوز، والعقيد الطيار ياسين الحريري (أبو خالد) من بسر الحرير، والسيد نورس الحريري (أبو بشار) من الشيخ مسكين، والسيد أبو رضوان المقداد من مدينة بصرى الشام، ابن المرحوم الأستاذ حسين المقداد رحمه الله، ولن أنسى الصديق العزيز المرحوم عمر الحلبوني الذي ساهم مشكورا في إعداد المقدمة الجغرافية، وإلى كل من ساهم من أبناء كافة العائلات في حوران الأبية في إخراج هذا الكتاب، أتقدم بخالص شكري وامتناني.

والله ولي التوفيق

المؤلف



أهم المراجع

١. معجم البلدان لياقوت الحموي.
٢. معجم الأدباء لياقوت الحموي.
٣. الأعلام لخير الدين الزركلي.
٤. مقدمة ابن خلدون.
٥. لسان العرب لابن منظور.
٦. أسواق العرب في الجاهلية والإسلام لسعيد الأفغاني.
٧. تاريخ آداب اللغة العربية لرجي زيدان.
٨. مسالك الأنصار في محالك الامصار.
٩. تاريخ دمشق لابن عسكرو.
١٠. تاريخ القلانسي.
١١. الادريسي.
١٢. الاصطخري.
١٣. ابن الفقيه.
١٤. ابن حوقل.
١٥. القلقشندي.

١٦. ابن كثير.
١٧. البهيتي.
١٨. ابن حلكان.
١٩. تاريخ آداب اللغة العربية الجزء الثالث، ص ١٢٦.
٢٠. الموسوعة الحورانية الجزء الأول - قرى وأنساب حوران: الدكتور محمود مصطفى - المهندس هشام عبد العزيز.
٢١. تاريخ سوريا - نهاية الحكم التركي: الدكتور علي سلطان.
٢٢. حوران الدامية؛ حنا أبي راشد.
٢٣. الثورة السورية؛ أدهم الجندي.
٢٤. تاريخ سوريا والبنان؛ فيليب حتي.
٢٥. عيد الجلاء في حوران؛ سيف الدين العجلوني.
٢٦. المحفوظات الملكية المصرية؛ أسد رستم.
٢٧. دزمونت سيتوات - العالم العربي.
٢٨. حنا فرنسيس - الآرمية المحكية.
٢٩. هنري عبود - تاريخ العرب القديم.

الفهرس

الإهداء	٥
كلمة فضيلة الأستاذ الدكتور الشيخ محمد فتحي راشد الحريري	٧
المقدمة	١٣
جغرافية حوران	١٥
حوران وحورانو وحوريم وباشان وباثان واورانيس	١٥
سير خط الحدود لمنطقة حوران	١٦
البنية الجيولوجية في منطقة حوران	١٨
البنية الجيومورفولوجية في منطقة حوران	٢٠
البنية البنائية والتكتونية في منطقة حوران	٢١
المجال الحيوي في بنية منطقة حوران	٢١
المناخ في منطقة حوران	٢٢
١ - الحرارة	٢٣
٢ - الرياح	٢٤
٣ - الرطوبة الجوية	٢٥
٤ - الأمطار	٢٥
أ - المياه السطحية	٢٦
ب - المياه الجوفية في منطقة حوران	٢٩

٢٩	الخصائص العامة للمياه الجوفية في إقليم جنوب غرب سورية
٣١	صعوبات الحصول على المياه الجوفية في حوران
٣٢	جيومورفولوجية منطقة حوران والتربة
٤٠	مياه الشرب في حوران
٤١	مياه الشرب في حوران عبر التاريخ (حتى العصر الحديث)
٤٢	نسبة الزيادة في حوران
٤٤	عوامل ارتفاع نسبة التوالد
٤٤	١ - عوامل دينية
٤٥	٢ - اعتبارات عشائرية
٤٦	٣ - اعتبارات اقتصادية
٤٦	٤ - الخوف من الطلاق
٤٧	تفضيل الذكور على الإناث
٤٨	التركيب الديمغرافي للسكان في منطقة حوران
٤٩	حركة السكان في حوران
٤٩	الظواهر المؤثرة في حركة السكان في حوران
٥٢	لمحة عامة عن الهجرة في سورية
٥٢	الهجرة البشرية: «تعريفها - أسبابها - أنواعها - نتائجها»
٥٢	١ - تعريف الهجرة
٥٣	الهجرة الريفية

أهم أسباب الهجرة:	٥٣
أولاً - بنية الملكية الزراعية	٥٣
ثانياً - دخول الآلة الزراعية	٥٤
ثالثاً - إغراء المدينة	٥٤
الهجرة الخارجية	٥٥
الهجرة الحديثة	٥٧
هجرة الأدمغة وأسبابها	٥٨
حوران والهجرة	٦٠
مراكز التجمع البشرية في حوران	٦٣
أولاً - مراكز التجمعات البشرية	٦٣
نماذج مخططات القرى في حوران	٦٤
أسباب زيادة عدد القرى في المنطقة الغربية من حوران	٦٥
أهم مراكز التجمع البشري في حوران	٦٦
مخطط مدينة درعا على جانبي الزيدي	٦٦
مخطط مدينة درعا	٦٧
عدد السكان في درعا وتطوره	٦٧
وظيفة مدينة درعا	٦٨
مراكز التجمع البشرية الكبرى في حوران	٦٨
المسكن في حوران	٦٩

٧١	نظام الغذاء في حوران
٧٢	استهلال
٧٤	الأهمية التاريخية لمنطقة حوران
٧٥	التسمية
٧٦	تاريخ حوران
٧٧	إنسان ما قبل التاريخ في حوران
٧٨	١ - عصر ما قبل التاريخ
٧٨	٢ - العهد السامي
٧٨	٣ - العهد الآرامي
٨٠	- الساميون
٨١	- الآموريون
٨٥	٢ - الكنعانيون
٨٨	٣ - الآراميون
٩٥	العبرانيون والعهد القديم
١٠٠	٤ - الآشوريون
١٠١	٥ - الأيطوريون
١٠٤	٦ - الأنباط
١١٦	العصر اليوناني
١١٧	الحوريون

- ١١٧..... الرفايون العمالة.
- ١١٨..... السلوقيون.
- ١١٨..... الضجاعم.
- ١١٩..... الشهابيون.
- ١٢٠..... الصفويون.
- ١٢٢..... العصر الروماني.
- ١٢٥..... حوران والاكتشافات الأثرية في العصور التاريخية.
- ١٢٨..... الشؤون المالية في الولاية العربية.
- ١٣٠..... حوران وحقوق الرعوية الرومانية.
- ١٣٢..... فيليب العربي.
- ١٣٣..... مفكرون في حوران في العصر الروماني.
- ١٣٣..... العهد البيزنطي.
- ١٣٤..... الغساسنة في العهد البيزنطي.
- ١٤٠..... الغساسنة.
- ١٤١..... حضارة الغساسنة.
- ١٤٤..... حوران في عهد الغساسنة.
- ١٤٦..... أمية بلاط الغساسنة.
- ١٤٩..... ملوك غسان على الشام.
- ١٥٦..... حوران في العصر الجاهلي.

- الفتح الإسلامي..... ١٦٢
- ١ - فتح بصرى ومعركة اليرموك ١٦٢
- العهد الأموي..... ١٦٨
- العصر العباسي الأول..... ١٧٤
- العصر العباسي الثاني..... ١٧٥
- الغزو المغولي والعهد الأيوبي..... ١٧٨
- العهد الأيوبي..... ١٧٨
- عهد المماليك..... ١٧٩
- العهد العثماني..... ١٨١
- نضال الشعب العربي في حوران..... ١٨٢
- ١ - النضال في العهد النبطي..... ١٨٢
- ٢ - النضال في العهد البيزنطي..... ١٨٣
- ٣ - النضال في العهد العثماني..... ١٨٥
- ثورة حوران..... ١٨٨
- هيئة زعماء حوران..... ١٩٢
- معارك المجاهدين الحوارة..... ١٩٣
- معركة المزرعة بقيادة سلطان باشا الأطرش..... ١٩٨
- معركة المسيفرة..... ١٩٩
- معركة عرى..... ٢٠٢

٢٠٢.....	معركة الدلي
٢٠٥.....	ردّ على أباطيل الشهنندر
٢١١.....	ثورة حوران عام ١٩٢٠ م
٢١٢.....	تجريدة حوران أو العميشية
٢١٦.....	مشروع الثأر لفصيل يقوده مصطفى الخليلي ورفاقه
٢٢١.....	حوران وأحداث (١٩٣٦ م) والعدوان الفرنسي في أيار (١٩٤٥ م)
٢٢٤.....	أبطال حوران في السهل والجبل
٢٢٤.....	١ - سلطان باشا الأطرش
٢٣٠.....	٢ - المجاهد مصطفى الخليلي
٢٣١.....	٣ - سعد الدين المقداد
٢٣٣.....	آثار حوران ومبانيها
٢٣٣.....	آثار الأنباط
٢٣٣.....	آثار الغساسنة
٢٣٤.....	آثار العثمانيين في حوران
٢٣٤.....	آثار الفرنسيين
٢٣٤.....	المدن القديمة في حوران
٢٤١.....	مواقع أثرية منسية في حوران
٢٤٦.....	- أهم المدن والمباني والمواقع الأثرية في حوران
٢٤٦.....	- مدينة بصرى

- هيكل المدينة والحياة اليومية وطراز اللباس وبعض العادات والتقاليد ٢٥٢
- الحياة الاقتصادية في حوران أثناء الحكم العثماني ٢٥٣
- الحياة الاقتصادية وتطورها في حوران ٢٥٥
- ١ - البيئة والتغذية في القرن التاسع عشر ٢٥٥
- الأصناف والكماليات ٢٦٠
- طبائع وجهاء حوران في السهل والجبل ٢٦٥
- التطور الاقتصادي والاجتماعي في حوران ٢٦٩
- ١ - الحياة الفنية في حوران ٢٧٥
- أولاً: بيوت السكن ٢٧٥
- ثانياً: بعض الصناعات الريفية واليدوية ٢٧٨
- كيف تتم عملية الدق بالإبر؟ ٢٨١
- الفنون الحورانية ٢٨٢
- اغاني حرث الأرض ٢٩٤
- أغاني الحصاد ٢٩٥
- أغاني دَرسِ الحبوب (القمح اوالبذور الاخرى) ٢٩٥
- أغاني الذراوة ٢٩٦
- أغاني الرجاء ٢٩٦
- اغاني العين ٢٩٧
- أغنية ضرر الدخان (السجاير) ٢٩٧

- ٢- الحياة الفكرية في حوران..... ٢٩٨
- ١- الشعر الحوراني..... ٢٩٩
- كبريات عشائر حوران (١٩٢٥ - ١٩٢٦ م)..... ٣٠٣
- نسب العائلات الحورانية..... ٣٠٧
- عشيرة الحشيش..... ٣١٧
- عشيرة العبيد..... ٣٢٤
- عشيرة العبيدات..... ٣٢٤
- عشيرة السويدان..... ٣٢٧
- عشيرة الخوالدة..... ٣٢٨
- عائلة البريدي..... ٣٢٨
- عشائر حوران..... ٣٣٥
- عشائر الجولان..... ٣٣٦
- عشيرة آل نعيم..... ٣٣٧
- عشيرة اللهيب..... ٣٣٧
- مفكرون من حوران في العصر الروماني..... ٣٣٨
- الآلات الموسيقية التي تستعمل بأداء اللحن..... ٣٣٩
- الشروقي..... ٣٤٠
- الزجل الحوراني القديم..... ٣٤٥
- حوران والشعر..... ٣٤٨

- حوران في شعر الامويين والعباسيين ٣٤٩
- حوران في الشعر العربي ٣٥١
- الشعر الغنائي قديما: «أنواعه وأعراضه» ٣٥٥
- الشعر الفصيح ٣٦١
- الحكم والأمثال ٣٦٢
- الخاتمة ٣٦٥
- بطاقة شكر ٣٦٧
- أهم المراجع ٣٦٩